قسّ ونبيّ



سلسلة "الحقيقة الصعبة" (١)



قس ونبي

(بحث في نشأة الإسلام)

أبو موسى الحريري

دار "لأجل المعرفة"
ديار عقل - لبنان
٢٠٠٥

سلسلة "الحقيقة الصعبة"

دار لأجل المعرفة، ديارعقل-لبنان. قياس (١٧×٢٤)

١. **قسّ ونبيّ**، بحث في نشأة الإسلام، أبو موسى الحريري، ٢٠٠١، ٣١٤ ص.
٢. **نبيّ الرحمة**، بحث في مجتمع مكّة، أبو موسى الحريري، ١٩٨٥، ٢٠٨ ص.
٣. **عالم المعجزات**، بحث في تاريخ القرآن، أ. موسى الحريري، ١٩٨٦، ٢٥٠ ص
٤. **أعربيٌّ هو؟** بحث في عروبة الإسلام، أبو موسى الحريري، ١٩٩٠، ٢٥٤ ص
٥. **العلويّون النّصَيريّون**، بحث في العقيدة والتاريخ، أ.م. الحريري، ٢٧٢ ص
٦. **بين العقل والنبيّ**، بحث في العقيدة الدرزيّة، أنور ياسين، ١٩٨١، ٤٦٤ ص.
٧. **رسائل الحكمة**، (كتاب الدروز المقدّس)، حمزة بن عليّ، إسمعيل التميمي، بهاء الدّين السّموقي، طبعة ٥، ١٩٨٦، ٨٦٤ صفحة.
٨. **مصادر العقيدة الدرزيّة**، حامد بن سيرين، ١٩٨٥، ٥٧٦ صفحة.
٩. **السلوك الدرزي**، أنور ياسين، ١٩٨٦، ٢١٨ صفحة.
١٠. **مذبحة الجبل**، (حسر اللّثام عن نكبات الشام، تاريخ الحرب الأهليّة الدامية في لبنان سنة ١٨٦٠)، شاهين مكاريوس، ١٩٨٣، ٣١٠ صفحات.
١١. **المسيحيّة في ميزان المسلمين**، (ردّ على كتاب "الإسلام والمسيحيّة في الميزان" لـ شريف محمّد هاشم)، أبو موسى الحريري، ١٩٨٩، ٢٥٦ ص.
١٢. **نَزَعنا القناع**، (ردّ على كتاب "أنزعوا قناع بولس عن وجه المسيح"، لـ أحمد زكي)، ١٩٩٧، ٣٦٠ ص
١٣. **رغبات النفس والجسد**. (الحياة الجنسيّة في الإسلام)، أبو موسى الحريري، ٢٠٠٠، ٢٨٨ ص.
١٤. **موازين «الحقيقة الصعبة»**، (ردّ الحريري على ردود مسلمين)، ٢٠٠٠، ٢٣٦ ص.
١٥. **نصارى القرآن ومسيحيّوه**، أ.جوزف قزّي، ٢٠٠٢، جزآن في ٦٤٠ صفحة.
١٦. **المسيحيّة في ردود المسلمين** أ. جوزف قزّي، ٢٠٠٢، جزآن في ٦٤٠ ص.
١٧. **هذا هو الإسلام**، أ. جوزف قزّي، ٢٠٠٥، ....ص.
١٨. **بين المسيحيّة والإسلام**، أ. جوزف قزّي، ٢٠٠٥، ٤١٦ ص
١٩. **مسيح القرآن ومسيح المسلمين**، أ. جوزف قزّي، ٢٠٠٥، ٢٠٨ ص

مقدمة

ألمقصود هو البحث عن هويّة القسّ ورقة بن نوفل، وعن صلته بالنبيّ محمّد بن عبدالله. والنتيجة هي إظهار ما أخفاه التاريخ عن نشأة الإسلام وحقيقته وعلاقته بالنّصرانيّة. ولن تمرّ بالبال قط أيّة محاولة للتقارب بينهما. تلك المحاولة المستمرّة التي ضلّت الحقيقة وعطّلت العقول. إنّها محاولة فاشلة وضالّة ومضلّة، مع كونها تدعو إلى الوئام والإلفة والسلام. هي فاشلة لأنها لم يتوفّر لها النجاح يوماً؛ وهي ضالّة لأنّها تُبنى على أسس غير صحيحة؛ وهي مضلّة لأن المقصود منها كلّ شيء ما عدا حقيقة الدين.

وسبب الفشل والضلال جهل بالنّصرانيّة والإسلام على حدٍّ سواء. فلا هذه النّصرانيّة، التي يأخذ بها مسيحيّو اليوم، هي تلك التي كان يدين بها القسّ والنبيّ؛ ولا إسلام اليوم هو ذاك الذي دعا إليه كلٌّ من القسّ والنبيّ.

وسبب الجهل يعود إلى أنّ فرْقاً شاسعاً بين نصرانيّة القسّ ومسيحيّة اليوم، وبين إسلام النبي وإسلام اليوم. هذا الفرق أضلّ الكثير من مؤرّخي الأديان: فمؤرّخو الإسلام حقّقوا في ما نقلتْ كتب السِّير والأخبار، دون أن يحقّقوا في مقصود أهل السِّير والأخبار؛

وحقّقوا في ما هو عليه القرآن اليـوم، دون أن يحقّقوا في ما كان عليه بالأمس. ومؤرّخو النّصـرانيّة تتبّعوا النّصرانيّـة في كلّ مكان ما عدا المكان الذي احتجزتْ فيـه، أي مكّة والحجاز. هذه النّصرانيّة أهملوها، وأهملوا تطوّراتها وأحزابها، ظنًّا بموتها وانقراضـها.

ولئـلاّ يكونَ كلامُـنا على النّصـرانيّة والإسـلام عـامًا، فـإنّنا سنحـدّده في مرحلةٍ من الزمن مـعيّنة، وهي المرحلة التي انـقرضتْ فيها النّصرانيّة في مكة، ونشأ الإسلام على أنقاضـها.

ولئلاّ يدور البحث في كلّ شيء فإنّنا سنقف عند القسّ والنبيّ ومقصـدهما العظيم. وقد ننكر الآن مقصـدَهما العظيم هذا، ولكنّنا لا نستطيع التنكّر للحقيقة التاريخيّـة. فمهلاً! إنّ ما نسعى إليه اليوم من تقاربٍ ونفشل، قد سعى إليه كلٌّ من القسّ والنبيّ ونجح. وتمّ النجاح في الإسلام بعدمـا ذابت النّصرانيّة فيه. ولا تظنّن، للمـرّة الثانيّة، أنّ نصرانية الأمس هي مـسيحيّة اليوم. فتلك أسلمـتْ، وهذه لم يعرفْها الإسلام أبداً. ونصـرانيّة مكّة ليـست هي مسـيحيّـة إنطاكيـا وروما والإسكندريّة. ومـقـصد القسّ والنـبيّ كان تلك لا هـذه. وتلك كهـذه كانت مبـعثرة في شيع وأحزاب. أراد القسّ والنبيّ جمْع شـتاتها في دين واحد جديد.

ولكلٍّ من القسّ والـنبيّ، في الدّين الجـديد، دور: ألأوّل أوحى وعلّم ودرّب وأرسى الدعـائم؛ والثـاني سمع وتـعلّم ودرس وشيّـد البنيـان. وفضل الأوّل على الثـاني كفـضل المربّي على ربيبـه. ألقسّ أستاذ علّم فتىً ذكيّ الفؤاد عرف اخـتياره ونجح؛ والنبيّ تلميذ نجيب حفظ ما تعلّم وأبدع. ألأوّل نقل كلمة اللّه الأعجـميّة إلى «لسان عربيٍّ

مـبين»؛ والثـاني «بلّغ» كلمـة اللّه الـعربيـة، و«تلاهـا» على المؤمنين. كـلاهما عـمل من أجل اللّه، ومن أجل أن يكـون للأميّين إلهٌ ورسـول وكتاب. فكان للعرب إلهٌ يَعبدون، ورسولٌ يتبعون، وكتابٌ يقرأون.

بيد أنّ النبيّ استطاع أن يتفوّق على القسّ ويستقلّ عنه، شأنه شأن أيّ تلميذ بارع يتخطّى بذكـائه قدرات معلّمه. وشأن القسّ شأن أيّ مربّ حكيم يتـرك لربيبـه حريّة التصـرف. لقد كـان النبيّ، لفرط ذكائه، ينشد الحريّة ويلتمس الاستـقلال؛ وكان القسّ، لوفرة حكمته، يختـفي أمام عنفـوان تلميـذه بلباقـة، ويتوارى عن المسـرح حتى إنّ التاريخ طمس الكثـيرَ عنه. لقد أدّى القسّ خدمـته وذهب؛ وبقي النبيّ يجاهد ويناضـل حتى حفظ له التـاريخ أجمل مـا حفظ. إلاّ أنّ النبيّ، كما عرف أن يتدرّب على القسّ بأمانة، عرف أيضاً كيف يتصرّف بما تعلّم بحكمة. فجاءت رسالته مناسبة لظروف البيئة والمجتمع!

ولئن كان كـلُّنا يعرف النبيّ ورســالته وسيـرته، فإنّ أكـثرنا يجهل الـقسّ وهويّته ودوره في إرســاء دعائم الدِّين الجديـد. وسبب جهلنا، لا شكّ، مصيبة بالغـة، أرادها التاريخ كما أراد سواها في هذه البقـعة من الأرض. والمصيـبة الكبرى، تقع، لا مـحالة، على من يريد نبش مطاميـر هذا التاريخ المنكود، لأنّ القابضـين على الحـقائق المنزلة يصعب عليهم البـحث في حقائق التاريخ، ولن يدركـوا أنّ باستطاعة اللّه إبلاغ كلمـته من خـلال الإنســان، وبأيّ وسيلة كـانت! ومع هذا، فنحن لسنا مجبرين على تصـديق الحقائق حتى ولو كانت منزلة من لدن اللّه، لأنّ حريّة البحث عن كلّ شيء هي أيضاً منزلة من لدن اللّه.

كلّنا يؤمن بقدرة اللّه المطلقة، ولا أحد ينكر تـصرّفه بملكه كما

يشاء. ولكن أيضاً لا أحد ينكر حريّة الإنسان في البحث عمّا يشاء. ولا أحد يسلّم بأن اللّه، حفظاً لألوهيّته، يسلبُ الإنسانَ حريّتَه. فاللّه يترك التاريخ يسير، ويترك الانسان يتدبّر في التاريخ أمْرَه. والباحث في التاريخ يعرف أنّ إعلان اللّه عن ذاته عمليّةٌ متكاملة، ولا بدّ، بالتالي، من أن يكون الوحي اللاّحق تذكرةً للوحي السابق، كما شهد الكتاب نفسُه على نفسه، فقال: «هَذَا ذِكْرٌ»(١)، «إِنْ هُوَ إِلاّ ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ»(٢)، «وإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَومِكَ»(٣)، «وَمَا هُوَ إلاّ ذِكْرٌ لِلعَالَمِينَ»(٤)، و«هَذَا ذِكْرُ مَنْ مَعِي وَذِكْرُ مَنْ قَبْلِي»(٥)، و«إِنَّهُ تَذْكِرَة»(٦).

وقد شهد الكتابُ على النبيّ، فقال: «ذَكِّرْ. إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ»(٧). ويوم يرتاب النبيّ من صحّة ما يذكّر به يقال له «إِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَأُونَ الكِتَابَ مِنْ قَبلِكَ»(٨). هذه القراءة الـ«مِنْ قَبْلُ» تنبئ، لا محالة، عن واحدٍ كان «قَبْلَ» النبيّ، يقرأ عليه الكتاب، ويهمس في أُذُنه وَحْيَ اللّهِ من وراء ستار.

---

(١) سورة الأنبياء ٢١/ ٥٠؛ سورة ص ٣٨/ ٤٩.

(٢) سورة يس ٣٦/ ٤٥؛ أنظر أيضاً: ص ٣٨/ ٨٧.

(٣) سورة الزخرف ٤٣/ ٤٤.

(٤) سورة القلم ٦٨/ ٥٢؛ سورة التكوير ٨١/ ٢٧؛ سورة الأنعام ٦/ ٩٠؛ أنظر أيضاً: ٦/ ٦٨ و٦٩؛ الأعراف ٧/ ٢؛ هود ١١/ ١٢٠؛ الأنبياء ٢١/ ٨٤...

(٥) سورة الأنبياء ٢١/ ٢٤.

(٦) سورة المدّثّر ٧٤/ ٥٤؛ أنظر أيضاً: عبس ٨٠/ ١١؛ الإنسان ٧٦/ ٢٩؛ ٧٤/ ٤٩؛ المزمّل ٧٣/ ١٩؛ الحاقة ٦٩/ ١٢ و٤٨؛ الواقعة ٥٦/ ٧٣؛ طه ٢٠/ ٣...

(٧) سورة الغاشية ٨٨/ ٢١.

(٨) سورة يونس ١٠/ ٩٤.

لقد شقّ على كثير من المؤمنين أن يَروا وراء النبيّ غيرَ اللّه، أمّا الحقّ فيقضي عليّ بأن أُعطيَ للتاريخ دورَه، وبأن أرى اللّهَ يستعملُ البشرَ واسطةً بعضهم لبعض للوصول إليه. ولن أكونَ بذلك أقلَّ إيمانًا منهم. وغالباً ما يُخفي التاريخ من على صفحاته دورَ «الوسيط»، البطلِ الأساسيِّ. وبطل الإسلام هو القسّ، واسمه في التاريخ وَرَقَة بن نَوفَل بن أسَد بن عَبْدِ العِزَّى بن قُصَيّ. عُرِفَ باعتزاله الناسَ وانقطاعه إلى ربّه؛ فحفظ له التاريخ عزلتَه وانقطاعه! وأخشى، فيما أخشى، أن أقطع عليه عزلتَه وانقطاعَه، فأُظهر ما ودّ التاريخ إخفاءَه. لا بأس! فإنّ مَن تحمّل ظلمة غار حِراء، يتحمّل اليومَ ثقلَ الكلام عليه... جُلّ ما أبغي هو أن لا أتركَ النبيَّ معلَّقاً بينَ الأرضِ والسماء، لا أصلَ له ولا أساس، ولا وسيط بينه وبين اللّه. ولو اضطربَ بذلك المطمئنّون.

فلبلوغ الغاية وتوضيح الحقيقة، لا بدّ لنا من أن نقابل بين تعاليم القسّ وتعاليم النبي، أي بين إنجيل القسّ وقرآن النبيّ. وعلى ضوء التعاليم الواردة في الكتابَين تتحدّد مواقفنا من الرجلَين. كتاب القسّ هو «الإنجيل بحسب العبرانيين»، لا شكّ في ذلك؛ وكتاب النبيّ هو «القرآن العربي»، وفيه نظر. ديانة القسّ ألنصرانيّة الإبيونيّة، لا شكّ في ذلك؛ وديانه النّبيّ ألإسلام، وفي ذلك نظر.. وما هذا البحث، من ألِفِه إلى يائه، إلاّ إعادة نظر في كلّ شيء.

***

وبالنتيجة، إنّ ما نحاول بحثه في كتابنا هذا يتلخّص في خمسة:

أوّلاً – ألتعرّف على القسّ ورقة بن نوفل، على هويّته، ونسبته، وشيعته، وعلمه، وعمله...

ثانياً – ألتعرّف على دور القسّ في حياة محمّد، وفي الدعوة الجديدة...

ثالثاً – معرفة مدى العلاقة بين إنجيل القسّ ورقة والقرآن العربي.

رابعاً – معرفة مدى العلاقة بين «نصرانيّة مكّة» و«الإسلام» الذي دعا إليه كلٌّ من القسّ والنّبيّ.

خامساً – وأخيراً معرفة الموضوعات التي عالجها كلٌّ من «الإنجيل العبراني» و«القرآن العربي».

الفصل الأوّل

هويّة القسّ ورقة وحياته

أوّلاً – نَسَب القسّ ورقة

ثانياً – نصرانيّة القسّ ورقة

ثالثاً – إبيُونيّة القسّ ورقة

رابعاً – عِلْمُ القسّ ورقة

خامساً – عملُ القسّ ورقة

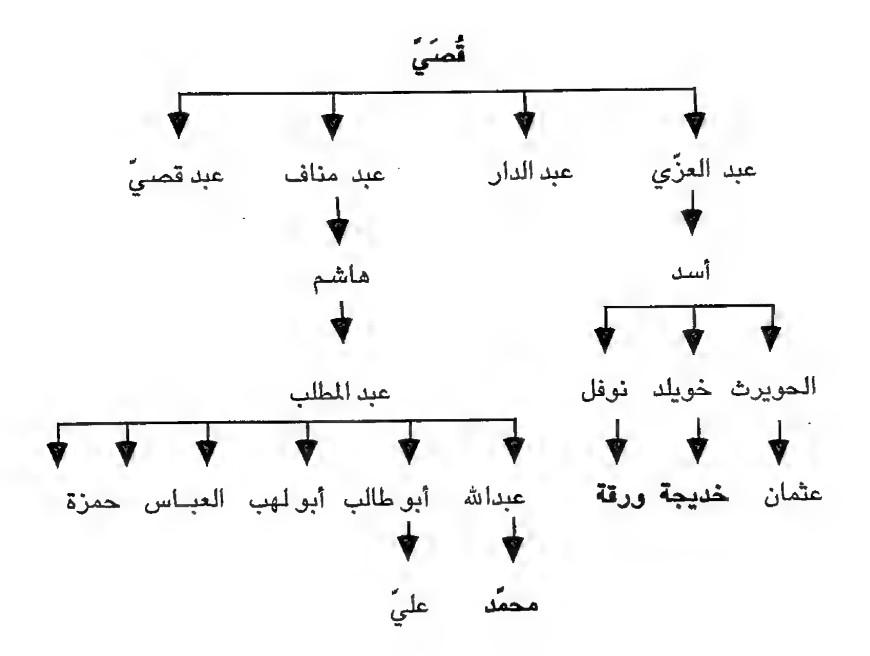
سادساً – القسّ ورقة رئيس النّصارى

سابعاً – موتُ القسّ ورقة



أوّلاً – نسبُ القسّ ورَقة

هو القسُّ وَرَقَة بن نَوفَل بن أَسَد بن عَـبد العِزّي بن قُصَيّ، ابن عمّ خَدِيجَة بنـت خُوَيلد بن أسد بن عَبد العِـزّى بن قُصَيّ، زوج النبي محـمّد بن عبدالله بن عَـبد المُطَّلب بن هاشـم بن عبـد مَناف بن قُصيّ. فـيكون قُصَيّ الجَـدُّ الثـالث لوَرَقَـة وخَديجَـة، والجَـدُّ الرّابع لمحمّـد. والثلاثة، أي: ورقة وخديجة ومحمّـد، يلتقون عند قُصيّ نَسَباً وجاهاً وإيماناً وديناً ومقـاماً. والثلاثة من قُرَيش سَدَنَة الكـعبة، ومن سكّان مكّة، وأصحاب دار النّدوة.



عُرف عن قصيّ أنّه تَولّى أمر الكعبة بعد طرده قبيلَتَي بني بَكر وخُزَاعة من مكّة، وأنّه جمع تحت زعامته شتات القبائل المبعثرة في شِعاب مكّة وبطاحِها، وأطلق على هذا التجمّع اسمَ «قُرَيْش». وقريش هو التجمّع، من قول ابن اسحق «إنما سُمّيتْ قريش قريشاً لتجمّعها بعد تفرّقها. ويقال للتجمع التقرّش»[1]. ولمّا تزوّج قُصيّ من حُبّى بنتِ حليل الخزاعي، وكان له أولاد ومال، عظم شرفه. وجَمع قومَه وتملّك عليهم. فكانت إليه ستّة أمور: الحجابة، والقيادة، والسقاية، والرفادة، ودار الندوة، واللواء[2]. توزّعها أبناؤه الأربعة من بعده بالتساوي، وهم عبد الدار، وعبد العزّى، وعبد قصّي، وعبد مناف.

ونحن نعرف، من كتب السير والأخبار الكثير عن عبد مناف وتفرّعه، ولكنّنا لا نعرف شيئاً يذكر عن سائر البنين، ومنهم فرع عبد العزّى. وقد يكون ذلك إهمالاً مقصوداً، أو لا مبالاة. وسبب ذلك أنّه لا علاقة قريبة بين ما تهتمّ به السّيرة النبويّة من أخبار عن النبيّ

---

(١) سيرة ابن هشام ١/٨٧؛ أنظر: السيرة الحلبية ١/ ٢٤؛ الأزرقي، تاريخ مكة ١/ ١٠٨. قال ابن الكلبي في ذلك: «انما قريش جمّاع النسب ليس بأب ولا بأمّ» (طبقات ابن سعد ١/ ٧١؛ نهاية الأرب للألوسي ١٦/ ٢٠). وقال ابن سيّده: «قرش قرشاً، أي جمع وضمّ من هنا وهنا» (لسان العرب ٦/ ٣٣٤ مادة قرش). انظر كتابنا : نبي الرحمة وقرآن المسلمين، ص ٣٦–٤٠.

(٢) إبن هشام ٢/ ١٢٤؛ أنظر: تاريخ الطبري ٢/٢٥٨؛ الكامل لابن الأثير ٢/١٣؛ أنساب البلاذري ١/٥٢... **الحجابة** هي الوصاية على مفاتيح الكعبة؛ **القيادة** هي حكم الأمّة الذي يُسَلّم الى زعيم قريش الأكبر؛ **السقاية** هي توفير الماء لحجاج بيت الله وللقوافل التجارية؛ **الرفادة** هي إطعام الحجّاج في موسم الحج؛ **الندوة** هي الدار التي يجتمع فيها أهل قريش للتشاور بأمور المدينة؛ **اللّواء** هو العَلَم من قماش يربط على رأس رمح عند إعلان الحرب.

وبين ما لا صلة له بهذه السيرة من أبناء قصيّ وأحفاده الآخَرِين. وهذا ما حدانا على كتابة هذا البحث عن القسّ ورقة، ساعِين إلى كشف هويّة هذا الفرع المنكود الحظّ الذي لم يحظ بما يستحق من اهتمام.

وقد يكون ما كتبه أهل السّيرة عن فرع عبد مناف وأحفاده غير مطابق للحقيقة، لأنّ هَمَّ الذين كتبوا عنه إنما كان لأجل غاية مقصودة سَلَفاً، وهي إحاطة الرسالة المحمدية بهالة برّاقة، وإظهار ما دونها غائراً في ظلمات الجهل. كما أنّ الإهمال الذي حدث بالنسبة إلى فرع عبد العزّى ربما كان هو الآخر مقصوداً، إذ كان من المفروض على كتّاب السِّيَر أن يلمّوا بمختلف جوانب التاريخ فيولوا أحفاد عبد العزّى اهتمامَهم، في الوقت الذي استطاعوا ربطَ سلالة النبيّ بإسمعيل وإبراهيم وآدم، ودقّقوا في أخبار كل جدّ من أجداد محمّد من فرع عبد مناف.

وكما أنّ كتّاب السِّير والأخبار راحوا في كتابة سيرة فرع عبد مناف إنطلاقاً من النبيّ محمّد؛ فنحن أيضاً سنعمد في كتابة سيرة فرع عبد العزّى إنطلاقاً من القسّ ورقة. والقليل المذكور عن القسّ لا يوفّر لنا مادّة كافية لإرواء غليل المتبحّرين، على عكس ما توفّر لنا من فيضٍ عن النبيّ. وإذا كان أجداد النبيّ أوتوا الشهرة، فلن يكون حظّ القسّ أقلّ منهم في هذا المجال. لذلك سيتضح لنا نسبُ القسّ بصلته بالنبيّ، وستتضح لنا رسالة النبيّ بصلته بالقسّ.

ألمهمّ، إذاً، أنّ القسّ ورقة وخديجة والنبيّ محمّد ينتمون إلى قُصيّ الجدّ الأوّل لقبيلة قريش، الذي، بمساعدة قبيلةِ بني عذرة

النصرانيّـة، أخرج خـزاعة من مكّة[٣]. وفي رواية أخـرى إنّ قيـصر الروم أعان قصيّـا على خزاعة[٤]، وذلك عن طريق الغســاسنة حلفاء الروم. وقد تكون قبيلة بني عذرة النصرانيّة، التي عاشت على مقربة من حدود بلاد الشام، هي التي توسّطت فيما بين قُصيّ والروم، وقد كانت خاضعة لنفوذهم[٥].

هذه إشارة أُولـى لعلاقة قـبيلة قـريش، منذ نشأتهـا، على يد قصيّ مـؤسِّسـها، بالروم والقـبائل النصرانيّـة. ولا بدّ من أن يكون لهـذه العلاقـة السيـاسيّـة أثر في الدِّين والإيمان. ويشهـد على ذلك تدميرُ قصيّ الأصنامَ التي أدخلتْها قبـيلةُ خزاعة على يد ملكها عَمرو بن لحُيّ الذي «غيّر دينَ التوحيد»[٦].

والمعروف عن قصيّ أنّه كان أوّل مَن بنى الـكعبة، بعد بناء تبّع اليمني لها، وسقفها بالخشب؛ وأوّل من أظهر الحجرَ الأسود، وكانت قـبـيلة أياد دفنتـه في جـبال مكّـة؛ وأوّل من بنى المســاكن في مكّة، ونقضَ الخيام؛ وأوّل من نظّم شؤون المدينة...

وبهذا الانتساب إلى قصيّ كان القسّ والنبيّ يفتخران.

---

(٣) طبقات ابن سعد ١/٦٦؛ نهاية الأرب ١٦/٢٠؛ تاريخ الطبري٢/٢٥٥...

(٤) ابن قتيبة، المعارف، ص ٦٤.

(٥) البـلاذري، أنساب ١/٤٧، الكامل في التاريخ لابن الأثيـر ٢/٧، الازرقي، تاريخ مكة، ١/٥٥. أنظر كتاب: نبي الرحمة وقرآن المسلمين، ص ٣٦-٣٨.

(٦) المفصّل في تاريخ العرب قبل الإسلام لجواد علي ٤/١٤.

ثانياً - نَصرانيّة القسّ وَرَقَة

لقد قـيل عن القسّ ورقة إنّـه «كان على دين موسـى، ثم صار على دين عيـسى، عليهمـا الصلاة والسلام. أي كان يهـودياً ثم صار نصرانـيًا»[(٧)]. هذا القـول يعني أنّ ورقة كـان يأخذ بتـعاليم مـوسى وعيـسى معـاً، أي كان يقيم التـوراة والانجيل مـعاً، بحـسب تحديد القـرآن: «يَا أَهْلَ الكِتَـابِ! لَسْـتُمْ عَلَى شَيْءٍ حـتّى تُقِـيمُـوا التَّـورَاةَ وَالإنْجِيلَ وَمَـا أُنْزِلَ عَلَيكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ»[(٨)]؛ ويعني ثانيـاً أنّ ورقة كـان مقـتصِـداً في عقيـدته، لا يغلو في نظرته إلى المسـيح، كوفـد نجران المسيحي الـقائل بألوهيّة المسيح؛ ولا يقـتصر على موسى، كـاليهود الذين ينكرون على عـيـسى نبوّته. فـورقـة يكون، إذاً، من اليهـود- المتنصّرين، أي من اليهـود ا لذين تنصّروا، واعتقدوا في المسـيح نبيًا أتى يكمّل ناموسَ موسى دون أن يكون إلهـاً أو إبن إله؛ ويعني أخيراً أن بعـضاً من العـرب قد اعـتنق النّصـرانيّة الـتّي لم تبق وقفـاً على الغرباء عنهم.

هذا وإنّ التاريخ الإسلامي شـهدَ على تنصّر أحياء كـثيرةٍ من العرب، ودلّ، بنوعٍ خـاصّ، على دخول النصـرانيّة بعضَ قـبائل مكّة

---

(٧) ابن هشـام ١/٢٠٣، وقـيل أيضـاً: «انه كـان نصـرانيـاً» (ابن هشـام ١/١٧٥) وأيضاً: «كان امرأ قد تنصّر في الجاهلية» (البخاري، باب بدء الوحي ١/٣).

(٨) سورة المائدة ٥/٦٨.

والحـجـاز. وأشـار بوضـوح الى اعـتناق بعض بطون قـريش لهـا، وأخصّها فرع عبد العزّى بن قصيّ، الذي قال فيه اليعقوبي، أحد أقدم مؤرّخي الإسلام: «وأمّـا مَن تنصّر من أحياء العرب فـقوم من قريش من بني أسد بن عبد العزّى، منهم عثمان بن الحويرث بن أسد بن عبد العزّى، وورقـة بن نوفل بن أسد...»[٩]. وأشارَ أيضاً الى تديّـن قبيلة قـريش كلّها فـي قـوله: «وكـانت العـرب في أديانهم عـلى صنفين: ألحمس والحلّة. فـأمّا الحمس فقـريش كلّها»[١٠]. وأوضح معنى هذا التديّن قائلاً: «كانت قريش وعـامّةُ وُلْد مَعد بن عدنان على بعض دين إبراهيم، يحـجّـون البـيت، ويقـيـمـون المناسك، وَيُقْـرُونَ الضّـيف، ويُعظّمون الأشـهرَ الحرم، ويُنكرون الفواحش، والتـقاطعَ، والتظالم، ويعاقبون على الجـرائم؛ فلم يزالوا على ذلك ما كانوا ولاة البيت»[١١]. ويذكر ابن هشـام، من جـهته: أنّ «كنانة وخزاعة قـد دخلوا معهم في ذلك»[١٢]، أي مع قريش في الحُمس[١٣].

ويؤكّـد الأزرقي في «أخـبار مكّة ومـا جـاء فيـهـا من الآثار» نصـرانيّةَ قـريش وتديّنَها فـي قوله: «وجـعلوا في دعائمـها صُـوَر الأنبيـاء وصور الشـجر وصور الملائكة. فكان فـيهـا صورة إبراهيم الخليل شيخ يستقسم بالأزلام، وصورة عيسى بن مريم أُمِّه، وصور

(٩) كلاهما ابن عمّ السيّدة خديجة زوح النّبيّ. تاريخ اليعقوبي ١/٢٥٧.

(١٠) المرجع نفسه ١/٢٥٦؛ أنظر: ابن هشام ١/١٨٤. ألحـمس: التشدّد، حتى التزهّد والتأله، أنظر: طبقات ابن سعد ١/٧٢، حاشية (٢).

(١١) تاريخ اليعقوبي ١/٢٥٤.

(١٢) سيرة ابن هشام ١/١٨٥.

(١٣) أنظر طبقات ابن سعد ١/٧٢.

الملائكة. فلمّا كان يومُ فتْحِ مكّة دخل رسول اللّه البيتَ، فأرسل الفضلَ بن العبّاس بن عبد المطلب، فجاء بماء زمزم، ثم بثوبٍ، فَبَلَّ الماءَ وأمرَ بطمْسِ تلك الصّور. فطُمستْ. وقال: ووضع كفّيه على صورة عيسى بن مريم وأمّه، عليهما السلام، وقال: أُمْحُوا جميعَ الصور إلاّ ما تحت يدي. فرفع يدَيه عن صورة عيسى بن مريم وأمّه»[١٤]. كلام الأزرقي هذا، لا يعني وجود النّصرانيّة في مكّة وحسب، بل تنصّر الكعبة نفسها، بما فيها من آثار وصور.

ومؤرّخون كثيرون أيضاً يشهدون على تنصّر كثيرٍ من أحياء العرب وقبائلهم. يقول ابن قتيبة: «إنّ النصرانيّة كانت في ربيعة وغسان وبعض قضاعة»[١٥]. ويشدّد اليعقوبي على «تنصّر تميم وربيعة وبني تغلب وطيء ومذحج وبهراء وسَليخ وتنّوخ ولخم»[١٦]. ويقول الجاحظ: «كانت النصرانيّة قد وجدت سبيلها بين تغلب وشيبان وعبد القيس وقضاعة وسليخ والعباد وتنّوخ ولخم وعاملة وجذام وكثّير بن بلحارث بن كعب»[١٧].

هذه الشهادات وغيرها في كتب السيَر والأخبار تدلّ على وجودٍ نصرانيٍّ واسع في مكّة والحجاز وسائر أنحاء الجزيرة العربيّة وبلاد الشام؛ وتدلّ على جماعةٍ نصرانيّة ذات كيان وشأنٍ في مكّة، ممّا يبرّر وجود قسّ عليها يدير شؤونها الروحيّة، ويرعى

---

(١٤) أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار للازرقي ١/ ١٦٥.

(١٥) المعارف لابن قتيبة الدينوري ص ٦٢١.

(١٦) تاريخ اليعقوبي ١/ ٢٥٧.

(١٧) كتاب الحيوان للجاحظ ٧/ ٢١٦.

أمورها الـزمنيّة والاجتـماعـيّة، وهو القسّ ورقـة بن نوفل، قسّ مكّة وزعيم قريش.

والجدير بالذكر أن كتب السير والأخبار شهدت على نصرانية فرع عبد العزّى بن قصيّ ولاذت بالصـمت حيال فرع عبد مناف. ولا ندري إذا كـان الصمتُ جـهلاً أم تنكّراً. وكـلا الاحتـمالَين لا يجـوز: فالجهل مردود على أصحابه لأنّ معرفتهم تعدّت إلى فرعٍ لا أهميّة له بالنسـبة إلى سيـرة النبيّ وهو فرع عـبد العـزّى؛ والتنكّر هو تزوير للتاريخ. فالنصرانيّة غزت فرعَ عبـد مناف كما غزت فرعَ عبد العزّى من قريش، ويثبت ذلك تأرجح كتّاب السير بين أن يصوّروا لنا أجداد النبيّ على الإيمان والـهداية وبـين أن يكونوا على الوثنيّـة والشـرك. والمعطيـات التـاريخيّـة كلّهـا، كـما رأينا، تميل إلـى الترجـيح الأوّل. والمسعودي أيضاً يميل إلى ذلك[١٨]؛ وسنتوسّـع أيضاً وأيضاً بذلك.

أمّا نصرانيّة القسّ ورقة فكانت تقـوم على ما كانت تقوم عليه النصرانيّة في تاريخ الكنيسـة. قيل عن ذلك إنّ القسّ ورقة «كان أحد مَن اعـتزل عـبادة الأوثـان في الجاهليّـة، وطلب الدين، وقـرأ الكتب، وامتنع عن أكل ذبائح الأوثان»[١٩]. وقيل أيضاً إنّـه «كان رابع أربعة تركـوا الأوثان، والميتـة، ومـا يذبح للأوثان»[٢٠] وهم: عُـبيـد اللّه بن جحش بن أمـيمة بنت عـبد المطّلب عمّـة النبي وقد مات نصـرانيّاً في أرض الحبـشة تاركـاً امرأته أم حـبيـبة التي تزوّجـها الرسـول من

---

(١٨) مروج الذهب للمسعودي ٢/١٠٨-١٠٩.

(١٩) الاصفهاني في الاغاني٣/١١٣.

(٢٠) الطبقات ١/١٦٢، السيرة المكية ١/ ١١٠، ابن هشام ١/ ٢٠٤ – ٢١٥.

بعده[٢١]؛ وعثمان بن الحويرث، ابن عمّ ورقة بن نوفل وخديجة بنت خويلد زوج محمّد، تنصّر بأرض الروم وحسنت منزلته عند القيصر، وكان يقال له البطريق، لا عقب له، مات بالشام مسموماً[٢٢]؛ وَزَيد بن عمرو بن نَفيل الذي قال فيه النبي: «انّه يُبْعَثُ أمّةً وحدَه»[٢٣]، وهو ابن أخي الخطّاب، أشتهر عنه أنّه «نهى عن قتل المؤودة»[٢٤]، و«يقول للرّجل، إذا أراد أن يقتلَ ابنته، لا تقتلها أنا أكفيكها مؤنتَها. فيأخذها»[٢٥].

هؤلاء الأربعة، من فرعي عبد العزّى وعبد مناف على السواء، اشتهروا بتنصّرهم وفق الواجبات والفروض النصرانيّة المتّبعة في الكنيسة، والمعروفة في مقرّرات مجمع أورشليم الرسولي المعقود سنة ٤٩م، وهي تقوم على «الامتناع عن نجاسات الأصنام، والفحشاء، والمخنوق، والدم»[٢٦]، وعلى الأخذ بالتوراة والإنجيل على السواء، وعلى الختان والمعمودية معاً...

إلاّ أنّ نصرانيّة القسّ ورقة وندمائه الثلاثة الآخرين تختلف، على ما يبدو، عن نصرانية مقرّرات مجمع أورشليم في أشياء، وتتّفق في أشياء: تختلف عنها في إيمانها بألوهيّة المسيح، وبنوّته للّه، وفي

---

(٢١) سيرة ابن هشام ١/٢٠٦.
(٢٢) المرجع نفسه ١/٢٠٦ في اشارة حاشية (١).
(٢٣) سيرة ابن هشام ١/٢٠٨.
(٢٤) المرجع نفسه ١/٢٠٦-٢٠٧.
(٢٥) صحيح البخاري ٥/٥١.
(٢٦) سفر أعمال الرسل ١٥/٢٠ و ٢٩؛ ٢١/٢٥.

صلبه وقيامته من بين الأموات؛ في حين أنّ نصرانيّة القسّ ورقة وزملائه تنكر ألوهيّة المسيح وبنوّته للّه، وترفض صلبه وقيامته رفضاً قاطعاً. وتتّفق في إقامة أحكام التوراة والإنجيل، من ختان وصلاة وصوم وما أشبه... وتختلف في أن يكون الإيمان بالمسيح وحده يكفي للخلاص. والاختلاف، على ما يبدو، يعود إلى شيعةٍ في النصرانيّة معيّنة ينتمي إليها القسّ ورقة ومعظم قريش، وهي الشيعة الإبيونيّة.

ثالثاً - إبْيُونِيَّة القسّ وَرَقة

عـرف عن النصـــارى من بني إســرائيل الضـــاربين في مكة والحجاز انقسامهم الى «شيع» و«فرق» و«أحزاب»[٢٧]. وأشار القرآن العربـي بوضوح الى هذه الخـلافات، وقال: «فَـاخْتَلَفَ الأَحْـزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ»[٢٨]، أي: «النصارى»، بحسب تفسـير الجلالَين للآية المذكورة. وقال أيضاً: «وَمِنَ الأحْـزَابِ مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُ»[٢٩]. ويصف أحوال كلٍّ منهم بأنّ «كلَّ حِزْبٍ بما لَدَيهِمْ فَرِحُونَ»[٣٠] ولا يعجب أتباعُ النبيّ من كثرة الأحزاب هذه لأنّهم حُذِّروا منها مـسبقاً وأُعلموا بوجودها: «وَلَمَّا رَأى المُؤْمِنُونَ (من أتباع محمّد) الأحْزَابَ (عند النصارى)، قَالُوا: هَذَا مَا وَعَدَنَا اللّهُ وَرَسُولُه»[٣١].

---

(٢٧) هذه كلمات ثلاث تشير الى انقسامـات بني إسرائيل. أنظرالسور التالية: «شيع»: ١٥/١٠؛ ٦/٦٥ و١٥٩؛٣٠/٣٢؛ ٥٤/٥١؛ ٣٤/٥٤؛ و«فـرق»: في قـوله المكرّر: «لا نُفَـرِّقُ بَيْنَ أحـدٍ منهم. ونحنُ لهُ مـسلِـمُـون»: ٢/١٣٦ و٢٨٥؛ ٣/٨٤؛ أنظر أيضـاً: ٤/١٥٢؛ ٤/٩٨؛ ٣/١٠٥/ ٤٢/١٣ و١٤. و«أحزاب»: ٥/٥٦؛ ٢٣/٥٣؛ ٣٠/٣٢؛ ٥٨/٢٢؛ ١٣/٣٦؛ ١٩/٣٧؛ ٤٣/٦٥... إلخ.

(٢٨) سورة مريم ١٩/٣٧؛ وسورة الزخرف ٤٣/٦٥.

(٢٩) سورة الرعد ١٣/٣٦.

(٣٠) سورة المؤمنون ٢٣/٥٣؛ سورة الروم ٣٠/٣٢.

(٣١) سورة الأحزاب ٣٣/٢٢.

ويخشَى النبيّ فيما يَخشى أن يكون انتمى إلى حزبٍ منها، أو أن يكون ساهم في توسيع رقعة الخلاف بينها، فيقول، مردداً قولَ هارون لأخيه موسى: «إنّي خَشِيتُ أنْ تَقُولَ فَرَّقْتُ بَينَ بَنِي إسْرَائِيلَ»(٣٢). كما يرفض أن يفرّق بين الأحزاب، بل يريد لها السلم، ويبغي توحيدها: «لا نُفَرِّقُ بَينَ أحَدٍ منْهُمْ. وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ»(٣٣). ويقول عن أتباعه بأنّهم هم أيضاً: «آمَنُوا باللّهِ وَرُسُلِهِ، وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَينَ أحَدٍ منْهُمْ»(٣٤). وفي رأيه إنّ كلّ حزب «آمَنَ باللّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ. لا نُفَرِّقُ بَينَ أحَدٍ منْ رُسُلِهِ»(٣٥). والغريب في الأمر أنّ «المسلمين»، بحسب تحديد القرآن، هم الّذين لا يفرّقون بين رسل اللّه وأنبيائه(٣٦).

وتضاف الى شهادة القرآن العربي هذه شهادة التاريخ الكنسي. فهي تشير إلى هذه الأحزاب بأسمائها وتعاليمها. وما يؤكّد لنا الوفاق بين الشهادتين وحدة التعاليم التي تأخذ بها الأحزاب في كلا المصدرين. ونقتصر على ذكر بعضها كالإبْيونيّة Ebionisme، والقيرنثيّة Cérinthisme، والكسائيّة Elxaïsme لشهرتها ومعرفة تعاليمها:

---

(٣٢) سورة طه ٢٠/ ٩٤.

(٣٣) سورة البقرة ٢/ ١٣٦؛ سورة آل عمران ٣/ ٨٤.

(٣٤) سورة النساء ٤/ ١٥٢.

(٣٥) سورة البقرة ٢/ ٢٨٥.

(٣٦) أنظر لفظة «مسلمين» في س. البقرة ٢/ ١٣٣ و١٣٦؛ س. آل عمران ٣/ ٨٤.

١ - الإبيُونِيَّة وهي فئة من اليهود-المتنصّرين، تبعوا المسيح، ورأوا فيه نبيّاً عظيماً من الأنبياء. لا يعترفون بألوهيّته ولا ببنوّته للّه؛ بل يقولون بأنّه رجل كسائر الرجال، جاءه الوحي بعد معموديّته على يد يوحنا المعمدان؛ أو بالحري إنّ المسيحَ المبدأَ الأزلي دخل يسوعَ يومَ عماده، وفارقه يومَ استشهاده. تقوم رسالته على التعليم والتبشير دون الفداء والخلاص[٣٧].

يقبل الإبيونيّون إنجيل متّى وحده، ويسمّونه «الإنجيل بحسب العبرانيّين»، وهو نفسه إنجيل متّى الآرامي. ولكنّه ناقص ومحرّف ومزيّف، كما يشهد إبيفانوس، أسقف قبرص[٣٨].

أمّا فروضهم فتتركّز على الاغتسال الدائم بالماء للوضوء والتطهير، وعلى تحريم الذبائح. ويشدّدون على أعمال البرّ والاهتمام باليتامى والعناية بالفقراء والمساكين وأبناء السبيل. ويوصون بإعالة المحتاجين وإطعام الجياع وإقراء الضيوف والغرباء... واسمهم يدلّ على ذلك، فهو من قول المسيح: «طوبى للفقراء»، وبلغتهم العبرانيّة: «طوبى للإبيونيّين».

ذكرهم أيريناوس في كتابه «ضد البدع»[٣٩]، وأوريجانوس في كتابه «ضد سلسوس»[٤٠]، وإبيفانوس في «الشامل في

(٣٧) J. Daniélou. Théologie du Judéo-Christianisme, 76.

(٣٨) Epiphane, Panarion XXIX, 3 et 13.

(٣٩) St. Irénée, Contre les Hérésies I, 26, 12.

(٤٠) Origène, Contre Cels II,1.

الهرطقات»[٤١]. دخل في شيعتهم معظمُ رهبان قُمران بعد خراب هيكل أورشليم، سنة ٧٠ م.، فهاجروا إلى الحجاز، وانتمى إليهم بعضُ القبائل العربية.

٢ – **القِيرَنْثِيَّة** نسبة إلى مؤسّسها «قيرنث» Cérinthe. تتميّز بقولها إنّ ملكوت المسيح السماوي هو على مثال الأرضي، وإنّ دور المسيح يقوم على تحرير شعبه من الحكم الروماني والأجنبي، وإنّ مهمّته هي سياسيّة واجتماعيّة، لا روحيّة ولا فدائيّة. يقول «قيرنث» بأنّ الجنّة السماويّة هي متاع الجسد وشهواته. يذكر أوسابيوس القيصري ذلك عن «قيرنث» في قوله: «بما أنّه هو نفسه يحبّ جسده، وكان شهوانياً، فهو يحلم أنّ هذا الملكوت يقوم على الأشياء التي يشتهيها، أي الطعام والشراب ولذّة الجسد»[٤٢]، تماماً كما هي جنّة القرآن.

٣ – **ألكِسَائِيَّة** نسبة الى «ألكسائي» Elxaï. تذهب في الغنوص الى أبعد حدّ. وتسمّي أنصارَها «أهل العلم». وتعلّم في المسيح أنّه بشر كسائر البشر[٤٣]، وأنّ المسيح فارق يسوع قبل استشهاده، وأنّ الروح القدس تارة هو «أمّ» المسيح فهو بالتالي مؤنّث، وطوراً هو الملاك جبريل فهو مذكّر. ويدّعي «ألكسائي» بأنّ ملاكاً دفع اليه

---

(٤١) Epiphane, Panarion XXIX-XXX... أنظر عن الإبيونية دراسات قيّمة، مثل:

M. B. Bagatti, L'Eglise de la Circoncision, Jérusalem, 1965.

Marcel Simon, Verus Israël, Paris 1948, pp.273-314.

M.P.Roncaglia, Eléments ébionites et elkésaïtes dans le Coran, in Proche Orient Chrétien, n° 21 (1971), pp.101-106

J.M. Magnin, Notes sur l'Ebionisme, in P.O.C. n° 23,24,25(1973-74).

(٤٢) Eusèbe, Histoire Ecclésiastique III, 28,5.

بكتاب من السماء كان محفوظاً في لوح مقدّس نزّله عليه جبريل[٤٤]، وعلّمه أسرار الحكمة والغيب.

***

هذه هي شهادات التاريخ الكنسي على بعض الشيع النصرانيّة. وهي، على ما يظهر، تتفق مع شهادات القرآن العربي، أقلّه في الأمور الأساسيّة مثل إنكار ألوهيّة المسيح، واعتباره نبياً عظيماً، والشبه الواقع على صلبه، ومثل إقامة أحكام التوراة والإنجيل، والعناية بالمساكين، ووصف الجنّة بالملذّات... وغيرها. ويكفي منها شهادة وجودُها في مكّة وتعرّف القرآن العربي عليها. إلاّ أنّ الجانب الإبيوني كان واضحاً أكثر من سواه في حياة القسّ ورقة وممارساته الروحيّة وتحنّثه في غار حِراء.

إنّ ما ظهر من إبيونيّة القسّ ورقة في حياته وممارساته الروحيّة وتعاليمه يدلّ على انتمائه الأكيد إليها. فعدا عن تعاليمه التي نرى لها أثرًا واضحاً في القرآن عند كلامنا على ذلك في الفصل الأخير، نتوقّف الآن على ما عرف عنه في تحنّثه في غار حراء مع عبد المطلب، وعثمان بن الحويرث، وعُبيد الله بن حجش، وأبي أميّة بن المغيرة، وغيرهم[٤٥]. والتحنّث هو التحنّف والتبرّر والتعبّد الليالي الطوال وإقامة أعمال البرّ والإحسان[٤٦].

---

(٤٣) Hippolyte de Rome, IX,14...

(٤٤) J. Daniélou, Théol. du Judéo-Christianisme, p. 68.

(٤٥) السيرة الحلبية ١/ ٢٦٠.

(٤٦) سيرة ابن هشام ١/٢١٨، ٢٢٢.

وذلك يقوم على الصيام شهراً كاملاً في السنة، وعلى إطعام الجياع، والرأفة بالمساكين، وعلى التخلّي عن الناس، والانقطاع الى اللّه والتفكّر فيه[٤٧]. ويقوم أيضاً على اعتزال عبادة الأوثان، والامتناع عن أكل الذبائح المقرَّبة إليهم، وقراءة الكتب المقدسة، والتأمّل في قصصها وأخبارها[٤٨]، والأخذ بالختان، والحجّ إلى البيت، والغسل من الجَنابة، وتحريم الخمرة، وما أُهِلّ لغير اللّه[٤٩].

بهذه الصفات وُصف القسّ ورقة ومَن ذكرتْه كتبُ السِّير والأخبار، مثل أبي بكر الصديق، ورباب البراء، وأسعد بن كريب الحميري، وقس ابن ساعدة الإيادي، وأبي قبيس بن صرمة، وغيرهم[٥٠]. ولم تكن هذه العبادات بعيدة عن النبيّ، فهو أيضاً، كالقسّ ورقة، ومعه، تحنّث في غار حِراء، ومارس هذه الفرائض.

---

(٤٧) الاصفهاني في الاغاني ٣/ ١١٣.

(٤٨) طبقات ابن سعد ١/ ٨٥.

(٤٩) لسان العرب ١٠/ ٤٠٢، الكشّاف ١/ ١٧٨، ٢٣٦ ، ٤٠٧، الطبرسي ١/ ٤٦٧، ٣/ ١٠٩، تفسير الرازي ١٣/ ٥٧، ١٤/ ١٠، ١٧/ ١٧١.، تفسير الطبري٣/ ١٠٤... تاج العروس ٦/ ٧٧ لفظة «حنف»، القرطبي ٤/ ١٠٩، القاموس ٣/ ١٣٠، ابن خلدون ٢/ ٧٠٧... وغيرهم.

(٥٠) المسعودي في مروج الذهب ١/ ٧٧.

رابعاً - عِلْم القسّ وَرَقَة

قيل في القسّ ورقة إنّه «كان نصرانيّاً قد تتبّع الكتب، وعَلِمَ مِن عِلْمِ الناس»[٥١]. وقيل فيه أيضاً: «إنّه استحكم في النصرانيّة، واتّبع الكتب من أهلها حتى عَلم علماً من أهل الكتاب»[٥٢]. وقيل «كان قد تنصّر واتّبع الكتب»[٥٣]...

هذه الأقوال في القسّ ورقة تقطع في علمه وفي تتبّعه المتواصل لدرس الكتاب وفي وعيه هذا العلم. فهو يأخذ من أهل الكتاب، ومن علماء النصارى الموصوفين في القرآن بـ «الرَّاسِخِينَ فِي العِلْمِ»[٥٤]، وبـ «أُولِي العِلْمِ»[٥٥]، وبـ «الّذين جَاءَهُمُ العِلْمُ»[٥٦]، وبـ «مَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الكِتَابِ»[٥٧]، وبـ «الّذِينَ أُوتُوا العِلْمَ»[٥٨]. «وكان محمد بن اسحق، صاحب السيرة، يعتمد على أهل الكتاب ويسمّيهم أهل

---

(٥١) إبن هشام ١/ ١٧٥. سيرة ابن كثير ١/ ١٦٧؛ تاريخ الطبري ٢/ ٢٤٤.

(٥٢) سيرة ابن هشام ١/ ٢٠٥.

(٥٣) إبن هشام ١/ ١٥٤، السيرة الحلبية ١/ ٢٦٣.

(٥٤) سورة النساء ٤/ ١٦٢؛ سورة آل عمران ٣/ ٧.

(٥٥) سورة آل عمران ٣/ ١٨.

(٥٦) سورة آل عمران ٣/ ١٩؛ سورة يونس ١٠/ ٩٣.

(٥٧) سورة الرعد ١٣/ ٤٣؛ سورة النمل ٢٧/ ٤٠.

(٥٨) أنظر السور: ٥٨/ ١١؛ ٤٧/ ١٦؛ ٣٤/ ٦؛ ٣٠/ ٥٦؛ ٢٩/ ٤٩؛ ٢٨/ ٨٠؛ ٢٧/ ٤٢؛ ٢٢/ ٥٤؛ ١٧/ ١٠٧؛ ١٦/ ٢٧؛ ٣/ ١٩...

العلم الأُوَل. قال: حدّث بعضُ أهل العلم من أهل الكتاب»(٥٩).

وللعلم، في القرآن والسيرة، كما لأهله، مكانٌ مرموق، كالمكان الذي يحتلّه عند أهل الغنوص والمعرفة في الشيعة «الكسائيّة» من النصارى. هؤلاء تناط بهم معرفة الحق. ولكثرة ما يعرفون من الحق تراهم خاشعين متعبّدين يفيض الدمع من عيونهم. وقد عبّر القرآن عن حالهم بقوله عنهم: «تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الحَقِّ»(٦٠). ويقوم علمهم على معرفة الكتاب بتمامه وكماله، فهم «الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُم»(٦١). وما أصحاب الأعراف إلاّ رجال يَعرفون الناس بوجوههم، ويدركون عنهم كلّ خفيّ مكنون: «عَلَى الأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلاًّ بِسِيمَاهُم»(٦٢).

هؤلاء العالمون يرفعهم اللّه إليه كما يرفع المؤمنين به: «يَرْفَعُ اللّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا العِلْمَ دَرَجَات»(٦٣). وهم يفرحون بما لديهم من العلم: «فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ العِلْمِ»(٦٤)، لأنّهم يرون أنّ كلّ ما أُنزل من اللّه حقٌّ هو: «وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا العِلْمَ الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الحَقُّ»(٦٥). وهم يلبثون

---

(٥٩) الهمداني، الأكليل، ١/ ٣١؛ أنظر الفهرست لابن النديم، ص ١٧٦.

(٦٠) سورة المائدة ٥/٨٣.

(٦١) سورة البقرة ٢/١٤٦؛ أنظر أيضاً: سورة الأنعام ٦/٢٠.

(٦٢) سورة الأعراف ٧/٤٦.

(٦٣) سورة المجادلة ٥٨/١١.

(٦٤) سورة غافر ٤٠/٨٣.

(٦٥) سورة سبأ ٣٤/٦.

في كتـاب اللّه متأمّلين فـيه دون سواه من الـكتب: «وَقَالَ الّذِينَ أُوتُوا العِلْمَ وَالإيمَانَ لَقَدْ لَبِثْـتُمْ فِي كِتَابِ اللّه»[٦٦]، لأنّ كتاب اللّه هو لأولي العـلم آياتٌ بيّـنات: «بَلْ هُـوَ آيَاتٌ بَيِّـنَاتٌ فِي صُـــدُورِ الّذِيـن أُوتُوا العِلْمَ»[٦٧].

أهلُ العلم هؤلاء يحقّ لهم أن يشهدوا، مع اللّه وملائكته، على صحّـة الإسـلام وعلى رسـالة محـمّد: «شَهِـدَ اللّهُ... وَالمَلاَئِكَةُ وأُولُو العِلْمِ قائمـاً... أنّ الدِّينَ عِنْدَ اللّهِ الإسْلاَمُ»[٦٨]. وتكفي شهادتهم: «قُلْ كَفَى باللّهِ شَهِيداً بَينِي وَبَينَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الكِتَابِ»[٦٩].

أهلُ العلم هؤلاء آمنوا بالقـرآن قَبل سواهم: «ألرّاسِـخُونَ فِي العِلْمِ يَقُـولُونَ: آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا»[٧٠]؛ و«الرَّاسِخُـونَ فِي العِلْمِ مِنْهُمْ وَالمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إلَيكَ»[٧١].

***

صفـة العلم هذه، بحـسب القرآن وأهل السِّـيَر والأخـبار، هي صفـة القسّـيسين والرّهـبان الأساسـيّة: فـخطبُ القسّ ابن سـاعدة الإيادي شهـيرة في كتب الأدب، وفي سـوق عكاظ الشهير. وشـهرةُ الرّاهب بَحِيرا، الذي تعـرّف عليه النبيُّ في أسفاره إلى الشـام، بعيدةُ

(٦٦) سورة الروم ٣٠/٥٦.

(٦٧) سورة العنكبوت ٢٩/٤٩.

(٦٨) سورة آل عمران ٣/١٨-١٩.

(٦٩) سورة الرعد ١٣/٤٣.

(٧٠) سورة آل عمران ٣/٧.

(٧١) سورة النساء ٤/١٦٢.

الأثر في نفوس أهل قريش؛ وقد قيل عنه: «انتهى إليه علم النّصرانيّة»[٧٢]؛ والرّاهب عَدّاس النينوي «كان يُرقي محمّداً بما يعرفه من الكتب»[٧٣]؛ وراهب آخر من الشام يدعى عِيصاً «آتاه اللّه علماً كثيراً»[٧٤]؛ وراهب آخر في سوق عكاظ كان على علمٍ في الطبّ، ذهب إليه محمَّدٌ برفقة جدّه عبد المطّلب يطلب منه شفاء لعينيه من رمَدٍ أصابهما في صغره[٧٥]... وغيرهم، وغيرهم!...

ويستغرب حقّاً ألاّ يكون القسّ ورقة واحداً من هؤلاء الرهبان المتبحرين الرّاسخين في العلم. وهو الذي قيل عنه بأنّه كان يتتبّع الكتبَ، ويتعلّم من أهل العلم، ويأخذ ممّن عنده علم الكتب.

في هذا المناخ من العلم والمعرفة يدخل القسُّ ورقة كأحد الغنوصيّين، الكسائيّين المعروفين في تاريخ الكنيسة بسعة علمهم، وتبحّرهم في الكتب، حتى غدا عالماً بها، عارفاً بقصصها، مفسّراً لها، شارحاً بيّناتها، مبشّراً بتعاليمها، ممارساً فرائضها، قائماً على عبادتها، مفصّلاً أسرارها، لكأنه الخبير الحكيم الذي قصده القرآن العربي في قوله: «أ ل ر. كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ، ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنِ حَكِيمٍ خَبِيرٍ»[٧٦].

---

(٧٢) إبن هشام ١/ ١٦٥؛ أنظر: الحلبية ١/ ١٣٠؛ تاريخ الطبري ٢/ ٢٧٧...

(٧٣) السيرة الحلبية ١/ ٢٦٧؛ السيرة المكية ١/ ١٨٣.

(٧٤) السيرة الحلبية ١/ ٧٨.

(٧٥) المرجع السابق نفسه، ١/ ١٣٥.

(٧٦) «**أ ل ر**»: سورة هود ١١/ ١؛ أنظر: ١٠/ ١؛ ١٢/ ١؛ ١٤/ ١؛ ١٥/ ١؛ و«**أ ل م**»: ٢/ ١؛ ٣/ ١؛ ٢٩/ ١؛ ٣٠/ ١؛ ٣١/ ١؛ ٣٢/ ١؛ وغيرها من الحروف السريّة الواردة في أوائل السور... يقول فيها المفسّرون: «اللهُ أعلم بمراده». لكنّنا نقول: إنّ هذه

خامسًا – عملُ القسّ وَرَقَة

جاء في صحيح البخاري أنّ القسّ ورقة «كان يكتب الكتاب العبراني، فيكتب من الإنجيل بالعبرانيّة ما شاء اللّه أن يكتب»(٧٧). وجاء في صحيح مسلم أنّ القسّ ورقة «كان يكتب الكتاب العربي، ويكتب من الإنجيل بالعربيّة ما شاء اللّه أن يكتب»(٧٨). وجاء في أبي الفرج الأصفهاني أنّ ورقة «كان امرأ تنصّر في الجاهليّة، وكان يكتبُ الكتاب العبراني، فيكتب بالعبرانيّة من الإنجيل ما شاء أن يكتب»(٧٩). وجاء في السّيرة النبويّة لابن كثير: «وكان يكتب الكتاب العبراني فيكتب من الإنجيل بالعبرانيّة ما شاء اللّه أن يكتب»(٨٠).

لئن كان الخلاف بين هذه الروايات ظاهراً، فإنّ بينها، من حيث المعنى والمدلول، وفاقاً. كلّها تشير، بدون شكّ، إلى أنّ القسّ ورقة كان ينقل الإنجيل من العبرانيّة إلى العربيّة؛ وإلى أنّ هذا الإنجيل هو

الحروف يجيء بعدها أمرٌ إلهي في أهميّة الكتاب ووحيه الالهي، مثل: «ألر. تلك آيات الكتاب»؛ و «ألر. كتاب أحكمت آياته»؛ و «ألم. تنزيل الكتاب»؛ و«ألم. تنزيل الكتاب».. إلخ. وهي تعني ما كان يَردُ عادةً على لسان الأنبياء: «قال لي الرب»، وفي اللّغة الأرامية: «إمَرْ لِيْ مَرْيُو»: (أ.ل.م.)؛ أو «إمَرْ لِي رَبُو»، (أ.ل.ر.)، أي: «قال لي السيّد»، وذلك للدلالة على مصدر الكتابِ الإلهي.

(٧٧) صحيح البخاري بشرح الكرماني ١/٣٨–٣٩.

(٧٨) صحيح مسلم ١/٧٨–٧٩.

(٧٩) الأغاني لأبي فرج الأصفهاني ٢/١١٤.

(٨٠) ابن كثير، السيرة النبوية ١/٣٨٦.

المعروف في الكنيسة بـ «الإنجيل بحسب العبرانيّين»، أو بـ «الإنجيل العبـراني»، أو أيضاً بـ «الإنجـيل بالعبرانيّـة»؛ وتشيـر أيضاً إلى أنّ القسّ ورقة كان يعـرف، الى جانب اللّغة العربيّة، اللّغة العـبرانيّة، أو الأراميّة بحرفٍ عبرانيّ، التي منها ينقل.

لم يُعرف، عن الـقسّ ورقة، في كتب السِّـير والأخـبار، مهـمّةٌ غيـر هذه، وهي مهمّة نـقل الإنجيل العبراني. هذه المـهمّة، مع تتبّـعه الكتب، أكسبته صفـة العلم، حتى غدا من أهله، ومن «الرّاسِخِينَ» فيه. وقد تكون «قراءةُ» الكتب المـقدّسة، و«درسـها»، و«تفـصيلها» —وهي تعابير قرآنيّة— من أهمّ مهامّ الذين يوصفون بـ «العلم». ومنهم القسّ ورقـة الذي اشـتـهر، أكـثـر من سـواه، بالقـراءة والدرس والتـأمّل والشـرح. حتّى أنّـه عمـد على «نقل الإنجـيل العـبراني» الخـاصّ به وبشيعته الإبيونيّة. ولكأنّه تفرّد، في ذلك الحين، وحدَه، بهذا العمل.

والكتاب الذي كان القسّ يعكف على نقله وتعريبه هو «الإنجيل العبراني» المعروف لدى آباء الكنيسة والواسع الانتشار في الأوساط النصرانيّة: فـالقديس جيروم وجده في حلـب ونقله من الأرامية الى اللاتينيّـة واليونانيّـة[٨١]، واسـتشـهـد به اغناطيـوس الإنطاكي في إنطاكـيـا[٨٢]. وقـرأه أوريـجـينوس في الإسـكندريّة[٨٣]، وكـذلك

(٨١) St. Jérôme, Comm. sur Isaïe, XI, 2; Comm. sur Ezéchiel, XVIII,7; Comm. sur Ephésiens, V,3,4; Comm. sur Mat., XII,13; Dialogue Contre les Pélagiens, III,2; De Viris Illustribus,II...

(٨٢) Ignace d'Antioche, Smyrnes,III,2...

(٨٣) Origène, Comm. sur St. Mat., XV, 14; Comm. sur St. Jn, II, 12.

كليمنضوس الإسكندري[٨٤]، وإبيفانوس في قبرص[٨٥]، والقديس إيريناوس في ليون بعد آسيا الصغرى[٨٦]... ونقله القسّ ورقة في مكّة إلى العربيّة[٨٧]. وممّا يدلّ على أنه هو نفسه كان بين يدي القسّ تلك الصلة القريبة جداً بين تعاليمه وتعاليم القرآن العربي . أضف إلى ذلك اعتباره إنجيلاً خاصّاً بالشيعة الإبيونيّة التي تأكّد لنا انتماء القسّ اليها.

ويبدو أنّ الإنجيل العبراني هذا كان وحده دون سواه من الأناجيل بين يدي القسّ ورقة، بدليل ذكره دون غيره في كتب السِّيَر والأحاديث النبويّة والأخبار، وبدليل ذكرِ القرآن لإنجيلٍ واحدٍ معرَّفٍ بالألف واللام، ولا ترد فيه صيغة الجمع اطلاقاً، في حين أنّه كان، في زمن النّبيّ محمّد، أناجيل متعدّدة، معروفة منذ العصور الأولى للكنيسة، إنْ في رواياتها القانونيّة الأربع، أو في رواياتها المنحولة. فمنذ أوائل المسيحيّة كان المسيحيّون يعرفون إنجيل متّى، وإنجيل مرقس، وإنجيل لوقا، وإنجيل يوحنا؛ ومنذ ذلك الحين أيضاً، كان النصارى يعرفون إنجيل بطرس، وإنجيل الرّسل الإثني عشر، وإنجيل النّصارى، وإنجيل الطفولة، وإنجيل العبرانيين، وغيرها...

فذكرُ القرآن العربي لإنجيلٍ واحدٍ دون غيره يثبت أنّ «الإنجيل العبراني» هو وحده كان معروفاً، لا سيّما وإنّنا نجد بينه وبين القرآن

---

(٨٤) Clément d'Alexandrie, Stromates, II 9,45.

(٨٥) Epiphane, Panarion, XXX, 3...

(٨٦) St. Irénée, Adv. Haer., I, 26,2

(٨٧) البخاري ١/٣٨؛ مسلم ١/٧٨؛ الاصفهاني ٣/ ١١٤؛ ابن كثير ١/ ٣٨٦...

توافقاً تامّاً في العقيدة والفروض والعبادات وأحوال المَعاد، كما سنراه مفصّلاً فيما بعد.

أضف الى ذلك اعتبار القرآن العربي الإنجيل منزلاً من عند اللّه: «وَأَنْزَلَ التَّورَاةَ والإنْجِيلَ مِنْ قَبْلُ»[٨٨]. وقد أُنزل على «عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وآتَيناهُ الإنْجِيلَ»[٨٩]. وهو يستشهد ببعض أمثاله نظير قوله: «وَمَثَلُهُمْ فِي الإنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَه..»[٩٠]. ويستشهد به أيضاً على صحّة دعوة النّبيّ «الّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِنْدَهُمْ فِي التَّورَاةِ وَالإنْجِيلِ»[٩١]، ويدعو أهله لأن يحكموا على صدق ما في القرآن: «وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الإنْجِيلِ بِمَا أَنْزَلَ اللّهُ فِيهِ (أي في القرآن)»[٩٢]. وهو يعتبره أخيراً «هُدًى وَنُوراً»[٩٣].

هذه الدلائل الخطيرة حقًّا تجيز لنا القول فعلاً بأنّ القرآن العربي عرفَ الإنجيل الذي كان بين يديّ القسّ ورقة، ينقله إلى العربيّة، وهو الإنجيل العبراني الذي يأخذ الإبيونيّون بتعاليمه وفرائضه. هذا، وإنّنا لا ننكر وجودَ تعاليم نصرانيّة أخرى كانت تطوف في أجواء مكّة، تعود إلى أناجيل أخرى وكتب نصرانيّة أخرى، وُجدت بين شِيَع نصرانيّة متعدّدة كانت موجودة في مجتمع القسّ والنّبي.

---

(٨٨) سورة آل عمران ٣/٣-٤.

(٨٩) سورة الحديد ٥٧/٢٧.

(٩٠) سورة الفتح ٤٨/٢٩.

(٩١) سورة الأعراف ٧/١٥٧.

(٩٢) سورة المائدة ٥/٤٧.

(٩٣) سورة آل عمران ٣/٣؛ سورة المائدة ٥/٤٦...

سادساً - القسّ وَرَقَة رئيس النّصارى

قيل عـن ورقة إنّه «كان قـسًا. والقسّ رئيس الـنصارى»[٩٤]. وعرّف ورقـة عن نفسـه أمام مـحفل من قـريش، قال: «نحـن سادة العرب وقادتها»[٩٥]. وعن ابن اسحق وابن هشام قالا: «فأمّا ورقة بن نوفل فاستـحكم في النصرانيّة واتّبع الكتب من أهلهـا حتى علم علماً من أهل الكتاب»[٩٦]. وعرف أهل مكّة مقـام القسّ عندهم فولّوه أمور دينهم وشؤون دنياهم، واسـترشدوا بآرائه، كما فعلت خـديجة حيث قيل عنها: «إنّ ذلكَ مِن خديجَة كانَ بإرشادٍ مِن وَرَقة»[٩٧].

نفهم من هذه الأقـوال أنّ ورقة كان رئيـساً على كنيـسة مكّة النصرانيّـة في زمن عبد المطـلّب، وفي فترةٍ طويلة من حـياة محـمّد. وكان له فيهـا دور روحي وزمني: فعليه تقوم مهمّة قـيادة الكنيسة، وتعليم الناس وإرشادهم، وتفـسير الكتاب وتأويله؛ وبه تـناط خدمة الهـيكل، وإليـه يُـرجع في مـخـتلف أمـور الدين العـقـائدية منهـا والتشريعـيّة. عليه تقوم مهمّـة تفقيه رعيّتـه الوحي ومعاني التنزيل، يفصّل لـهم آيات الكتاب، وينقل إليـهم ما عـجم منها، وييسّـرها لهم

---

(٩٤) السيرة الحلبيّة ١/٣٦٣.

(٩٥) السيرة المكية ١/١٢٣؛ السيرة الحلبية ١/١٥٥.

(٩٦) سيرة ابن هشام ١/٢٠٥.

(٩٧) السير الحلبيّة ١/٢٧٥.

بلســان عربي مــبين. يثّــبتــهم في إيمانهم، ويزكّــيــهم من خطاياهم، ويهديهم إلى صراط مــستقيم. فهو، بكلمة، أولّهــم وسيّدهم وقائدهم والمسؤول عنهم.

هذه المســؤوليّات هي من خــصــائص كلّ قس مســؤول، وكلّ رئيسٍ في كنيسة المسيح. لقــد دار حوله كلّ «الحُمْسِ» من قريش، من عبد المطلب زعيم مكّة، إلى أبي بكر الصديق، فـعثمــان بن الحويرث، وزيد بن نَفيل، وعبــيد اللّه بن جحش، وعبداللّه بن جدعــان، وغيرهم ممّن زاولوا التحنث والتحنّف في غار حــراء. ودار حوله النبي محمد طوال أربع وأربعين سنة من حياته.

كما كــان القسّ ورقة «رئيس النصارى» هكذا سيكون مــحمّد «أوّل المسلمين»، أي: رأســهم، وإمامهــم، والمسؤولَ عنهم، وســيّدَهم، وقائدَهم، ووليَّ أمــرِهم. قال: «وأُمِــرتُ لأنْ أكُونَ **أوّلَ المسلمين**»[٩٨]. وقال : «وإنّي أُمِرتُ أنْ أكُونَ **أوّلَ مَن أسلمَ**»[٩٩]. وقال أيضاً : «وبذلك **أُمِرْتُ وأنا أوّلُ المسلمين**»[١٠٠]. هذه الأوليّــة، كما هو واضح، لــيست أوّليّة زمنيّــة، بل هي أوليّة في المقام والمسؤوليّــة. ويُستبــعد جداً أن تكون أوّليّة زمنيّة بعدما أثبت القرآنُ نفسُه أســبقيّةَ الإسلام الحقيقي على الإسلام العــربي؛ وأسبقيّــة إسلام النبيّين الســابقين على إسلام محمّد وأتباعه.

وكما كانت مسؤولية القسّ ورقــة على الجماعة النصرانيّة في

---

(٩٨) سورة الزّمر ٣٩/١٢.

(٩٩) سورة الأنعام ٦/١٤.

(١٠٠) سورة الأنعام ٦/١٦١-١٦٣.

مكّة، هكذا هي مسؤولية محمّد في تعليم الناس ما لا يعلمون، وتلاوة آيات الكتاب عليهم، وتزكيتهم من خطاياهم. قال: «كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا، وَيُزَكِّيكُمْ، وَيُعَلِّمُكُمُ الكِتَابَ والحِكْمَةَ، وَيُعَلِّمُكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ»[١٠١].

وليس أدلّ على ذلك من كثرة اهتمام القسّ بالنبيّ نفسه: فهو الذي زوّجه من خديجة، وهو الذي درّبه على التأمّل والصلاة في حِراء، وهو الذي تولّى إعلان نبوّته على العرب.

إنّ هذه المسؤوليّة لجديرة بالاهتمام. فهي تُظهر لنا الدور الذي لعبه القسّ في مجتمع مكّة، ومهمّته في تعريب الإنجيل العبراني، وفرض ترجمته على العرب، ومكانته العالية بين زعماء قريش وتجّارها الميسورين، وتولّيه أمر الكعبة، وملازمته بيت اللّه الحرام، والطواف حوله. كلُّ هذه مهمّات تُناط بالرئيس السيّد القائد، والكاهن الجليل. وربّما شعر بعض كتبة السِّير بهذا الدور الخطير فأعلنوا عن أهميّة القسّ هذه في وساطته بين اللّه ومحمّد، بل وفي الوحي نفسه، فقالوا: «وَلَمْ يَنْشَبْ وَرَقة أنْ تُوُفِّيَ وَفَتَرَ الوَحيُ»[١٠٢]، أو عندما امتدحه النبيّ في قوله: «أَبْصَرْتُه في بطنان الجَنّة وعليه السندس»، أو «إنّي رأيتُ له جَنّةً أو جَنّتَين»[١٠٣].

---

(١٠١) سورة البقرة ٢/١٥١؛ أنظر أيضاً: ٢/١٢٩؛ ٢/٢٣٩؛ ٣/١٦٤؛ ٦٢/٢...

(١٠٢) صحيح البخاري بشرح الكرماني ١/٣٨.

(١٠٣) السيرة الحلبيّة ١/٢٧٤

سابعاً - موت القسّ وَرَقة

المعروف عن وفاة القس ورقة قليل جداً. فكما نجهل زمن ولادته ومدة حياته كذلك نجهل أسباب وفاته واليوم الذي توفّي فيه. إلاّ أنّه قيل فيه أنّه مات عن عمر يفوق المائة سنة. ولا يستبعد ذلك طالما أنّه كان صديقَ عبد المطّلب جَدّ النبيّ ونديمه. وقد قيل عن عبد المطلب أنّه مات وله من العمر مائة سنة ونيّف.

ويُذكر أيضاً أنّ ورقة توفّي بعدما بدأ محمّد رسالته بثلاث أو أربع سنين، أي عندما كان لمحمد من العمر أربع وأربعون سنة(١٠٤). ويوافق ذلك ما نراه عند ابن الجوزي في كتاب الأمتاع: «أنّ ورقة مات السنة الرابعة من المبعث»(١٠٥)، وفي سيرة ابن اسحق، وفي كتاب الخميس...(١٠٦).

ويرجّح طول حياة القسّ ما كان عليه في آخر أيّامه من صمم وعمى. وهو ما يشير إلى عبء السنين عليه. وفي الواقع، إذا عرفنا أنّ القسّ كان نديماً لعبد المطّلب، يتحنّثان معاً في غار حراء، وفيما كان محمد في رعاية جدّه لا يتجاوز الثماني سنين، وأنّ القسّ توفّي

---

(١٠٤) ويُقال أنّه مات في «عام الحزن»، أي في العام الذي توفّي فيه أبو طالب وخديجة، أي في السنة السابعة للدّعوة، أي: سنة ٦١٧م وكان لمحمّد ٤٧ سنة.

(١٠٥) راجع السيرة الحلبية ١/ ٢٧٤.

(١٠٦) المرجع نفسه.

عندما كان محمد في الأربعة والأربعين، تبيّن لنا أنّ المنيّة أدركتِ القسّ بعد أنْ رزح تحت عبء السنين.

أمّا أثر موت القسّ على النّبيّ فظاهر في حديث عائشة، كما جاء في صحيح البخاري، قالت: «ولم يَنْشَبْ وَرَقَة أنْ تُوُفِّي وَفَتَرَ الوَحّيُ». وهذا يدلّ على ما كان عليه القسّ بالنسبة إلى النبيّ. لقد كان له العضد الأمين، والمرشد الحكيم، والوسيط الطاهر بينه وبين اللّه. وهو يشير إلى كونه رجلاً صالحاً، له دورٌ فعّال في الدّعوة الجديدة التي أصبح محمّد، بعد موت القسّ، قَيِّماً عليها و "الأوّل" على ما مرّ معنا.

ويختلف أهل السير والأخبار في موت القسّ ورقة إنْ كان على الإسلام أو على النصرانيّة: ففي رواية عن ابن عبّاس أنّ ورقة «مات على نصرانيّته»[١٠٧]، وفي كتاب الأمتاع لابن الجوزي إنّ القسّ ورقة كان «آخر مَن ماتَ في الفترة، ودُفن بالحجون. فلم يكنْ مسلماً»[١٠٨]. والفترة هي المدّة التي تفصل بين عيسى ومحمّد، حيث لم يكن نبوّة. والحجون هو مدفن الحنفاء من آل قريش، حيث قبر عبد المطلب جدّ النبي ووالدَيه.

إلاّ أنّ مفهوم أهل السير والأخبار للنصرانيّة، كدِينٍ يختلف عن الإسلام، فيه نظر. ومفهومهم لرسالةِ النبيّ على أنّها تختلف عن رسالة القسّ فيه أيضاً نظر.

---

(١٠٧) أنظر قول ابن عباس في السيرة الحلبية ١/ ٢٧٣.

(١٠٨) إبن الجوزي في الامتاع نقلاً عن السيرة الحلبية ١/ ٢٧٣.

وفي كلِّ حـال، إنّ ما قـاله النبيّ عن مـصيـر القسّ بعد مـوته يفوق كل تصـوّر، ويحسم الموضـوع، ويتحدّى مـفاهيم أهل السِّـير والأخبار للـنصرانيّة والإسلام. يقـول النبيّ: «لقد رأيتُ القسّ، يعني ورقـة، في الجَنّة، وعليـه ثياب الحـرير». وفي رواية: «أبصـرتُه في بطنان الجَنّة، وعليـه السندس». وفي روايةٍ أيضاً: «قد رأيتُـه، فرأيتُ عليه ثيـاباً بيضاً، وأحسـبه، لو كان من أهل النار، لم تكن عليـه ثيابٌ بيض». وفي رواية أخـرى : «لا تسبّـوا ورقة، فـإنّي رأيتُ له جنّة أو جنّتين، لأنّه آمَنَ بي وصدّقني»[١٠٩].

فأقوال النبي هذه عن مصيـر ورقة، إنْ لم تُؤيدْ إسلامَه، فإنّها تؤيّد إيمانَه وهدايتَـه، وبالتـالي نجاتَه، بـل نجاتَه في أعلى درجـاتِ الجَنّة. والذين أرادوه ميتـاً على النصرانيّة يقصدون هلاكَـه أكثر ممّا يقصدون نجاتَه، لأنّه، في ظنّهم، أدركَ الدّعوة المحمديّة دون أن يؤمن بها، عرفها ولكنّه لم يعتنقـها... وكلّ هذا افتراض باطل، لأنّ نصرانيّة القسّ هي نفسها إسلام النّبي.

---

(١٠٩) ترى هذه الأحاديث للنبي في السيرة ١ / ٢٧٤.

خاتمة

ألقليل المعــروف عن الـقسّ ورقـة بن نوفل في كـتب السـيـر والأخبار يدلّ على نسبه الشريف، وزعامـته الأكيدة، ومقامه الرفيع، ومهمّته الجليلة في مكّة وقريش. وهذا الـقليل، ما كنّا نعتمد عليه، لو لم يؤيّد القرآن صحّته، إلى درجة أنّنا لا نفـهم من تعاليم القرآن شيئاً إنْ غابت عنا تعـاليم «الإنجيل العبراني» الذي كان الـقسّ ورقة يعمل على نقله من لغته الأراميّة إلى العربية.

كما أنّــنا نعجز عن فهم الكثـير من قصص الأنبيـاء الأقدمين، ومن تعـاليم التـوراة والانجـيل، الواردة في القـرآن العـربي، إنْ لم نردّها إلى أصلها والمصدر الذي عنه أُخذت. وقـصّة يحيى بن زكريّا، وبشـارة الملاك بمولده، ومـولـد عـيـسى، ومـعـجـزاته، وإنجـيله، وحوارييه، ورسالته، و تعـاليمه وأمثاله كلّها، وكيفـيّة موته، ورفعه، ورجوعه الأخـير... جميعـها لا نفهم منها شيـئاً إنْ لم نرجع بها إلى تعاليم ورقة وانجيله العبراني.

ويصعب علينا، في كل حـال، أن نفهم استـمراريّة الوحي على الأنبياء، وأخْذَ بعضـهم عن بعض تعاليمهم وقصصـهم وشرائعهم، ان لم يكن هناك من يضـمن هذه الاسـتمـراريّة وهذه التعـاليم، ويكون، بالتالي، الواسطة بين الوحي السابق والوحي اللاحق، أي بين التوراة والإنجيل من جهة، والقرآن العربي من جهة. ولسنا نجد في مكة، في

أيّام النبي محمّد، غير القسّ ورقة يلازمه طوال أربع وأربعين سنة ونيّف.

وقد يكون في مكّة والحجاز وبلاد الشام غيرُ القسّ ورقة يعلّم الناس، ويبشّرهم بالإنجيل، ويدرّبهم على الشرع النصراني، ويدير شؤونَهم الرّوحيّة... إلاّ أنَّ نَسَبَ القسّ ورقة، وعلوّ شأنه، ووزعامته على قريش، ورئاسته على نصارى مكّة، وقرابته من النبي ومن خديجة، وتحمّسه في دينه، وإيمانه الجريء، وممارساته الرّوحيّة، كلّها تثبت لنا أهمّيّة القسّ ورقة، وصلته المتينة بينه وبين النبيّ.

الفصل الثاني

القسُ والنبيُّ في مُعترك الحياة

أوّلاً – القسّ يزوّج النّبيّ

ثانياً – القسّ يدرّب النّبيّ

ثالثاً – القسّ يعلّم النّبيّ

رابعاً – القسّ يعلن النّبيّ خليفته

خامساً – القسّ النّبيّ والنّبيّ القسّ



أولاً - القسّ يزوّج النّبي

بعدمــا دخل محـمّد في خدمــة خديجـة، بإلحاح من عـمّه أبي طالب الذي قال له يومَهـا: «يا ابن أخي! أنا رجلٌ لا مالَ لي، وليس ما يمدّنا وما يقوّمنا، ولا تجارة»[1]، راح محمّد يعـمل في تجارة خديجة بصـدقٍ وأمانة، وراحت هي تُدفق عليـه الأموالَ وتُعطيه ضعـف ما تعطي رجلاً من قومه[2]. ثم أرسلت إليه، ذات يوم، خادمتَها «نَفِيسَة» تفاوضه في الزّواج منها.

وروتْ لنا «نفيسـة» قالت: «فأرسلتْني دَسِيساً إلى مـحمّد بعد أنْ رجع في عيرها من الشـام. فقلتُ: يا محمّـد! ما يمنعك أن تتزوّج؟ فقال: مـا بيدي ما أتزوّج به. فقلتُ: فإنْ كُـفيتَ ذلك، ودُعيتَ إلى المال والجمال والشرف والكفاية! ألا تجـيب؟ قال: فمَنْ هي؟ قلتُ: خديجة. قـال: وكـيف لي بذلك؟ قلتُ: بلى. وأنا أفـعل. فـذهبتُ فـأخبـرتُـهـا. فأرسلتْ إليه أَنِ ائْتِ السّاعةَ كذا وكذا»[3]

وعندمـا بلغتِ السـاعة كـذا، أرسلتْ خـديجة إلى أعـمـامهـا. وأرسل محـمّد إلى أعـمامــه فـحـضروا جـميـعاً[4]. واجتـمع الناس.

---

(١) طبقات ابن سعد ١/ ١١٩ و ١٥٦ و ١٦٨، السيرة الحلبية ١/ ١٤٧.

(٢) السـيرة المكية ١/ ١١٨، طبـقـات ابن سـعد ١/ ١٢٩، الحلبـيـة ١/ ١٤٧، تاريخ الطبري ٢/ ٢٨١.

(٣) طبقات ابن سعد ١/ ١٣١؛ السيرة الحلبيّة ١/ ١٥٢-١٥٣.

(٤) سيرة ابن هشام ١/ ١٧٤.

وخطب أبو طالب وقال: «...وابنُ أخي له في خديجة بنتِ خُويلد رغبة، ولها فيه مثل ذلك». وخطب القسّ ورقة وليُّ أمر خديجة، وقال: «ألحمد للّه الذي جعلَنا كما ذكرتَ، وفضّلَنا على ما عدّدتَ. فَنَحْنُ سَادةُ العَرَبِ وَقَادَتُها. وأنتم أهلُ ذلك كلّه. لا يُنكِر العربُ فضلَكم. فَاشْهَدُوا عَلَيَّ يَا مَعْشَرَ قُرَيش. إنِّي قَدْ زَوَّجْتُ خَدِيجَةَ بِنْتَ خُوَيْلِد مِنْ مُحَمَّدٍ بِنْ عَبْدِ اللّه... وفرح أبو طالب فرَحاً شديداً، وقال: " ألحمد للّه الذي أذهب عنّا الكرب ودفع عنّا الغموم "[٥]. وقال أيضاً عن ابنِ أخيه: " وهو، واللّهِ، بعدَ هذا (الزّواج)، له نبأ عظيم وشأنٌ خطير " »[٦].

***

نتوقّف عند حدث الزّواج هذا لنبدي بعضَ الملاحظات. فهو حدث خطير وهامّ في حياة القسّ والنبيّ، وفي شأن المخطّط الذي يتنفّذ على يد أبي طالب وخديجة. لقد وقع النبيُّ، على ما يبدو، وقعةً إلهيّةً بينَ يدَي أولياءِ أمره. وتوالتْ عليه، بعد حدثِ الزوّاج هذا، الإعلاناتُ الصريحةُ عن نبوّته العتيدة ورسالته المقرّرة. ولم تبخلْ علينا كُتب السِّيَرة في ما كان عليه القسّ والعمّ والزّوج. لقد كان لكلٍّ منهم دورُه في ما دبّر اللّه على أيديهم.

يلاحظ **أوّلاً** مقام القسّ ورقة في مكّة وفي قريش: فهو سيِّد العرب وقائدهم. من قوله: «نحن سادة العرب وقادتها». وقد اعتبرته

---

(٥) السيرة الحلبية ١/ ١٥٥، السيرة المكية ١/ ١٢٣.

(٦) سيرة ابن هشام ١/ ١٩٤.

كتب السـير «رئيس النصـارى» والمسؤول عنهم. ونسـتدلّ على ذلك من أولويّتـه في محـفل الزواج ومن تقدّمـه على كافّـة الحاضـرين. والقسّ، على ما نعلم، محظوظ بثقة الناس موفور الاحترام.

يلاحظ **ثانياً** أنّ القسّ لم يكن حـاضِراً حفلَ الزّواج ومـتقـدِّماً على الحـاضرين بما له من درجـةٍ تؤهّله ذلك؛ بل لقـد كان مـحتـفِلاً بالعَـقْد و«مكلِّلاً». فـهـو الذي أبرمَ العهـد. وشـهـد عليـه، وأعلن على الحضور ما جرى. هو المحـتفِلُ الأوّل بالعَقد، أو قل هو «الكاهن» الذي ربَط، باسم اللّه، ما لا يحلّـه إنسان، بحسب تعليم إنجـيل الإبيونيّين. كاهنٌ نصرانيّ يبارك الزّواج! فعلى أيّ دين يكون الزوجان إذاً؟!!

يلاحظ **ثالثاً** صيغة العقد التي تلاها القسّ على الزّوجين وأمام الحضور. إنّها الصـيغة المستعملة عـادةً عند النصارى مع عناصرها الأساسيّة لصحّة الزّواج:

ألعنصر الأول: وجـود القسّ وإشرافه المباشر اللّذان اتضحا في صيغة المتكلّم من قول ورقة: «إنّي قد زَوَّجْتُ».

ألعنصـر الثـاني: رضى الزّوجَين الذي بدا أكـيداً في عـرض خديجة نفسَها على محمّد قائلة: «يا ابن عمّ! إنّي قد رَغِبْتُ فِيكَ»، وفي رضى محمّد الذي «ذكر ذلك لأعـمامه» بفرح وسرور[٧]، وفي خطبة أبي طالب الذي أعلن «رَغْبَةَ» ابن أخيه.

ألعنصر الثالث: وجود شهود عِيان من آل قريش ومن الأقرباء والأنسباء.

---

(٧) سيرة ابن هشام ١/١٧٣، السيرة الحلبية ١/١٥٣.

ألعنصر الرّابع: إعلان القسّ لعقد الزّواج إعلاناً رسميًا وصريحاً أمام الحاضرين.

والعنصر الخامس والأخير: إستمراريّة الزّواج الذي ربط بين الزّوجَين حتى موت أحدهما. وبالفعل كان ذلك إذ «كانت خديجة أوّلَ امرأةٍ تزوّجها رسولُ اللّه، ولم يتزوّج عليها غيرَها حتّى ماتت»[٨].

يلاحظ **رابعاً** مقاصد القسّ في ما دبَّر على يدِ خديجة. إنّه زواجٌ، على ما يبدو، رغبه القسّ قبلَ أن ترغبه خديجة: فهو الذي أعلن، قبل سواه، هذه الرغبة في قوله: «ورغبتُنا في الاتّصال بحبلِكم وشرفِكم»[٩]؛ وذلك بالرغم من رفض والدها الذي تساءل قائلاً: «أنا أزوّجُ يتيمَ أبي طالب؟! لا لَعمري. فقالتْ له خديجة: ألا تستحي؟! تريد أنْ تسفِّهَ نفسَك عند قريش؟! فلم تزل به حتّى رضي»[١٠].

وفي رواية «إنّ خديجة قالت لمحمّد: إذهبْ إلى عمّك فقلْ له تعجّل إلينا بالغداة. فلمّا جاءها ومعه رسول اللّه، قالتْ له: يا أبا طالب! تدخل على عمّي (ورقة) فكلّمه يزوّجني من ابن أخيكَ محمّد بن عبداللّه. فقال أبو طالب: يا خديجة! لا تستهزئي. فقالتْ: هذا صنْع اللّه (؟؟؟). فقام فذهب وجاء مع عشرةٍ من قومه إلى عمّها»[١١].

ولن ندركَ الآنَ مقصد القسّ في ذلك. لعلّه، وهو الإبيوني المذهب، يريد الاهتمام باليتيم والفقير محمّد؟ أو لعلّه، وهو قسُّ مكّة

(٨) سيرة ابن هشام ١/ ١٧٤.

(٩) طبقات ابن سعد ١/ ١٣٣، سيرة ابن هشام ١/ ١٩٥، الحلبية ١/ ١٥٥.

(١٠) طبقات ابن سعد ١/ ١٣١-١٣٣.

(١١) السيرة الحلبية ١/ ١٥٤.

يريد أن يعدَّ خليفةً له من بعده؟ أو يدبّر قائداً وزعيماً يخلفه على قريش؟!

ويلاحظ **خامساً** -وقبل كلّ شيء- كيفيّة زواج المرحومِ والدِ محمّد المدعوّ عبد اللّه، الذي كان يسعى وراء شريكة حياته؛ وقد عَرَضتْ «رقيّة» أختُ القسّ ورقة نفسَها عليه. وهي، كما تخبر عنها كتب السِّير، «كانتْ تسمع من أخيها ورقة أنّه كائنٌ في هذه الأمّة نبيّ»[١٢]... إلاّ أنّها لم توفّق بالزّواج من عبد اللّه... وهذا ما يدلّ، مرةً أخرى، على معرفة ورقة بمحمّد وبآل محمد، حتّى قبل ولادة محمد؛ كما يدلّ على أنّ في الأمر تدبيراً مدروساً ومصمَّماً له. هذا وإنّ في السيرة الهاشميّة تأكيداً على «أنّ الذي وجدَه (محمداً) هو ورقة بن نوفل ورجل آخر من قريش. فأتيا به عبدَ المطّلب. وكان له من العمر خمس أو ستّ سنين. وهذا معنى قوله: «وَوَجَدَكَ ضَالاً فَهَدَى»[١٣].

ويلاحظ **سادساً** دخول أبي طالب، هو الآخر، في مخطّط القسّ وتدابيره. وهو واضح في قوله: «وهو (أي محمّد)، واللّهِ، بعدَ هذا (الزّواج)، له نبأٌ عظيم وشأن خطير». ونحن نسأل: من أين لأبي طالب معرفةُ المستقبل واستنباطُ التنبؤات؟ من أين للعمّ أن يعرف ما سيكون عليه مصيرُ ابن أخيه؟ ثمّ إنّ أبا طالب رضي أن يزوّج محمّداً الشاب من أرملةٍ لرجلَين قبله، رضي بذلك مسروراً، فأعلن: «ألحمد للّه الذي أذهب عنّا الكرب ودفع عنّا الغموم». ونسأل: أكان النبيّ على عمّه عالة، أم أراد العمّ لابنِ أخيه قَصاصاً، «وهو الذي كان يحبّه حبّاً

---

(١٢) ابن هشام ١/ ١٤٣-١٤٤ و١٤٥؛ ابن سعد ١/ ٩٥؛ الحلبية ١/ ٦٢-٦٣.

(١٣) ابن هشام ١/ ١٥٤؛ انظر الحلبية ١/ ١٥٥.

شــديداً لا يُحـبّـه ولده. وكـان لا ينام إلاّ إلى جنبـه. وكـان يحـفظه ويحوطه ويقصده وينصره إلى أن مات»[١٤]. كيف رضي له ذلك لولا مـخطط القسّ المدبّر الـذي أراد أن يعوّض مـحـمّـداً عن الإجـحـاف العاطفي بتوليته قيادة روحيّة وسيادة زمنيّة على العرب؟

ويلاحظ **سابعاً** وأخيراً دخـول محمّد نفسِـه في تدابير القسّ: فتىً في الخـامسة والعـشرين من عـمره يتزوّج من امـرأة تجاوزتِ الأربعين، وأرملةٍ لرجلَين قـبله وأمٍّ لعدّة أولاد[١٥]. هذا الشاب، مـهما كان جـريئاً، لا يخطر بباله، وهـو الخادم، أن يتزوّج من سـيّدته التي شفقتْ عليه واستـخدمتْه في تجارتها، وقد كان قـومُها حريصاً على نكاحها لو قدر على ذلك؛ قد طلبـوها وذكروا لها الأموالَ فلم تقبل. ما كـان ليكون لمحـمّد ذلك لـولا دافع دبّر له ما يـناسب. ومَن يكون هذا الدافع غير القسّ؟ فلـولا القسّ لما كان ما كان، ومتى أراد القسّ شـيئاً كان.

(١٤) طبقات ابن سعد ١/١١٩، ١٢١.

(١٥) السيرة الحلبية ١/١٥٦.

ثانياً – القسّ يدرّب النبيّ

بعد ما ارتبط مصير محمّد بمصير خديجة انحلّت من مخطط القسّ عِقَدٌ كثيرة. لقد وقع النبيّ في قبضة القسّ وقعةً إلهيّة. لقد تمّت الخطوة الأولى بنجاح. وضع القسّ خبرتَه في خدمة نسيبه فزيّن له مستقبلاً غنيًا بالأماني والآمال. ولم تضنّ ثريّةُ قريش بمالها لتنفيذ رغبات ابن عمّها. وتعاون الإثنان، بما يملكان من خبرةٍ ودهاءٍ وجاهٍ ومال، على إعداد النبيّ للرسالة المقرّرة. وسار القسّ به على طريق النّجاح المكفول. والنجاحُ المكفول يُصار إليه حثيثاً وبتوءدة.

والرسالة الخطيرة تتمّ بالتدريب المتواصل والتهيئة الباطنيّة العميقة. فكان أوّل ما كان وأهمّ ما كان الخلوة. والخلوة في غار حِرَاء حيثُ اعتكفَ جَدُّه وندماءُ جَدِّه و«الحُمْس» من قريش. هناك، في مدّةٍ تزيد على الخمس عشرة سنة، راحَ القسُّ والنبيُّ يختليان ويصلّيان وينقطعان عن الناس ويفكّران باللّه، شهراً كاملاً من كل سنة[١٦]. هناك تدرّب النبيُّ على يد القسّ الخبير بشؤون اللّه والناس.

لم تكن الخلوة بعيدة عن طبع محمّد. لقد كان له ذلك من صغره، على حدّ شهادة أقرب المقرّبين إليه. وهي خطوة هامّة نحو النجاح. لقد شهدتْ مرضعتُه النّصرانيّة حليمة السعديّة وقالتْ: «لمّا

---

(١٦) ابن هشام ١/٢١٨.

ترعرع كـانَ يَخرج إلى الصبـيان وهم يلعبون فـيتجنّبـهم. ولمّا قرُب الزّمن الذي أراد اللّه أن يرسله فيه ازداد محبّةً في الخلوة. لأنّ الخلوة يكون بهـا فـراغ القلب والانقطاع عـن الخلق. فـهي تُفـرغ القلب عن أشغال الدنيا لدوام ذكر اللّه، فيصفو، وتُشرق عليه أنوارُ المعرفة. فلم يكن شيءٌ أحبَّ إليه من أن يخلو وحدَه. وكـان يخلو بغارِ حراء. فكان يتحنّث فيه، أي يتعبّد فيه اللّيالي ذواتِ العدد مع أيّامها»[١٧].

وشهـدت امرأتُه عـائشة أيضاً وقـالت: «ثمّ حُبّب إليـه الخلاء، فكان يخلو بغار حِراء، ويتحنّث فيه، وهو التعبّد الليالي قبل أن يرجع إلى أهله ويتزوّد لذلك. ثم يرجع إلى خديجة فيتزوّد لمثلها، حتّى فَجَأه الحقُّ وهو في غار حِراء»[١٨]. وزاد ابن هشام بقوله: «فلم يكن شيء أحبّ إليه من أن يخلو وحده»[١٩].

وأكّدتْ خديجـة، أولى زوجاته، ذلك فـقـالت: «حَبَّبَ اللّهُ إليـه الخلوةَ التي بها يكون فراغ القلب والانقطاع عن الخلق»[٢٠].

ولكن، لم يكن محمّد يعرف وحـده أهميّة الخلوة، إعداداً للنفس وانقطاعـاً إلى اللّه، لو لم يتـعرّف على أناسٍ مـارسوها قـبلَه، ولو لم يتّـبعْ في ذلك سيـرةَ جَدّه وندمـاء جدّه أمـثال أبي أميّـة بن المغـيرة والقسّ ورقة وغـيرهما[٢١]. فعن هـؤلاء أخذ محـمّد الطريقـة. وعلى

---

(١٧) السيرة الحلبية ١/٢٥٧، ٢٦٠، تاريخ الطبري ٢/٢٩٨.

(١٨) صحيح مسلم ١/٧٨ – ٧٩، صحيح البخاري ١/٣٩، ابن سعد ١/١٩٤...

(١٩) سيرة ابن هشام ١/٢١٦.

(٢٠) سيرة ابن هشام ١/٢١٦، السيرة الحلبية ١/٢٥٨.

(٢١) السيرة الحلبية ١/٢٥٩.

خطواتهم سار في إعداد حياته الروحيّة ورسالته العتيدة.

وقد شهدت السِّيرة على خلوة محمّد ومقوّماتها بقولها: «كان رسول اللّه يجاور في حِرَاء من كلّ سنة شهراً. وكان ذلك ممّا تحنّثَ به قريش في الجاهليّة»[٢٢]، وبقولها أيضاً: «كان رسول اللّه يجاور ذلك الشهر من كلّ سنة، يُطعم مَن جاءه من المساكين. فإذا قضى جواره من ذلك الشهر، كان أوّل ما يبدأ به، إذا انصرف من جواره، الكعبة، قبل أن يدخل بيتَه، فيطوفُ بها سبعاً، أو ما شاء اللّه من ذلك. ثم يرجع إلى بيته؛ حتّى كان الشهر الذي أراد اللّهُ تعالى فيه ما أراد من كرامته»[٢٣].

لا نعرف بالحصر مقوّماتِ خلوة محمّد في غار حراء، ولا كيفيّتها، بحسب ما جاء في شرح البخاري: «لم يجيءْ في الأحاديث التي وقفنا عليها كيفيةُ تعبّدِه»[٢٤]. إلاّ أنّها قد وُصفتْ بما وُصفتْ به خلوةُ عبد المطّلب والقسّ وغيرهما ممّن قصدوا حِرَاء للاعتكاف والتعبّد والرياضة الروحيّة. وفي كتب السيرة وَصْفٌ لها بما يتّفق والتقاليد النصرانيّة في ذلك الحين. أهمّها:

١- ألزهد والانقطاع عن الناس. يقومان على ترك ما في العالم من طيّبات، واعتبار الدنيا كلا شيء، طمعاً أو رغبة في لقاء اللّه بأيدٍ نظيفة من علائق المادّة. ويقوم الجوار في حِراء[٢٥] على التخلّي

---

(٢٢) سيرة ابن هشام ١/٢١٨، أنظر تفسير الطبري ٢/٤٨.

(٢٣) نهاية الأرب ١٦/ ١٧٠، ابن هشام ١/٢١٩، الحلبية ١/٢٥٩...

(٢٤) السيرة الحلبية ١/٢٥٩.

(٢٥) الجوار هو الاعتكاف والسجود خار المسجد.

عن مجـادلات النّاس التي لا منفعة فـيها، والابتـعاد عن اهتمـاماتهم الدنيويّة، لكي يكون كلُّ شيء لديه مـدعاةً لطلب الحقّ من اللّه وحده. كـمـا يقوم علـى «إفراغ القلـب من أشغـال الدنيـا، ودوام ذكـر اللّه، فيصفو وتشرق عليه أنوار المعرفة»(٢٦).

٢- ألتحنّث والتحنّف. يقومان على التـفكّر باللّه وحده والتعبّد له، وعلى إقامة أعمال الروح من صلاة وتأمّل وهذيان روحي وقراءة كلمة اللّه في كتبه المنزَلة، وسماع تفسـيرها من مرشدٍ خبير يساعده في معـراجه الروحي، والاعتكاف على شرحـها وتأويلها وتفصـيلها مع من يمكنه ذلك. ولذلك قـيل في مواضيع تحنّـث محمّـد بأنّه «كان يتعبّد قبل النبوّة بشرعِ إبراهيم(؟)، وقيل بشريعة موسى، وقيل بكلّ ما صحّ أنّـه شريعة لمن قـبله»(٢٧). وهذا هو المعروف لـدى النصارى الآخذين بأحكام موسى وعيسى، أو القائمين بالتوراة والإنجيل!

٣- ألصيـام. قدوةً بصـوم موسى وإيليّـا على جبـل حوريب، وصوم يحـيى بن زكريّا وعيسى ابن مـريم في بريّة الأردن، وصومِ النّصارى كـافّةً، كان محـمّد يقضي شـهرَه في الانقطاع عن الأكل أو في أكل وجبـة واحدةٍ في اليـوم، وفي الاقتصـار بهذه الوجـبة على المآكل الخفيـفة من الأعشاب والأثمـار والألبان وكِسَرِ الخـبز اليابس

---

(٢٦) السـيـرة الحلبيـة ١/ ٢٥٩. يشـهـد أوريجن Origène على أنّ النّصـارى كانوا يؤثرون الجوار في المغاور لأجل العبادة لا لأجل التستر. أنظر: PG.11, 1539-1542 وكذلك كيرلّس الأورشليمي Cyrille de Jérusalem يشير إلى العبادات في المغاور: PG. 33, 1047-1048

(٢٧) السيرة الحلبيّة ١/ ٢٦٠.

ونباتات الصحراء الضئيلة، ويأكلها، لا للتنعّم بطعمها، بل لسدّ جوعه وحاجته الغذائيّة الماسّة إليها. وعُرف عن محمّد أنّه كان يتزوّد لصيامه الكعك واللّبن[٢٨].

٤- أعمال البرّ والإحسان. لم تخل خلوة النبيّ من عمل الحسنة تجاه من يراه في حاجةٍ إليها. لقد كان «يُطعم مَن جاءه من المساكين»[٢٩]، حتّى إنّ طيور السماء ووحوش الجبال كانت تتنعّم بإشفاقه وعطفه. هذه الناحية من حياة محمد كانت تستأثر باهتمامه، وهو الذي ذاق مرارة البؤس والحرمان منذ صغره، وهو الذي تعلّم على جدّه وعمّه ونسيبه قسّ مكّة أن يكون شفوقاً عطوفاً وسخياً في العطاء. ولا يخفى ما في تعاليمه من حثّ على عمل الحسنات والصدقات والاهتمام بالأرامل واليتامى وأبناء السبيل. كما لا يخفى هجومه العنيف على مترَفي مكّة وأثريائها و«الملأ الأعلى» من قريش، ومنهم بعض أعمامه كأبي لهب «وامرأته حمّالة الحطب».

٥- شهر رمضان. هو شهر الخلوة والصيام والصلاة. فيه كان النبي يعتكف في غار حِراء، وفيه كان يحظى بِنِعَم اللّه، وفيه كان يتحنّث ويتفكّر باللّه ويتأمّل في كتبه المنزلة. إنّه شهر الهدى الذي نزل فيه الوحي تلطّفاً! لقد كان رمضان، قبل التشريع القرآني، شهر صيامٍ نصرانيّ، وقد أشار القرآنُ نفسه إلى ذلك بقوله: «يَا أَيُّهَا الّذينَ آمَنُوا! كُتِبَ عَلَيكُمُ الصِّيَامُ، كَمَا كُتِبَ عَلَى الّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ»[٣٠].

---

(٢٨) السيرة الحلبية ١/ ٢٥٩.

(٢٩) سيرة ابن هشام عن ابن اسحق١/ ٢١٩.

(٣٠) سورة البقرة ٢/ ١٨٣.

٦- الطْواف في البيت. في نهـاية شـهر الخلوة والصـيام، كان ينزل مـحـمّـد من عـلى جـبل حـراء ويذهب إلى بيت اللّـه للشكران والاحتـفال بالعيـد، فيطوف بالكعبـة سبعَ مرّات، ثمّ يرجع إلى بيـته مطمئناً متمِّماً واجبَه المقـدس! تقول السيرة النبويّة: «وكان إذا قضـى جواره من شـهره ذلك، كان أوّل مـا يبدأ به، إذا انصرف قبل أن يدخل بيتَه، الكعبة، فيطوف بها سبعاً، ثمّ يرجع إلى بيته»[٣١]، تماماً كما هو حال النّصـارى، بعد صـيامهم الأربعين، يـحتفلون بعـيد الشـعانين، ويطوفون حول كنائسهم سبع مرّات. كذا في الأصل.

هذه بعض مقـومّات خلوة القسّ ورقـة والنبيّ محمّـد في غار حِراء. كلّها عادات نصرانيّة، لا يمارسها أيٌّ إنسان من ذاتِ طبعه، ولا تكون من أجل غـايات دنيـويّة. كلّـها مـن شرع اللّه الذي أُنزل على موسى وعيـسى، أي التي كان يمارسها اليهودُ واليـهود-المتنصّرون والمسيحيّـون. ولم يكن بوسع محمّد ان يكتشفهـا وحدَه لولا اقتداؤه بمَن سبقه في ذلك، ولولا تدرّبُه على يدِ مرشدٍ خبيرٍ كالقسّ ورقة بن نوفل أقرب المقرّبين إليه.

لقد كـانت ممارسات محـمّد الروحيّـة صعبـة، وأرادها كذلك لوفرة تديّـنه. ولشدّتها عليـه كانت تحـدث له «أرهاصاتٌ كـان منها جزعـاً»، وتنتابه نوبات عـصبيّـة شديدة، خشي أن يكـون الشيطانُ مسبِّباً لها. ولطالما كـانت بوادره ترتجف، ووجهه يتربّد، ويتـصبّب منه العـرق في الأيام الـباردة، ويُـصـاب بالإغـمـاء، ويَغطّ كـغطيط

---

(٣١) سيرة ابن هشام ١/ ٢١٩، السيرة الحلبية ١/ ٢٦٠، نهاية الأرب ١٦/ ١٧٢.

البكْر[٣٢]، ويُسمع عنده دويٌّ كَدَويّ النحل. وكان، والحال هذه، يَطلب من زوجتِه خديجة أن تلفَّه بثياب دافئة ليذهب عنه الرَّوع[٣٣]. هذه الحالات النفسيّة الشديدة أَرَتْهُ ما أرتْه من رؤىً وأحلام، ظنّ نفسَه فيها جِنّيًا أو شيطاناً. وكانت خديجة تعالجه وتستشير في أمرِه ابنَ عمّها القسّ ورقة[٣٤].

---

(٣٢) غطّ البعير: نخر في نومه وهدر في الشِقْشِقَة. البكْر هو الفتيّ من الإبل.

(٣٣) انظر في هذا الموضوع، في كيفية الوحي ونزوله على النبي وما كان يحدث له من أهوال: ابن هشام ١/ ٢٢٠، صحيح البخاري ١/٢٣، ٣١، صحيح مسلم ١/ ٩٨، طبقات ابن سعد ١/١٩٨، السيرة الحلبية ١/٢٦٧، المكيّة ١/٢٨٢... وغيرها من مراجع في السيرة تتفق كلها على ذلك.

(٣٤) ابن هشام ١/ ٢٢٠-٢٢٣، الحلبية ١/٢٦٧، المكية ١/١٨٣.

ثالثاً – القسُّ يعلّمُ النّبي

على مدى أربع وأربعين سنة كـان النبيّ يلازم القسّ ويتدرّب على يده. إنّهـا المرحلة الهامّـة من حياة الـنبيّ وممارساته الروحـيّة وثقافته الدينيّـة. والثقافة الدينيّة كانت تقـوم دائماً على قراءة الكتاب المقدّس ودراستـه وتفصيله. ولا عجبَ أن يكون «الإنجـيل العبراني» الذي كان ورقـة ينقله إلى العربيّـة، ويحضر مـحمّد نقله، ويدرسه، و«يقـرأ» فيـه، ويتأمّل، هو الكتـاب «الإمَام»، بحـسب تعبـير القـرآن العربي[٣٥]. وكم من إشـارةٍ في القرآن العـربي تدلّ على هذه المهـمّة الجديدة التي اكـتسبهـا النبيّ وتلقّنها ودرسَها بشـغف الملهوف إلى كلمة اللّه.

ولكي نتأكـد من ذلك لا بدّ لنا من إبعاد شبهـةِ «أمّيّة محـمّد». وهي تعني، في نظرِ مـعظم المسلمين، أنّ مـحمّداً كـان يجهل الـقراءة والكتابـة جهلاً تامّـا. وتمسّك هؤلاء بهذه الأمّـيّة، قصـدَ الدلالة على حقيقة الوحي على محمّد، ومصـدره الإلهي، فيما الحقيقة هي أنّ اللّه استعمل، كما كان يستعمل دائمـاً، وسائطَ طبيعيّة لإعلانِ كلمتهِ. وقد استعمل، هنا، مـع محمّد، إنساناً خبيـراً علّمَه ما لم يكن يعلم، ودرّبه على أعمـال الرّوح، وعلى «قراءة» الكـتب والتأمّل فيـها. ومـا تعبـير «النّبيّ الأُمّيّ» إلاّ ليعني شيئاً آخر.

---

(٣٥) سورة يس ٣٦/١٢؛ أنظر: هود ١١/١٧؛ الأحقاف ٤٦/١٢.

لذلك فإنّنا نميّز بين أَمْـرَين: بين ما كان يَعلمُه محـمّد، وبين ما كان لا يعلمــه ثمّ تعلّمه بعد حين. أمّـا العلم الذي كان يعلمه فــهو علم القراءة والكتابة الذي اكتســبه في صغره، وعلى ذلك أدلّة. وأمّا العلم الذي كـان يجهله ثم تعلّمــه فهـو علم الكتــاب المنزل، وهو العلم الذي اكتــسبه من «لَدُنِ خَبِـيرٍ حَكِيمٍ»(٣٧)، وممنّ «عِنْدَهُ عِلْمُ الكِتَابِ»، و«مِنَ الرَّاسِـخِينَ فِي العِلْمِ». ونسـمّي العلم الذي يعلمــه «العلمَ الطبيـعي»، والعلم الذي اكتسبه فيما بعد «العلم الالهي». وكلا العلْمَين مكتسَب.

أوّلاً – العِلم الطّبيعي

وهو علم القراءة والكتابة. تعلّمه محـمّد تعلّمه منذ صباه، وهو في كفالة جدّه عبد المطّلب وعمّه أبي طالب. وعلى هذا العلم أدلّة:

١– إنّ «الأُمّيّ»(٣٨) و«الأُمِّيِّينَ»(٣٩)، بحسب القرآن، مَن ليس لهم كتــاب منزل. فاليــهود، أبناء إســحق بن إبراهيم، هم «كتــابيّون»، في حين أنّ العرب، أبناء إســمعيل بن إبراهيم، هم «أمّيّــون». ودلّ القرآن على هذا التـمييـز دلالة واضـحة وصـريحـة: فأهل الكتـاب ليســوا كالأمّـيّين، ولا إيمانَ مشتـرك بينهم. قال: «وَمِنْ أَهْلِ الكِتَـاب.. قَالُوا: لَيسَ عَلَينَا فِي الأُمِّيِّينَ سَـبِيلٌ»، أي، بحسب تفـسير ابن كثـير: «ليس علينا في ديننا حـرج في أكل أموال الأمّـيّين وهم العرب. فـإنّ اللّهَ قد أحلّها لنا»(٤٠).

---

(٣٧) سورة هود ١١/ ١.

(٣٨) سورة الأعراف ٧/ ١٥٧ و١٥٨.

(٣٩) سورة البقرة ٢/ ٧٨؛ سورة آل عمران ٣/ ٢٠ و٧٥؛ سورة الجمعة ٦٢/ ٢.

(٤٠) تفسير ابن كثير على آل عمران ٣/ ٧٥؛ ج ١، ص ٤٢٢.

و«هُوَ، (أي اللّه)، بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ (وهم العرب) رَسُولاً مِنْهُمْ، يَتْلُو عَلَيهِمْ آيَاتِهِ، وَيُزَكّيهِمْ، وَيُعَلِّمُهُمُ الكِتَابَ والحِكْمَةَ، وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلاَلٍ مُبِينٍ»[٤١].

وهو أيضاً يدعو الكتابيّين والأمّيّين معاً إلى اتّباع الإسلام: «وقُلْ للّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ وَالأُمِّيِّينَ: أَأَسْلَمْتُمْ؟ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوا. وإِنْ تَوَلَّوا فَإِنَّمَا عَلَيكَ البَلاغُ. وَاللّهُ بَصِيرٌ بِالعِبَادِ»[٤٢]؛ أي، بحسب تفسير ابن كثير أيضاً: «قال تعالى آمراً لعبده ورسوله محمّد أنْ يَدعو إلى طريقته ودينه، والدّخولِ في شرعه وما بعثه اللّهُ به، ألكتابيّينَ من الملّتَين (أليهود والنّصارى) والأمّيين من المشركين»[٤٣].

وهو يشير إلى تمنّي الأمّيّين معرفة الكتاب: «وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لا يَعْلَمُونَ الكِتَابَ إلاّ أَمَانِي»[٤٤]، أي كما نُقل عن قتادة: إنّ الأمّيّين «يتمنّون على اللّه ما ليس لهم»[٤٥]؛ أي: إنّهم «لا يعلمون ولا يدرون ما فيه»[٤٦]، أي ما في التّوراة من تعليم وتشريع..

فالأُمّيّون، إذاً، وبحسب القرآن العربي، هم العرب أبناء إسمعيل، والكتابيّون هم اليهود أبناء إسحق. وبالتالي، فإنّ تعبير «النّبيّ الأُمِّيّ»، ألوارد في القرآن مرّتَين في سورةٍ واحدةٍ في آيتَين

---

(٤١) سورة الجمعة ٦٢/٢.

(٤٢) سورة آل عمران ٣/ ٢٠ .

(٤٣) تفسير ابن كثير على آل عمران ٣/ ٢٠؛ ج١، ص ٤٠٠–٤٠٢.

(٤٤) سورة البقرة ٢/٧٨.

(٤٥) عن تفسير الطبري لسورة البقرة ٢/٧٨؛ مجلّد ١، ص ٥٣٠.

(٤٦) ألمرجع السابق نفسه، ص ٥٣٣.

متتاليتَين[٤٧]، لا يعني إطلاقاً جهْلَ محمّد القراءةَ والكتابة، بقدر ما يعني انتماءه إلى «الأمم»، أي «الغوئيم»، بحسب التعبير العبراني الذي يُطلقه اليهود على غيرهم من الشعوب.

وقد عبّر الشهرستاني عن ذلك خير تعبير عندما قال: «وأهل الكتاب كانوا يُنصرون دينَ الأسباط، ويَذهبون مذهبَ بني إسرائيل؛ والأمّيّون كانوا يُنصرون دينَ القبائل، ويَذهبون مذهبَ بني إسماعيل»[٤٨].

وبهذا المعنى أيضاً قال ابن عبّاس: «ألأمّيّون قومٌ لم يصدِّقوا رسولاً أرسله اللّه، ولا كتاباً أنزله اللّه، فكتبوا كتاباً بأيديهم، ثمّ قالوا لقومٍ سَفلةٍ جهّالٍ: «هَذَا مِنْ عِنْدِ اللّه»[٤٩]. وقال: «قد أخبر (اللّه) أنّهم يكتبون بأيديهم، ثمّ سمّاهم "أمّيّين" لجحودهم كتب اللّه ورسله»[٥٠]. وقال أيضاً: «إنّ الأمّيّين الذين وصفهم اللّه بما وصفهم به، في هذه الآية (٢/٧٨)، أنّهم لا يفقهون من الكتاب الذي أنزله اللّه على موسى شيئاً؛ ولكنّهم يتخرّصون الكذب، ويتقوّلون الأباطيل كذباً وزوراً»[٥١].

---

(٤٧) سورة الأعراف ٧/١٥٧ و١٥٨: «ٱلّذينَ يَتَّبِعُونَ الرّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الّذي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِنْدَهُم فِي التّوراةِ والإنْجِيلِ... فآمِنُوا باللّهِ ورسُولِهِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ الّذي يُؤْمِنُ باللّهِ وكَلِمَتِهِ، وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهتَدُونَ».

(٤٨) الشهرستاني، الملل والنحل ١/٢٠٨.

(٤٩) سورة البقرة ٢/٧٩.

(٥٠) عن تفسير الطبري لسورة البقرة ٢/٧٨، مجلّد ١، ص ٥٢٨.

(٥١) ألمرجع السابق نفسه، ص ٥٣٠.

بهذا المعنى القرآني الصحيح يجب أن نفهم معنى تعبير «النّبِيّ الأُمِّيّ» في آيتَي الأعراف المذكورتَين.

٢- والدليل الثاني بيّن في أوّل سورة نزلتْ. فيها يدعو جبريل محمّداً : «إقْرأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الّذِي خَلَقَ. خَلَقَ الإنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ. إقْرأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ الّذِي عَلَّمَ بِالقَلَمِ. عَلَّمَ الإنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ»[٥٢]. وأجمعت كتب «تفسير القرآن»، وكتب «أسباب النزول»، وكتب السِّير والأخبار، والأحاديث النبويّة، وأجمع الباحثون، مسلمون ومستشرقون، على أنّ هذه السّورة هي الأولى في تاريخ الوحي. واتّفق الجميع على أنّ جبريل جاء محمّداً يحمل كتاباً دفعه إليه ليقرأه.

فلولا معرفة محمّد بالقراءة، ولولا صحّة تاريخ هذه الآية، وصحّة ما جاء فيها، لما اتّفق الجميع على أمرٍ واحدٍ بدون اختلاف أو جدال. ولئن كان اللّه، في القرآن العربي، «يمكر» بالناس، «وَهُوَ خَيرُ المَاكِرِينَ»[٥٣]، أفيمكر أيضاً بنبيّه، فيكلّفه قراءةً لا يستطيعها!؟

٣- مهما تعدّدت تأويلات لفظة «قَرَأَ» ومشتقّاتها الواردة في القرآن، فإنّ المقصود منها تلاوة نصٍّ من كتاب. والآيات التي تدلّ على معرفة محمّد بالقراءة كثيرة. منها: «فَإذا قَرَأْتَ القُرْآنَ فاستعذْ باللّه من الشيطان»[٥٤]؛ و«إذَا قَرَأْتَ القُرْآنَ جعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حِجَاباً مستورًا»[٥٥]، أي: «يحجبُ قلوبَهم عن أن

---

(٥٢) سورة العلق ٩٦/١-٥.

(٥٣) سورة آل عمران ٣/٥٤، سورة إبراهيم ١٤/٤٦...

(٥٤) سورة النحل ١٦/٩٨.

(٥٥) سورة الإسراء ١٧/٤٥.

يفهموا ما تقرؤه عليهم، فينتفعوا به، وذلك عقوبة منّا لهم على كفرهم»[٥٦]؛ ويقول أيضاً: «وَقُرْآناً فَرَقْنَاهُ (أي: أحكمناه وفصّلناه وبيّنّاه) لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ (أي: على تُؤَدة، فترتّله وتبيّنه، ولا تعجل في تلاوته، فلا يُفهم عنك)»[٥٧]؛ ويقول أيضاً: «سَنُقْرِئُكَ فَلاَ تَنْسَى إلاّ مَا شَاءَ اللّهُ»[٥٨]، أي: «سنقرئكَ يا محمّد هذا القرآن فلا تنساه إلاّ ما شاء اللّه»[٥٩]...

هذه الآيات وغيرها[٦٠] تفيدنا أنّ محمّداً كان يعرف القراءة ويُجيدها، وكان يقرأ الكتاب الذي بين يديه، فكانت قراءته له «قرآناً».

٤- وأخيراً، إنّ العلم الطبيعي الذي تعلّمه محمّد، لا بدّ أنّه تعلّمه وهو في بيت عمّه أبي طالب وتحت حمايته ووصايته. لقد قيل عن أبي طالب في حبّه لابن أخيه: لقد «اختصّه بفضلٍ واحترامٍ وتقدير. وظلّ فوقَ أربعين سنة يعزّ جانبه ويبسط عليه حمايته»[٦١]. وقيل فيه أيضاً: «كان يُحبّه حبًّا شديداً لا يحبّه لأحدٍ من وُلْدِه. وكان لا ينام إلاّ إلى جنبه، ويَخرج فيَخرج معه. وصبّ به أبو طالب صبابة لم يصبّ مثلَها بشيء قط. وكان يخصّه بأحسن الطعام»[٦٢].

---

(٥٦) تفسير الطبري على الإسراء ١٧/ ٤٥؛ مجلّد ٩، ص ١١٧-١١٨.

(٥٧) سورة الإسراء ١٧/١٠٦؛ تفسير الطبري عليها، مجلّد ٩، ص ٢٢١-٢٢٢.

(٥٨) سورة الأعلى ٨٧/٦-٧.

(٥٩) تفسير الطبري على سورة الأعلى ٨٧/٦-٧، مجلّد ١٥، ص ١٩٢.

(٦٠) ترد لفظة «قرأ» ومشتقاتها في القرآن ١٧ مرّة؛ ولفظة «القرآن» ٧٠ مرة.

(٦١) محمد الغزالي، في فقه السيرة ص. ٦٧.

(٦٢) ابن سعد ١/١١٩، الحلبية ١٢٥.

وقيل أيضاً: «كان أبو طالب يحفظه ويحوطه ويعضده وينصره إلى أن مات»[٦٣].

هذه العناية الفائقة اقتضتْ من أبي طالب اهتماماً بالغاً بابن أخيه اليتيم الذي حظي في بيته ما حظي به ابنُ عمّه عليّ صاحب البلاغة المأثورة ومنتهج نهجها في أوّل كتابٍ في بابه باللغة العربيّة، وقد سمّي «نهج البلاغة». ولا يعقل أن يَمنع أبو طالب عن أبن أخيه ما وفّره لابنه من بلاغة برع فيها وأبدع.

ولئن فرّق بعضُ المسلمين بين ربيبَي أبي طالب فلغاية معروفة، ألا وهي إظهار تدخّل اللّه المباشر في الوحي، وامتناع محمّد عن أن يكون له أيّ تدخّل، أو عملٍ شخصيٍّ فيه. فـ «الأمّيّة، بحسب ما جاء في تفسير المنار، آيةٌ من أكبر آيات نبوّته»[٦٤]. وفي كلّ حال، إنّ أبا طالب لم يكفل محمّداً ليوفّر له حاجاته المادّيّة وحسب، بل ليوفّر له أيضاً، وقبل كلّ شيء، ما وفّره لابنه من علمٍ وتربيةٍ... هذا وإنّ محمّداً نفسه اعتبر «كلام عليّ دون كلام الخالق وفوق كلام المخلوق». فكيف، والحال هذه، بمن «أُعْطِيَ جَوَامِعُ الكَلِمِ»!؟

ثانياً – العلم الإلهي

أمّا العلم الذي كان محمّد يجهله، وقد تكفّل القسّ ورقة بتوفيره له، فهو عِلم الكتاب المنزل الذي كان القسّ ينقله في حضور

---

(٦٣) ابن سعد ١/ ١٢١.

(٦٤) تفسير المنار على سورة الأعراف ٧/ ١٥٧؛ جزء ٩، ص ٢٢٥؛ أنظر أيضاً تفسير المراغي، ج ٩، ص ٨١.

محـمّد طوال أربع وأربعين سنة. هذا العلم «دَرَسَـه» النبيُّ على القسّ وفي الإنجيل العـبراني. و«لفظة "دَرَسَ" في القـرآن مقـصورة على دراسة الكتب المقدّسة»(٦٥). بهذا الدرس تحدّى محـمّد المجرمين الذين لا يستطيعـون الحكم ولا الخيار، لأن ليس لهم كتـاب منزل يحكمون بموجبه. قـال: «أَفَنَجْعَلُ (مصير) المُسْلِمِينَ كَـالمُجْرِمِينَ (في الآخِرة)؟ مَا لَكُمْ كَـيفَ تَحْكُمُونَ؟ أمْ لَكُمْ كِتَابٌ (خـاصٌّ بكم نزل عليكم من عند اللّه)، فِيـهِ تَدْرِسُونَ (أي فـيه تساوون بين المسـلمين والمجرمين)؟ إنّ لَكُمْ فِيهِ لَمَّا تَخَيَّرُونَ»(٦٦).

ولئن اتّهم الدارسون في الكـتاب محمّـداً بأنّه لا يأتيهم شيـئاً جديداً، فإنّ تهـمتهم تُرَدّ عليهم، لأنّه لا يعـمل إلاّ في تصريف الآيات وتبيـينها وتيـسيرها فـقط. قال: «وَكَـذَلِكَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ. وَلِيَـقُولُوا دَرَسْتَ (أي: قرأتَ وتعلّمتَ من أهل الكتاب(٦٧). وَلِنُبَيِّنَهُ لِقَومٍ يَعْلَمُونَ (أي: يعلمون الحقّ إذا تبيّن لهم، فيتبعوه ويقبلوه)»(٦٨).

وعلى الذين درسوا في الكتاب الذي درس فيه محمّد ميثاقٌ ألاّ يقولوا إلاّ الحقّ: «ألم يُؤخذ عليهم ميـثاقُ الكتابِ أنْ لا يقولوا على اللّه إلاّ الحقّ وَدَرَسُوا مَـا فِيهِ!»(٦٩). لذلك عليهم أن يعلنوا ما درسـوا كما هو يعلن، وهم يعلمون مـا يعلنه خير علم. وهو ينصحـهم بأن يعملوا

---

(٦٥) Le Coran, trad. par D. Masson, Sor. VI, 105; p.831.

(٦٦) سورة القلم ٦٨/ ٣٥-٣٨.

(٦٧) إشارةً إلى قوله: «وَلَقَدْ نَعْلَمُ أنّهمْ يَقولونَ إنّما يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ..» النحل ١٦/ ١٠٣.

(٦٨) سورة الأنعام ٦/ ١٠٥؛ تفسير الطبري عليها، مجلّد ٥، ص ٣٩٧-٤٠٢.

(٦٩) سورة الأعراف ٧/ ١٦٩.

بما يعلّمون ويعلنون: «كونوا ربّانيين بما كُنتم تعلّمون الكتاب وبما كنتم تدرسون»(٧٠)، تماماً، كالفرّيسيين الذين اتّهمهم المسيح بأنهم «يقولون ما لا يعملون»(٧١). فعلمُ محمّد للكتاب ودرسُ ما فيه وقراءةُ أخباره، وتفصيلُ آياته وتبيينها، كلُّها كانت له زاداً ليحاجج الناس الذين يجادلون «في اللّه بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير»(٧٢).

***

على ضوء هذه الأدلّة يمكن الجزم بإلمام محمّد بالعِلمَين: ألعلم الطبيعي والعلم الإلهي، وقد حصّلهما بطريقةِ الدّرس والاكتساب، لا بالحدس والإلهام. ومعرفته بهما لا تقلّل من دوره الرّسولي. فاللّه، في ما نعلمه من التوراة والإنجيل، إذا ما شاء اختيارَ إنسانٍ لرسالةٍ يوفّر له إمكانات مناسبة لأداء هذه الرسالة.

وما ردّ محمّد التّهمة عنه بأنّه يتعلّم من «الَّذينَ يَقْرَأُونَ الكِتَابَ مِنْ قَبْلُ»(٧٣) إلاّ دليل على ما تعلّمه. قال: «وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ»(٧٤)، فردّ بقوله: «لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيهِ أَعْجَمِيٌّ. وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ»(٧٥). وقد اعترف محمّد نفسه، مراراً، بأنّ علومَه كلّها مكتسبة، وذلك عندما قال بأنّه لا يعلم الغيب ولا عنده خزائن

---

(٧٠) سورة آل عمران ٣/ ٧٩.

(٧١) انجيل متى ٢٣/ ٣.

(٧٢) سورة لقمان ٣١/ ٢٠؛ سورة الحجّ ٢٢/ ٨.

(٧٣) سورة يونس ١٠/ ٩٤.

(٧٤) سورة النحل ١٦/ ١٠٣.

(٧٥) سورة النحل ١٦/ ١٠٣.

اللّه: «لا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللّهِ. وَلا أَعْلَمُ الغَيْبَ»[٧٦]. فاللّه «لا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَداً»[٧٧].

ويشهد على علم محمّد بالكتاب جملة شهود: ألله، والملائكة، وأهل الكتاب، والرّاسخون في العلم.. وردّد القرآن العربي هذه الشهادات فيه مراراً وتكراراً.

قال: «قل كفى باللّه شهيداً بيني وبينكم ومَن عنده علم الكتاب»[٧٨]؛ وقال: «شهد اللّه والملائكة... وأولو العلم»[٧٩]؛ وقال أيضاً: «شهد شاهد من بني اسرائيل على مثله»، (أي على مثل القرآن)[٨٠]؛ وقال: «يا أهل الكتاب! لِمَ تكفرون بآياتِ اللّه وأنتم تشهدون!»[٨١]؛ وقال: «إنّا أنزلنا التّوراة فيها هدًى ونورٌ يحكم بها النّبيّون الّذين أسلموا للذين هادوا والربّانيون والأحبار بما استحفظوا من كتاب اللّه وكانوا عليه شهداء»[٨٢]...

وحين كان محمّدٌ يشكّ من علمه هذا ومن وحي اللّه عليه، كان اللّه يوجّهه إلى أهل الكتاب، ويطلب منه أن يسألهم ويستشيرهم في ما أنزل إليه. قال: «إنْ كُنْتَ (يا محمّد) فِي شَكٍّ ممّا أَنْزَلْنَا إِلَيكَ،

---

(٧٦) س. الأنعام ٦/ ٥٠؛ الأعراف ٧/ ١٨٨؛ هود ١١/ ٣١؛ النمل ٢٧/ ٦٥.
(٧٧) سورة الجنّ ٧٢/ ٢٦.
(٧٨) سورة الرّعد ١٣/ ٤٣.
(٧٩) سورة آل عمران ٣/ ١٨.
(٨٠) سورة الأحقاف ٤٦/ ١٠.
(٨١) سورة آل عمران ٣/ ٧٠.
(٨٢) سورة المائدة ٥/ ٤٤.

فَاسـأَلِ الّذينَ يَقْرأُونَ الكِتَـابَ مِنْ قَبْلِكَ (فهم يـشـهدون:) لَقَـدْ جَاءَكَ الحَقُّ مِنْ رَبِّكَ. فَلا تَكُونَنَّ مِنَ المُمْتَرِينَ (أي المشكّكين). وَلا تَكُونَنَّ مِنَ الّذينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللّهِ فَتَكُونَ مِنَ الخَاسِرِينَ»[٨٣].

وعندما يشكّ أتبـاعُ محمّدٍ في صـحّة علْمه ووحيه ينـصـحهم بأن يذهبوا هم أيضـاً إلى أهل الكتاب ويسـألوهم: «إسـأَلُوا أهْلَ الذِّكْرِ إنْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ»[٨٤]. وعندما يختلف المسلمون في تفـسير ما جاء به محـمّد في القرآن، يـقول لهم: «وَلْيَحْكُمْ أهلُ الإنْجِـيلِ بمَا أَنْزَلَ اللّهُ فِيهِ»[٨٥].

وما القرآن أخيراً إلاّ تبيان لما أُنزل من قَبل: «وَأَنْزَلْنَا إلَيكَ الذِّكْرَ (أي القرآن) لِتُبَيِّنَ للنّاسِ مَا نُزِّلَ إلَيهِمْ (من قَبْلُ)»[٨٦].

ومن البـارزين في «علم الكتاب»، والذين شـهدوا شـهادة حقّ في القرآن ونبيّه، كان القسّ ورقة بن نوفل، أقرب المقرّبين إلى محمّد. وقد شهدت عائشة، ناقلة الحديث الصحيح عن محمّد، بدور ورقة في الوحي والعلوم الإلهيّـة في قولها: «وَلَـمْ يَنْشَبْ (أي: يلبث) وَرَقَةُ أَنْ تُوُفِّيَ، وَفَتَرَ الوَحْيُ».

---

(٨٣) سورة يونس ١٠/ ٩٤–٩٥.

(٨٤) سورة النحل ١٦/ ٤٣ ؛ سورة الأنبياء٢١/ ٧.

(٨٥) سورة المائدة ٥/ ٤٧.

(٨٦) سورة النحل ١٦/ ٤٤.

رابعاً - القسُّ يُعلنُ النَّبي خليفَتَه

لم يُخْفِ القسّ مقاصده في ما دبّر لمحمّد منذ أن تعرّف عليه. ولم يُخْفِ كتّابُ السِّير مقاصدَ القسّ هذه ولو بعد مائة وخمسين سنة. لقد عرف القسّ ما يقصد، وأدرك كتّاب السِّير مقاصد القسّ؛ ولكنّهم حاولوا تجنّبَ خطرِ ما أدركوا وما عرفوا. غير أنّ ما تجنّبوه من خطرٍ كان أكثرَ إثباتاً لهذا الخطر:

لقد حاولوا إثبات نبوّة محمّد؛ ولكنّهم، في الحقيقة، أثبتوا نبوّة القسّ. وحاولوا إرجاع كلّ شيءٍ في حياة محمّد إلى اللّه؛ ولكنّهم، في الواقع، كان القسّ، الذي نطّقوه باسم اللّه، مرجعهم وثقتهم العمياء. لقد بحثوا في علاقة محمّد باللّه، فإذا هم يعلّقون محمّداً بالقسّ...

ويدرك الباحثُ ذلك عندما يسمع القسَّ يُطلقُ الإعلانَ تلوَ الإعلان، فيتنبّأ هو، لا محمّد، على كلّ شيء. فهو الذي تنبّأ على أنّ محمّداً نبيُّ اللّه. وهو الذي عرف مستقبل محمّد.. لكأنّ كتّاب السِّير يطلقون الأدلّة على نبوّة القسّ وقدرته، فيما هم يظنّون التدليل على نبوّة محمّد.

لا غرابة، عندنا، في الأمر، فإنّ كلَّ شيءٍ قد أُعدّ إلى الآن على أحسن حال، والقسّ، في رأي النّاس، وفي القرآن أيضاً[٨٧]، قدير على

(٨٧) إشارة إلى سورة المائدة ٥/ ٨٢ حيث يقول: «ذلك بأنّ منْهمْ قِسّيسِينَ ورُهْباناً وأنّهم لا يَسْتكبِرون».

كلِّ شيء وخبيرٌ في أمور اللّه. وللناس ثقة بقدرة القسّ، أيّ قسّ، ممّا يثبّت كلَّ مخططٍ يرسمه، وينفّذ كلَّ قصدٍ يعزم على تحقيقه. وقد تيسّر له ذلك بسهولة، لاعتبارات عديدة: منها مقامه الرفيع بين الناس، فهو من «سادة العرب وقادتها»؛ ومنها رئاسته على جماعة مكة، فهو «رئيس النصارى»؛ ومنها علمه الواسع بالكتب والأمور الالهية، فهو «يتتبّع الكتب من أهلها»؛ ومنها انقياد الناس له ولأمثاله من القسّيسين والرهبان، لـ«أَنَّهُمْ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ»[88]، وقد اتّخذهم بعضُ النّاس «أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللّهِ»[89]؛ ومنها أخيراً سعي أصحاب الحاجة إليهم وطلب نصائحهم، والالتجاء إلى صوامعهم، والتماس الشفاء من أيديهم، والاعتماد عليهم في اكتشاف الغيب واستطلاع الأسرار الخفيّة...

واستغلّ القسّ ورقة اعتبارات الناس هذه، وراح يدبّر مَن يخلفُه في مهمّته، فكان محمّد بن عبداللّه خيرَ مَن دَبّر. وأشرك في تدبيره هذا أقرب المقرّبين إليه وإلى النّبيّ.

أمّا الذين تعاونوا مع القسّ، وسمعوا نداءه، وذُهلوا بتدابيره، فأهمّهم وأوّلهم خديجة زوج النّبيّ، وأبو طالب عمّه وكفيله، وأبو بكر الصدّيق صديقه الحميم، ووالدُ خديجة بعد رضاه، وأخوها عَمرو، وغيرهم الكثير. كلّهم انصاعوا لتدابير اللّه على يدِ قسّه ووكيله في مكّة، واتّخذوا في ما دبّر. وبارك هذا التدبير الراهبُ بَحِيرا، والراهبُ

---

(٨٨) سورة المائدة ٥/ ٨٢.

(٨٩) سورة التوبة ٩/ ٣١.

عَدّاس النينوي، وسَلمان الفارسي[٩٠]. وساعدوا القسّ في ما أراد، فتوالتِ التنبؤات عن مستقبل محمّد من كل جانب، من على ألسنة السحرة والكهّان، والإنس والجنّ، والشجر والحجر، والحيوانات على أنواعها، والملوك والأحبار، والملائكة والبشر... ولم تبخل كتب السير والأخبار عن ذكر الكثير الكثير منها. وبعض ما ذُكر ينبىء عن كثيرٍ ممّا حدث. وما كنّا ندري شيئًا ممّا حدث لولا القسّ ورقة نفسُه يفسّر لنا ما حدث. واستمرّت الإعلانات تتوالى على مدى خمس عشرة سنة. وأهمّها أتى في ست مراحل هامّة من حياة النبي ورسالته:

الإعلان الأوّل: قبل الزواج

قبل أن تتمّ مراسيم الزّواج بين محمّد وخديجة، وفيما كان محمّد يتاجر لخديجة في بلاد الشام، رجع «مَيْسَرَة»، خادمُها الأمين، يخبرها عمّا رأى وسمع من مذهلات جرت لمحمّد[٩١]. ولمّا انتهى من حديثِه، قامت خديجة للحال، وأتتْ مسرعةً تخبر ابنَ عمّها وَرَقة ما سمعتْه من خادمها عن محمّد. وللتّوِ وقف القسّ باطمئنان العارف بمشيئة اللّه يقول: «لئنْ كان هذا حقًّا، يا خديجة، فإنّ محمّداً لَنبيّ هذه الأمّة. وقد عرفتُ (؟) أنّه كائن لهذه الأمّة نبيٌّ منتظَر هذا زمانه»[٩٢].

---

(٩٠) السيرة المكيّة ١/ ١٨٣، السيرة الحلبية ١/ ٣٦٧.

(٩١) ابن هشام ١/ ١٧٥، الكامل في التاريخ ٢/ ٣٩، الحلبية ١/ ١٤٧-١٥٢، ابن كثير، السيرة النبوية ١/ ٢٦٨.

(٩٢) سيرة ابن هشام ١/ ١٧٥-١٧٧، السيرة الحلبية ١/ ١٥١.

نحن نسأل، لا عن حقيقة نبوّة محمّد، بل عن حقيقة نبوّة ورقة: مِن أين لورقة هذا؟ كيف عرف مشيئة اللّه؟ أكان القسّيسون في ذلك الزمان يدركون الغيب والمستقبلات، ولم يعد لهم اليوم ذلك؟! أكانوا يتنبّأون ويعرفون ويتسمّعون على أوامر السماء، ولم يعودوا اليوم كذلك؟! مِن أين لكتّاب السِّيرة المحمّديّة أن يعرفوا تدابير القسّ وتنبّؤاته، بعد أكثر من مائة وخمسين سنة، لو لم يكن لهم، هم أيضاً، علمٌ بمقاصد اللّه التي عرفها القسّ وأعلنها كخبيرٍ مطّلِعٍ على مشيئة اللّه الأزليّة؟!

في كلِّ حال، لقد عرفتْ خديجة أن تستسلم لتدابير ابن عمّها في ما أراد، وهي التي كانت تسترشد بآرائه، على حدّ قول صاحب السيرة: «كان ذلك لخديجة بإرشادٍ من ورقة»[٩٣].

الإعلان الثاني: عند بدء الوحي

لمّا كان محمّد في غار حِراء يتحنّث ويصوم ويصلّي ويتفكّر باللّه ، وقد بلغ الأربعين، أتاه جبريل آخر الشهر يعلن له: «أبْشِرْ يا محمّد، أنا جبريل وأنت رسول اللّه لهذه الأمّة». ودفع إليه كتاباً يقرأه. فاعترى محمّداً ذهولٌ. ثمّ انصرف عنه الملاك . ورجع المرتاض قافلاً إلى بيته يُحَدِّث زوجتَه بما سمع ورأى. وللحالِ أعلنتْ خديجة، هي الأخرى العارفة بمشيئة اللّه: «أَبْشِرْ يا ابنَ عمّ واثبتْ. فوالذي نفسُ خديجة بيدِه! إنّي لأرجو أنْ تكون نبيَّ هذه الأمّة». ثم قامتْ، وجمعتْ عليها ثيابَها، وانطلقتْ إلى وَرَقة تُخبره عمّا حدثَ لزوجها.

---

(٩٣) السيرة الحلبية ١/ ٢٧٥.

وقبل أن تستكمل حـديثها أعلن ورقة مطمئناً وقـال: «قدّوسٌ قدّوسٌ، والذي نفسُ ورقـة بيـده، لئن كنتِ صدقـتِني يا خـديجـة، لقد جـاءَه الناموسُ الأكبر الذي كان يأتي مـوسى. وإنّه لَنَبيٌّ هذه الأمة . فقولي له فليثبتْ»[٩٤].

لقد تكاثرت الشهادت على نبّوة محـمّد: من جبريل، وخديجة، والقسّ ورقة. ألكلُّ يفسّر الرؤيا تفسـيراً واحداً. والكلُّ ينصح محمّداً بالثـبات والاسـتمرار. والـكلُّ يعلن نبوّته في الأمّـة العربيّـة البكر.. والكلّ يقول بأنّه، كموسى وعيسى، سيأتي بناموسٍ للأمّيين، كما أتيا بناموسٍ لـلكتابيّين. ولن يكون، والحـال هذه، بين ما سيكـون للعرب وبين ما هو لبني إسرائيل فـرق. ألناموس هو أيّاه. وليس لمحمّد إلاّ أن يعلنه ويكون له رسولاً وبشيراً ونذيراً.

ولكن، لا بدّ لنا من أن نسـأل، لا عن نبّوة مـحمّد، بل عـن نبوّة خديجـة، التي أعلنت لزوجها نبـوّتَه، وعرفتْ مشـيئة اللّه، وفـسّرتِ الرؤيا كعليـمة بأسرار الغيب. فـمن أين لها ذلك؟ أمن اللّه؟ أم من ابن عمّها ورقة؟ أم من جبريل؟ أللّه أعلم.

الإعلان الثالث: في بدء الرسالة

لمّا نزل محمّـد من على جبل الخلوة والصلاة، في نهـاية شهر رمضــان، أتى الكعبـةَ، قبل أن يرجع إلى بيتـه، يطوفُ حولهـا، سبع مرّات، بحـسب عادته. وفيـما هو يطوف ذات مـرّة كان القسُّ يطوف

---

(٩٤) ابن هشـام ١/ ٢٢١، الحلبيـة ١/٢٦٢، ابن سـعد ١/ ١٥٩. تاريخ الطبـري ٢/ ٣٠١-٣٠٢، الكامل لابن الأثير ٢/ ٣١.

أيضـاً. وبادره بالسؤال: «يا ابنَ أخـي! أَخبـرْني بما رأيتَ وسمـعتَ. فأخـبره رسـول اللّه». فأعلن القـسّ، لساعتـه وقال: «والذي نفـسي بيـده. إنّك لَنَبيٌّ هذه الأمّة. ولقـد جـاءك الناموس الأكـبر الذي جـاء موسى. وَلَتُكَذِّبَنَّهْ وَلَتُؤذَيَنَّهْ وَلَتُخْرَجَنَّهْ وَلَتُقَاتِلَنَّهْ. ولئن أنا أدركتُ ذلك اليوم لأَنصُرَنَّ اللّـه نصراً يعلمُه». ثمّ أدنى رأسَه منه وقـبّل يأفوخَه. ثمّ انصرف محمّدٌ إلى منزله مطمئناً»[٩٥].

هذا هو الاطمـئنان المطلوب، الذي حصل عليـه مـحـمّد، والذي كـان يتـمنّاه مـن ورقـة. وهذا هو الاطمـئنان الذي يُطـلب من القسّ توفيره لرعيّته. وهذا هو النصر الذي حـقّقه القسّ في تدبير خليفةٍ له على جماعة مكّة. والمطلوب الآن من مـحمّد، لا أن «يثبت» وحسب، بل أن يكون «مُطمئنًا» أيضاً. ومتى بلغتِ الطمـأنينة قلبَ محمّد، استطاع القسّ أن يعلن: «لأنصرنّ اللّهَ نصراً يعلمـه». واستحقّ الشابّ الوديع قبلةً من القسِّ على رأسه...

بهذه الطمـأنينة بشّر محـمّد، فيـما بعد، في رسـالته العتـيدة عندما قال: «بِذِكْـرِ اللّه تَطمَئِنُّ القُلُوبُ»[٩٦]؛ وقال: «وَمَـا جَعَلَهُ اللّهُ إلاّ بُشْرَى لَكُمْ، وَلِتَطْمَـئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ»[٩٧]؛ و«قَالَ: أَوَ لَمْ تُؤْمِنْ؟ قَالَ: بَلَى. وَلَكِنْ لِيَطْمَـئِنَّ قَلْبِي»[٩٨]. وبهـذه السكينة الباطـنية أيّد اللّهُ مـحمّـداً

(٩٥) ابن هشام ١/٢٢٢، تفسير الطبـري ٢/٤٩، الحلبية ١/٢٦٣. وعند الطبري هذا التوضيح: «وقـد زاده ذلك من قول ورقة **ثباتاً** وخفّف عنه بعـض ما كان فـيه من الهمّ» (تاريخ ٢/٣٠٢).

(٩٦) سورة الرّعد ١٣/٢٨.

(٩٧) سورة آل عمران ٣/١٢٦؛ سورة الأنفال ٨/١٠.

(٩٨) سورة البقرة ٢/٢٦٠.

وجماعته: «فَأَنْزَلَ اللّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيهِ، وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ...»[٩٩]؛ وقال: «أَنْزَلَ اللّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ»[١٠٠]. وهكذا انتصر القّس نصراً من عند اللّه بنصر تلميذه: «وَيَنْصُرُكَ اللّهُ نَصْراً عزيزاً»[١٠١].

الإعلان الرّابع: عند نزول الوحي

بعد هذا النصر انطلق محمّد، برفقة صديقه أبي بكر الصدّيق، إلى القسّ ورقة، طالباً منه تفسير ما يعرض له من نوبات وإغماءات وإرهاصات. فهو لا يدري من أين هي، وممّن هي، وما معانيها. وأخبر محمّدٌ ورقةَ مسترشداً: «إذا خلوتُ وحدي، سمعتُ نداءً خلفي: يا محمّد! يا محمّد! فأنطلقُ هارباً إلى الأرض». وللحال راح القسّ يُرشده، ويَنصحه، ويهدّئ من روعه، ويطمئن نفسَه، ويقول له: «لا تفعل. إذا أتاك فاثبت حتى تسمع ما يقول، ثم ائتِني»[١٠٢].

ورجع النبيُّ عائداً إلى بيته، ورجعتْ عليه الرؤى، واضطربتْ نفسه مجدَّداً، وكثرتِ الإغماءات عليه، وانتابتْه إرهاصات كان منها جزعاً. ثم عاد إلى مرشده يسأله عن سبب اضطراباته هذه: أهي «أضغاث أحلام»[١٠٣]، يأتي بها الشيطان؟ أم هي «جِنَّة»[١٠٤] في العقل

---

(٩٩) سورة التوبة ٩/ ٤٠؛ سورة الفتح ٤٨/ ٤.

(١٠٠) سورة الفتح ٤٨/ ٢٦ و١٨؛ سورة التوبة ٩/ ٢٦.

(١٠١) سورة الفتح ٤٨/ ٣.

(١٠٢) الحلبية ١/ ٢٦٣.

(١٠٣) سورة الأنبياء ٢١/ ٥؛ سورة يوسف ١٢/ ٤٤.

(١٠٤) سورة الأعراف ٧/ ١٨٤؛ سورة المؤمنون ٢٣/ ٢٥؛ سورة سبأ ٣٤/ ٨؛ سورة الصّافّات ٣٧/ ١٥٨؛ سورة الدّخان ٤٤/ ١٤.

يسبّبها عفريتٌ من الجنّ؟ أم هي «سِحرٌ»[١٠٥] ساحرٍ يسحره؟ أم إلهامات شعرية لـ «شاعر» ملهم[١٠٦]؟ أم «كهانةٌ»[١٠٧] كاهنٍ يبتغي معرفة خزائنَ اللّه؟ أم أنّ رجلاً يعلّمه[١٠٨]؟ أم أنّه يُروي أخباراً من القديم[١٠٩]؟ أم هو أخيراً وحيٌ مُنزل، وإلهاماتٌ ربّانيّة ورؤىً إلهيّة كانت تجيئه كما كانت تجيء أنبياءَ اللّهَ الأقدمين؟!

لم تتوانَ خديجة عن البحث والاستشارات لتهدّئَ روع زوجها. فقد كانت تذهب به إلى القسّ ورقة تارةً، وإلى عَدّاس النينوي طوراً. وأمت هذا الأخير، يوماً، تخبره عمّا يجري لبعلها. فقال لها الرّاهبُ عدّاس: «يا خديجة! إنّ الشيطانَ ربّما عرض للعبد فأراه أموراً. فَخُذِيْ كتابي هذا، وانطلقي به إلى صاحبِك. فإنْ كان مَجنوناً، فإنّه سيذهب عنه، وإنْ كان من اللّه فلن يضرَّه. فانطلقتْ بالكتاب معها»، ورجعت إلى زوجها[١١٠].

ثمّ كتبتْ خديجة إلى بَحِيرا الرّاهب تسأله عن جبريل. فأجابها: «قدّوس قدّوس يا سيّدةَ نساء قريش! أنَّى لكِ بهذا الاسم؟ فقالتْ: بَعْلِي وابنُ عمّي أخبرَني بأنّه يأتيه»[١١١].

---

(١٠٥) س. الأنعام ٦/٧؛ يونس ١٠/٧٦؛ هود ١١/٧؛ النمل ٢٧/١٣.

(١٠٦) سورة يس ٣٦/٦٩؛ سورة الأنبياء ٢١/٥؛ سورة الصّافّات ٣٧/٣٦؛ سورة الطور ٥٢/٣٠؛ سورة الحاقة ٦٩/٤١.

(١٠٧) س. الطور ٥٢/٢٩؛ الحاقة ٦٩/٤٢؛ الأنعام ٦/٥٠؛ الأعراف ٧/١٨٨.

(١٠٨) سورة النّحل ١٦/١٠٣.

(١٠٩) سورة الفرقان ٢٥/٥.

(١١٠) السيرة الحلبية ١/٢٦٧، المكية ١/١٨٣.

(١١١) الحلبية ١/٢٦٨. ويقال انّ جبريل نزل على محمد ستاً وعشرين ألف مرّة

وممّا يُذكر أنّ مِـثلَ هذه الحالات من الإغمـاء كان يعتـريه قبل الوحي والبعثة، وكـان يُرقَى من العين كلّ مرّة. ورَوى لنا ابنُ اسحق عن شيوخـه هذا الحدث فقال: «إنّه (أي محـمد) كان يُرقَى من العين، وهو بمكّة، قـبلَ أن يَنزل عليه القـرآن. فلمّا نَزل علـيه القرآن أصـابه نحو ما كان يُصيبه قبل ذلك»[١١٢]. وكانت خديجة تقول له باستمرار: «أُوَجِّهُ إليكَ مَن يرقيكَ»؟ ويضـيف ابن اسحق: «لم أقفْ على مَن كان يرقيه، ولا على ما كان يُرقى به»[١١٣].

وذكر لنا ابن الجـوزي، أيضاً، أنّه «صلّى اللّه علـيه وسلّم، في سنة سبع من مولده. أصابَه رَمَدٌ شـديد، فعولج بمكّة فلم يغنِ. فقيل لعبد المطلب إنّ في ناحية عكاظ راهبـاً يُعالج الأعين، فركبَ إليه ومعه رسول اللّه. فناداه، وديره مغلق؛ فلم يُجِبْـه. فتزلزل ديرُه حتّى خاف أن يسقط عليه. فخرج مبادراً. فقال: يا عبد المطلب! إنّ هذا الغلام نبيّ هذه الأمّة (؟) ولو لم أخرجْ إليك لخـرَّ عليَّ ديري... ثمّ عالجه وأعطاه ما يعالجه به»[١١٤]. ويُذكر أيضاً عن راهبٍ آخر بين مكّة والمدينة شفاه من الرَّمَد[١١٥].

ومحمّد نفسه كـان يتخوّف من حالاته هذه، ويَخشى هواجس طفولـته. فكان يردّد مـراراً: «لقد خشـيتُ على نفسـي، و«أخشى أن

(الحلبية ١/ ٢٦٩).

(١١٢) السيرة الحلبية ١/ ٢٧٥-٢٧٦.

(١١٣) المرجع نفسه ٦/ ٢٧٦.

(١١٤) السيرة الحلبية ١/ ١٨٣.

(١١٥) المرجع نفسه ١/ ١٨٤.

أكــون كــاهناً»[١١٦]، و«أخـشى أن يكون فيَّ جُنن»[١١٧]، و«أخـشى أن يكون فيّ لِمّة»[١١٨]... ومع هذا، لا نزال نحن نؤمن بتلك الطمأنينة التي أيّد بها القسُّ محمّداً، راجين أن نكونَ عليها في كلِّ حال.

الإعلان الخامس: بعد بدء الرسالة

ثبت النبيّ على نصيـحة القسّ واطمأنّ. وراح يبـاشر مهمّـته، ويبلّغ رسالتَه، وينذر. وابتدأ يعلن للناس بعضَ ما نُزِّل عليه من سور القـرآن بلسـانٍ عـربيٍّ مُبين. ولكنّ عـبء الرسالة الملقـاة على عاتقـه أقلقله، فراح يضطرب من جديد. ففيـما هو، مرّةً، يقرأ وينذر ويتوعّد، أخذتْ بوادره ترتجف، ووجهه يتربّد، وجبيـنُه يتفصّد عَرَقاً، وتنتابه نوبات وإرهاصــات. فـرجع إلى بيتـه مـذعوراً مـرعـوباً. دخل على خديجة يقول لها: «زَمِّلُونِي زَمِّلُونِي»[١١٩]، أي لفّوني بالثياب الدافئة. فــأسـرعتْ خـديجة وزمّلـته حـتى ذهب عنــه الرّوع. وطلبتْ منه أن يُطلعهـا على ما جرى. فأخبـرها. وقالت للحال قولَ الـعارفِ بالأمور ومـجريـات الأحداث: «كَـلاَّ. أَبْشِـرْ. فَـوَاللّه، لا يُخـزيكَ اللّهُ أبداً. إنّكَ لتَـصِلُ الرَّحِمَ، وتُصـدقُ الـحـديثَ، وتحـمِـلُ الكَلَّ لغـيـرك، وتُكسبُ المعدوم، وتُقري الضَعيف، وتُعينُ على نوائب الحقّ»[١٢٠].

---

(١١٦) صحيح البخاري ١/١٨؛ صحيح مسلم ١/٩٧.

(١١٧) طبقات ابن سعد ١/١٩٥، الحلبية ١/٢٥٨.

(١١٨) السيرة الحلبية ١/١٣٦.

(١١٩) طبـقات ابن ســعد ١/١٩٥، تاريخ الطبـري ٢/٤٨، أنظر في القرآن ســورتَي «المزّمّل» و «المدّثّر»، وصحيح البخاري، باب بدء الوحي، ١/٤.

(١٢٠) صحيح مسلم ١/٩٧-٩٨؛ الحلبية ١/٢٦٧؛ صحيح البخاري ١/٣.

وأرادت خديجة ان تتثّبت ممّا تقول وأن تؤكّد لزوجها حجّتها. فانطلقتْ به، كعادتها، الى الخبير الإلهي، إبنِ عمِّها، وَرَقة، تقول له: «إيْ عَمّ! إسمع من ابن أخيك». واستوضح ورقة محمّدًا: «يا ابن أخي! ماذا ترى»؟ فأخبره ما يرى. فأسكن القسُّ روعَه مجدّداً، وراح يردّد عليه قوله السابق: «هذا الناموس الذي أُنزل على موسى». ويضيف هذه المرّة: «يا لَيتَني فيها جَذِعاً وأكونُ في زمن الدعوة». ثم التفتْ ورقة إلى خديجة قائلاً: «نعم لم يأتِ رجلٌ بما جئتِ إلاّ عُودِيَ»[١٢١]، بسبب ما سوف يقوم به محمّد من ثورة على الأغنياء، وغزوات القبائل، وتعاليم غير مألوفة... وعادت خديجة ماسكةً بيدِ زوجها، والطمأنينة في نفسيهما. وأبلغَنا القسّ عن تمنّياته بعدما تحقّق اليسير منها.

الإعلان السادس: عند بدء الجهاد

عن عليّ بن أبي طالب قال: «لمّا سمع محمّدٌ النداء: " قلْ أشهدُ أنْ لا إله إلاّ اللّه وأنَّ محمّداً رسول اللّه ". قال محمّد: " لبّيكَ ". ثمّ قال: " قل الحمدُ للّهِ ربِّ العالمِين، الرّحمن الرّحيم، مالكِ يوم الدين " ». لمّا سمع محمّد ذلك اضطرب. وقام. وأتى القسَّ. وذكر له ما سمع. فقال ورقة: «أَبْشِرْ ثمّ أَبْشِرْ. فإنّي أشهد أنّك الذي بشّر بكَ ابنُ مَريمَ. فإنّك على مثل ناموس موسى. وإنّك نبيٌّ مرسَل. وإنّك ستُؤمر بالجهاد بعد يومك. ولئنْ أدركني ذلكَ لأُجَاهِدَنَّ مَعك»[١٢٢].

---

(١٢١) ألسيرة الحلبية ١/٢٦٣ و٢٦٧؛ تاريخ الطبري ٢/٢٩٨-٢٩٩.

(١٢٢) ألسيرة الحلبيّة ١/٢٦٩.

يبدو أنَّ هذا الإعلان أطلقه القسُّ قُبَيل أن يؤمَر محمّد بالجهاد، أي بعد مضي زمن غير يسير على بدء الرسالة. وكان القسّ قد أصبح عاجزًا ضريراً أصمّ.

في هذا الإعلان اطمئنانٌ آخر لمحمّد بأنّه لن يكونَ وحده في جهادهِ ضد المنافقين والمترَفين من قريش. فالقسّ عازِمٌ على أن يكون إلى جانبه، رغم كبر سنّه. ولكنّه الآن يرشده، ويعضده، ويشدّد من عزيمته، وينصحه بألاّ يستعجل الأمور، لأنّ المهمّ في سبل النّجاح الصبر والتؤدة والتروّي. وهي نصيحة ثمينة جداً، ذكّره بها القرآن فيما بعد: «فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو العَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ. وَلا تَسْتَعْجِلْ»(١٢٣). وعلى محمّد أن ينتصح، وألاّ يترك الرسالةَ الدعوّ لها، مهما ضاق بها صدره: «فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَى إِلَيكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ!»(١٢٤). فإنّ اللّه لن يترك نبيَّه بغير عضد، ولن ينساه أو يودّعه، أو يبغضه: «مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى. وَلَلآخِرَةُ خَيْرٌ مِنَ الأُولَى»(١٢٥).

***

وهكذا صار. وما كان هذا ليحدث لولا رحمة اللّه التي دبّرت كلَّ شيء على أحسن حال. ولئن صحّ ما جاء في الأخبار، أم لم يصحّ، فإنّ روايات السِّير النبويّة، وتسلسل الأحداث، وشهادات القرآن لها، والوساطة البشريّة التي يستخدمها اللّهُ لإعلان كلمته

(١٢٣) سورة الأحقاف ٤٦/٣٥.

(١٢٤) سورة هود ١١/١٢.

(١٢٥) سورة الضحى ٩٣/٣-٤.

وتبليغهـا.. كلّها يؤكّد لنا وقوع مـحمّد وقعة إلهـيّة في مخطط القسّ ورقة وتدابيره، وعَونِ خديجة سيدة نساء قريش التي وفّرت له«المال والجاه والشرف والجمال والكفاية والحنان».

لقـد دبّر القسُّ كلَّ شيءٍ، ونفّذت خـديجة كلَّ شيء على أكـمل وجـه. فـهي التي كـانـت تسـعى بين القـسّ والنبيّ. تسـمـع النبيّ وتشجّـعه، وتذهب إلى القسّ وتسـترشده. ويكفي أن يقـال عنها «إنّ ذلك من خديجة كان بإرشادٍ من ورقة»[١٢٦].

ورقة وخديجة وأبو طالب لعبوا في حياة محمّد ورسالته دوراً كبيراً لا ريب فيه. وبموتهم فقد محمّد العضد والسند والمرشد والمنعة والحنان:

بموت القسّ ورقة «فَتَرَ الوحي»[١٢٧].

وبموت خديجة «تتابعت علـى رسول اللّه المصائب، إذ كانت له وزير صـدق على الإسـلام، يـشكو إليـهـا»[١٢٨] هي التي «آمنت به، وصدّقت بما جـاءه من اللّه، ووازرته على أمره، وكـانت أوّل مَن آمن باللّه وبرسولـه، وصدّق بما جاء منه. فـخفّف اللّهُ بذلك عن نبـيّه. لا يسمع شيئاً ممّا يكرهه مِن ردٍّ عليـه وتكذيب له، فيحزنه ذلك، إلاّ فرّج اللّهُ عنه بها إذا رجـع إليها. تثـبّتُه، وتخـفّفُ عليه، وتُصدقـه، وتهوّن عليه أمرَ الناس»[١٢٩].

---

(١٢٦) السيرة الحلبيّة ١/ ٢٧٥.

(١٢٧) صحيح البخاري بشرح الكرماني ١/ ٣٨، أو ١/ ٤.

(١٢٨) سيرة ابن هشام ٢/ ٤٥.

(١٢٩) المرجع السابق نفسه ١/ ٢٤٤..

وبموت أبي طالب «نالت قريش من رسول اللّه من الأذى ما لم تكن تطمع به في حياة أبي طالب... إذ كان أبو طالب لابن أخيه عَضداً، وحرزاً في أمره، ومنعةً، ونصراً على قومه»[١٣٠].

ألقسّ دبّر. والزوجة نفّذتْ. والعمّ عضد. والنبيُّ استسلم لإرادة اللّه. على هؤلاء قامت الدعوة الجديدة فكان لها النجاح.

(١٣٠) ألمرجع السابق نفسه ٢/ ٤٥-٤٦.

خامساً – القسُّ النَّبيّ والنَّبيُّ القَسّ

نسأل: ماذا كان في نيّة القسّ أن يعلن؟ نبوّة محمّد؟ أم قسوسيّته؟ أم خلافته؟ أم ماذا؟... لقد استترت نيّة القسّ على كتّاب السِّيرة النبويّة. ولا يعود استتارها إلى سوء نيّة عندهم بقدر ما يعود إلى نقل ما وصل إليهم منحولاً بعد حوالي مائة وخمسين عاماً من بدء الرسالة وتوسّعها في معظم البلاد الأسيويّة والإفريقيّة. لقد بلغهم بعضُ ما قام به القسّ من دورٍ في نبوّة محمّد، ولكنّهم لم يحقّقوا في ما بلغهم، ولم يدركوا بالتالي نيّة القسّ، ولم يعرفوا كيف تُعلن النبوّة، ولا كيف تُنقل القسوسيّة في النّصرانيّة مِن سلفٍ إلى خلف، ولم يعلموا أنّ النبوّة لا تحتاج إلى مَن يُدافِع عنها ويقضي بصحّتها... ولو علموا كلَّ ذلك لما اضطرّوا إلى إثبات نبوّة محمّد بألف ألف دليل، والدفاع عنها بألف ألف حجّة.

ونزعاً لأي شكّ بنبوّة محمّد أرجعوا الأدلّة عليها إلى زمن آدم، فقرأوا اسمَ محمّد في السماء تحت سدرة المنتهى، وسمعوا الأحبار والرّهبان والكهنة والسحرة والجنّ والشياطين والحيوانات والأصنام والأشجار والحجارة... تعترف بنبوّته، ورأوا اسمه مكتوباً في التّوراة والإنجيل، واستطلعوا أخبارَه عند ملوك العجم والعرب... كلّ هذا كان من أجل الدفاع عن نبوّة محمّد... وهل يحتاج نبي اللّه إلى من يبرّر له نبوّته ويدافع عنها؟!

ثمّ من أين للقسِّ وَرَقة أن يعلن محمّداً نبيّاً، فيُشرك معه خديجة وأبا طالب وأبا بكر وعليّاً؟ وهل القسّ هو الذي أطلق على محمّد لقبَ نبيّ؟ أم تبدّلت الأسماء، فيما بعد، وتحرّفتِ المعاني، وتغيّرتِ النيّات، واستبدّتِ الأحداث السياسيّة بالأمور الدينيّة؟ أم ماذا؟..

لئن صحّ إعلان القسِّ نبوّةَ محمّد، يكون القسّ مخبولاً حقًّا، ويكون النبيّ، فيما صدّق من القسّ، مغروراً بدون شكّ. وحده اللّه يَختار أنبياءه، ووحدَه النبيّ يعرّف بنبوّته، ويفرضها على النّاس فرضاً، وتعاليمُه تعلن عنها، وأعماله تدعم تعاليمه! وما من نبيٍّ في التاريخ احتاج إلى الدّفاع عن نبوّته كما هي الحال مع محمّد. والحقّ يقال إنّ القرآن المكّي لا يسمّي محمّداً نبيّاً على الإطلاق؛ بل يسمّيه «بشيراً» و«نذيراً». وهو ما يؤكّد لنا، مرّةً أخرى، أنّه لا القسّ ولا النبيّ استمتعا بالنبوّة، بحسب مفهومها في العهد القديم. فماذا يكون الأمر إذن؟

في ظنّي أنّ نيّة القسّ كانت غيرَ ذلك، ووعيَ محمّد كان هو الآخر، في بدء أمره، غير ادّعاء النبوّة. والذي بدّل المقاصد والنيّات والأسماء هو «مصحف عثمان» وكتّاب السِّيرة والأخبار، والفتوحات العربيّة المتتالية لبلاد الشام والفرس والروم والقبط... وكان قصد القسّ الحقيقي، على ما يبدو، أن يُعلن محمّداً خليفتَه على جماعة مكّة النّصرانيّة! وأدلّتنا على ذلك، نردّدها فنقول: ألقسّ هو الذي اختار محمّداً وتبنّاه؛ ودبّر زواجَه من خديجة بنتِ عمّه؛ واعتكف وإيّاه في غار حراء ما يزيد على أكثر من خمس عشرة سنة؛ ودرّبه على التأمّل

والصوم والصلاة وقـراءة الكتب المقدّسة؛ وعلّمـه التوراة والإنجيل؛ ونقل له الإنجيل العبراني بلسان عربيّ مبين.

لقد كان يعي مـحمّد اختيارَه هذا، فـعرف المطلوبَ منه. وباشر مهمّتَه. فراح يُنذر النّاس ويُبشّـرهم، ويُثقّفهم، ويعلّمهم ما لا يعلمون من الكتـاب، ويبيّن لـهم «الصراط المسـتقـيم»، ويهـديهم إلى «الدِّين القَيِّم»، ويعظ فـيهم عن الحـساب والعقـاب والجنة والنّار والقيـامة، ويحرّضـهم على فعل الحسنات والصدقات، ويَقرأ عليهم ما تيسّر من قَصص الآباء وأخبار الأنبياء.

لقد كـان يعلم أنّ مـهمّتـه تقوم على أن يذكّـر الناس بتعـاليم التوراة والإنجـيل. فكان اللّه (؟) يحثّه على تذكـير النّاس، فيـقول له: «فَذَكِّرْ. إنّما أَنْتَ مُذَكِّر»[١٣١]، «وَذَكِّرْ فإنّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ المُؤْمِنِينَ»[١٣٢]، «فَـذَكِّرْ بِالقُـرْآنِ»[١٣٣]. وكـتـابه هو «ذكر»، «وذكـرى»، «وتذكـرة»، و«تفـصـيل»، و«تصـــديق» للكتـاب[١٣٤] الذي كـان بين يدي القسّ ويحضر محمّد تعريبه حول أربعين سنة.

لقـد أراد القسّ أن يكون مـحـمّد خليـفةً له على نصـارى مكّة، يكمّل عملَه الرّوحي بين العـرب، ويحافظ على استمـرارية النّصرانية في الحجـاز، ويعمل علـى جمع شمل «شـيَع» بني إسرائيـل، ويوحّد كتـبَهم وعـقيدتَهـم... فكان له ذلك بما أوتي من تجرّد وذكـاء وجرأة

---

(١٣١) سورة الغاشية ٨٨/٢١.

(١٣٢) سورة الذاريات ٥١/٥٥؛ أنظر: سورة الأعلى ٨٧/٩.

(١٣٣) سورة ق ٥٠/٤٥.

(١٣٤) أنظر مراجع هذه الألفاظ في الفصل التالي.

وإقدام. وسـاعده على إتمام مهـمّته امـرأتُه خديجة بما كـان لها من مكانة وجـاهٍ ومـال، وأعـانه أبو طالب عـمّـه الوفـيّ، ولبّى الدعـوةَ «الحُمْس» من قـريش، وناصره فـقراء مكّة و«أذلّتُهـا»، واستضـافه النجاشي ملـك الحبشـة بعدما قـاومه أصحـابُ المال و«أعزّة مكّة»... حتى أصـبح محـمّد، بعد وفـاة القسّ، «رئيس النّصـارى» المُوَحِّدين «القـانتين» الخاضـعين أي «المسلمين»، أي زعـيمـهم الرّوحي الأوّل، والمسؤول عنهم. وقد قـال «أمِرْتُ لأَنْ أكُونَ أوّلَ المُسْلِمينَ»[١٣٥]؛ وقال أيضـاً: «وإنّي أُمِـرتُ أن أكـونَ أوّلَ مَن أسلمَ»[١٣٦]. وقـال أيضـاً: " وبذلك أُمِرْتُ وأنا أوّلُ المسلمين "[١٣٧].

على هذا،

بعد وفـاة القسّ ورقة، انتـقلتِ الزّعامـة الروحيّـة إلى محـمّد، وأصبح محـمّد «أوّل المسلمين». وبوفاة القسّ خشي محمّـد أن يتركه اللّه وينسـاه، إذ «فـتَـر الوحي» مـدّةً من الزّمن تتـراوح بين السنتين والثلاث سنين، وعـاوده بعد ذلك مع كـثيرٍ من التـغيـير في المواقف، والتـبديل فـي التعليـم والتشـريع، بما يناسب شـخـصيّـةَ محـمّـد واستقلاليّتَه عن معلّمه، وبما يوافق الظروفَ المستجدّة وأحوال البيئة والمجتـمع. وأعلن القرآن عن عودة الوحي هذه بقـوّة: «مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى (أي: وما أبغضك). وَلَلآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الأُولَى»[١٣٨].

---

(١٣٥) سورة الزّمر ٣٩/١٢.

(١٣٦) سورة الأنعام ٦/١٤.

(١٣٧) سورة الأنعام ٦/١٦١...

(١٣٨) سورة الضحى ٩٣/٣-٤.

وما يؤكـدّ لنا، أيضاً، خلافـة محمّـد للقسّ هو أنّ الإسلام، في بدء أمره، وكما كـان في أيّام القسّ وتحت تأثيره، لم يكن دِيناً جديداً، ولم تكن دعـوةُ محـمّـد دعوةً إلـى دينٍ جديد؛ بل كـانت تعـاليم من التّوراة والإنجيل، وتعاليم إِبيونيّة في الحسنات والصدقات، وتبشير بالجنّة والنار والقـيامة، ووعـيد بالعـقاب، وتذكيـر بأحوال السـاعة الأخيرة، على ما عرفنا من تعاليم كثيرٍ من الشيع النصرانيّة.

ولم يكن في نيّـة مـحـمّـد، والحـال هذه، أن يُنزّل وحـيـاً من السماء، أو أن يدّعي معـرفة الغيب، بقدر ما كان يقـصد «قراءةَ» كلمةِ اللّه الأعجـميّة بلسـانٍ عربي مبـين، قراءةً مفـصّلة وميسّـرة للحفظ والذكر.

هذا هو قصد القسّ، ومهمّة النّبيّ، ومنطق الأحداث كلّها. وتلك هي مقاصد كتّاب السِّـيرة النبويّة. وبالرّغم من هذا كلّه، يريد مؤرّخو حيـاة محمّـد أن يكون الأمر غـير ذلك، ضنّاً بالنبـوّة والدِّين الجديد، فأغـفلوا، للأسف، وجودَ القسّ، وأنكروا لقاءاته المتـعدّدة مع محـمّد، وتجاهلوا إعلاناته.

فالشيخ الدكـتور صبحي الصالح لم يقرّ إلاّ بلقـاءٍ واحد جرى بين القسّ والنبـيّ. قال: «فـمـا عـسى أن يكون النبيّ تـعلّم في هذين اللّقـائين (لقـاء مع الراهب بحـيـرا وآخـر مع القس ورقـة) من علوم الغيب والـتاريخ»[١٣٩]؟. وعندما يـستشـهد الشـيخ الدكـتور بحديثِ البخاري يأخذ مـا يناسبه ويغفل ما يزعجـه، فينقل: «ولم يلبث ورقة

(١٣٩) الشيخ صبحي الصالح، مباحث في علوم القرآن، بيروت، صفحة ٤٥

أن توفي»، ويترك «وفَتَرَ الوحي»[١٤٠]. ويستنتج: أنّ محمّداً تعرّف على ورقة في آخر أيّام حياته، ورآه عجوزًا ضريراً، لا تصلح همّته لأيٍّ شيء. وكذلك هو الأمر مع محمد حسين هيكل في موسوعته «حياة محمّد»، فهو يتجاهل القسَّ ودوره، ولم يذكر من اللقاءات أو الإعلانات سوى اثنين وبطريق العرض[١٤١]...

لماذا هذا التنكّر؟ إنْ كان جهلاً فهو طعنةٌ في وقائع التّاريخ؛ وإنْ كان تجاهلاً فهو طعنة في صميم الحقيقة.

***

بقي أن نسأل عن قصّة الراهب بَحِيرَا: لماذ يجهدُ مؤرّخو حياة النبيّ في التّركيز على الرّاهب بحيرا، حتى تحوَّلت أنظار الناس إليه على حساب القسّ وَرَقة؟! يلهج النّاس باسم الرّاهب بحيرا، ويجهلون كلَّ شيء عن القسّ ورقة. فما سبب ذلك؟ وما القصد منه؟

إنّ في الأمر تضليلاً وتمويهاً للواقع: فالرّاهب بحيرا، على مكانته العظمى في النصرانيّة، وعلى كونه «انتهى إليه علم النصرانية في ذلك الزمان»، وبالرغم من تردّدِ تجّار قريش على صومعته في بصرى، لم يكن له ذلك الأثر الفعّال؛ ذلك لأنّ رحلات محمّد إليه لم تكن كافيةً للدلالة على تشقيفه على يده. ومهما يكن من أمر، فإنّ اللقاءات المحدودة التي حصلت بين محمّد وبحيرا لا تعطي النتائج

---

(١٤٠) المرجع السابق نفسه، ص ٤٥.

(١٤١) محمد حسين هيكل، حياة محمّد، القاهرة، صفحة ١٣٥-١٣٧.

التي نستطلعها في تعاليم القرآن، ولا تستحق أن يعيرها الناس أهميّة بالغة ويتوقّفوا عندها. هذا يمكن نقضه بسهولة.

وبالفعل توقّف موّرخو حياة النبي على دور الراهب فتوفّقوا في نقضه ورفضه، كما توفّقوا في التركيز على الرّاهب على حساب القسّ. وتركيزهم على الرّاهب وتحويل أنظار الناس إليه وردّهم على ما استنبطوا من أضاليل حوله أعطى أهميّة لبحيرا دون ورقة. وبهذا فُقِدَ أَثَرُ الإثنين معاً. وضاع الباحثون بين الرّاهب والقسّ. ولسهولة رفض أثرِ الراهب ظنّ الناس أنّ أَثَرَ القسِ هو أيضاً يُرفض بالسهولةِ نفسها. ونأمل أن يكون بحثنا هذا ردّ بعض الاعتبار للقسّ ورقة.



الفصل الثالث

إنجيل القسّ وقرآن النبيّ

أوّلاً - إنجيلُ القسّ وَرَقة

ثانياً - قُرآنُ النّبيّ محمّد

ثالثًا - وحدة الوحي في الإنجيل والقرآن

رابعاً - النّبيّ يُعلّـــم مَا تَعَلّـــمَ من القسّ



أوّلاً - إنجيلُ القسّ وَرَقَة

نذكّر بمهمّة القسّ ورقة التي عُرف بها ولم يُعرف بغيرها، وهي، كما جاء على لسان المحدِّثين، وفي صحيحَي مسلم والبخاري، وأغاني أبي الفرج الأصفهاني، وسيرة ابن كثير، وغيرهم[١]... إنّ القسّ ورقة كان ينقل الإنجيل العبراني من الأراميّة إلى العربيّة.

فما هو الإنجيل العبراني هذا؟ وما هي تعاليمه؟ هل من إنجيل بهذا الاسم في علوم الكتاب المقدّس؟ وهل وُجِد حقًّا في الكنيسة؟ وأيّة كنيسة؟ وأيّة شِيعة من شيَع النّصارى كانت تأخذ بتعاليمه؟ مَن يُحدّثنا عنه غيرُ القسّ ورقة؟

ألجواب عن هذه الأسئلة لا نجده عند أيٍّ مؤرّخٍ عربيّ أو مسلم، بل عند آباء الكنيسة ومؤرّخيها. فهم خير شاهد على تراث الكنيسة وكتبها. وبالفعل، فإنّنا نرى عندهم الكثيرَ من الإشارات إلى ما يسمّى في تاريخ الكنيسة بـ «الإنجيل بحسب العبرانيّين». وعلينا أن نستعرضها. وعلينا أن نقابل بين تعاليمه وتعاليم إِنجيل القسّ ورقة. فها هو المطلوب الآن.

لنبدأ بمَن ذكر «الإنجيل العبراني» من آباء الكنيسة ومؤرّخيها بحسب تسلسلهم الزمني:

---

(١) صحيح مسلم ١/٧٨-٧٩، صحيح البخاري١/٣٨-٣٩، الاغاني للأصفهاني ١/١١٤، ابن كثير، السيرة النبويّة ١/٣٨٦.

١. جاء عن أحد آباء الكنيسة المدعوّ **هجسيب**، (وهو من أوائل القرن الثاني)، «أنّه كان ينقل أشياء من الإنجيل بحسب العبرانيين، الإنجيل الأرامي الذي هو بالحرف العبراني»(٢).

٢. ويقول القديس **إيريناوس** أسقف ليون (+٢٠٨): «إنّ الإبيونيّين يستخدمون الإنجيل بحسب متّى وحده، ولكنّهم لا يعتقدون الاعتقاد الصحيح في الرّبّ»(٣).

٣. وقرأ **إكليمنضوس الإسكندري** (+٢١٦) في الإنجيل العبراني هذا قولاً منسوباً إلى المسيح، فقال: «كما هو مكتوب في الإنجيل بحسب العبرانيّين: مَن يَعجب يملكْ، ومَن يملك يستريح»(٤).

٤. أمّا **أوريجينوس** (+٢٥٢) فيذكر الإنجيل العبراني في كتبه التفسيريّة. يقول في تفسيره على إنجيل يوحنا: «مَن يَقبل الإنجيل بحسب العبرانيّين يجد فيه هذه الآية: "إنّ أُمّي الرّوح القدس خَطفني بشعرةٍ من رأسي، وأصعدني جبلَ ثبور العظيم"»(٥). ويقول أيضاً في تفسيره على إنجيل متّى: «إنّ الشاب الغني، بحسب الإنجيل العبراني، حكَّ رأسَه، ولم يرضَ بعرض المسيح له. وقال له يسوع: "كيف تقول إنّني أتممتُ الناموس والأنبياء، وأنت ترى إخوتك أبناء إبراهيم يموتون جوعاً، وتخنقهم المذلّة، وبيتُك مملوء خيرات!؟"»(٦).

---

(٢) Eusèbe, Histoire Ecclésiastique, IV, 22, 7.

(٣) Saint Irénée, Contre les Hérésies, I, 26, 2.

(٤) Clément d'Alexandrie, Stromates, II, 9, 45

(٥) Origène, Commentaire sur saint Matthieu, XV, 14.

(٦) Origène, Commentaire sur saint Jean, II, 12.

٥. وأمّا أوسابيوس القيصري (+ ٣٤٠)، الملقّب بأبي التاريخ الكنسي، وهيرودوت المسيحيّة، فيشهد على أنّ «الإنجيل بحسب العبرانيين هو الأصحّ في نظر العبرانيّين الّذين آمنوا بالمسيح»(٧). ويقول عن الإبيونيّين إنّهم «كانوا يَستخدمون فقط الإنجيل المسمّى بحسب العبرانيّين، وقلّما يكترثون بغيره»(٨). ويقول عن عقيدتهم: «إنّهم كانوا يحفظون السبت وسائر العادات اليهوديّة ويغارون على إقامة أحكام التّوراة، ويعتبرون أنّ الخلاص يقوم، لا على الايمان بالمسيح وحده، بل على إقامة شريعة موسى أيضاً»(٩). ويقول في مكان آخر: «إنّ المسيحَ ذكر الشّقاق الذي ستتعرّض له النفوس في العائلات، كما نجده في الإنجيل بحسب العبرانيّين»(١٠).

٦. أمّا إبّيفانوس أسقف قبرص (+٤٠٣) فيستفيض في الكلام على الإبيونيّين وإنجيلهم العبراني، كما على تعداد معظم الشِّيَع المسيحيّة والنّصرانيّة في العصور الأربعة الأولى للكنيسة. يقول عن الإبيونيّين، مثلاً: «إنّهم يأخذون بإنجيل متّى، ويعتمدون عليه وحدَه دون سواه، ويُسمّونه الإنجيل بحسب العبرانيين. وأنجيل متّى هذا، الذي بحوزتهم، ليس كامِلاً؛ بل هو محرَّفٌ وناقص»(١١). وكلام إبيفانوس هذا ترداد وتوضيح لكلام إيريناوس الذي ذكرناه آنفاً.

---

(٧) Eusèbe, Histoire Ecclésiastique, III, 25, 5.

(٨) المرجع نفسه .III, 27, 4

(٩) Eusèbe, H.E., III, 27, 6.

(١٠) Eusèbe, Théophanie, IV,12...

(١١) Epiphane, Panarion, XXX, 3.

٧. ويذكر **القديس جيروم** (+٤٢٠) الإنجيل العبراني في جملة كتب: في تفسيره لأشعيا(١٢)، وتفسيره لحزقيال(١٣)، وتفسيره لأفسس(١٤)، وتفسيره لمتّى(١٥)، وفي حواره مع البلاجيّين حيث يقول: «في الإنجيل بحسب العبرانيّين الذي يستخدمه النّصارى أيضاً، والموضوع في الأراميّة... وهو قريب المشابهة بأنجيل متّى، محفوظ في مكتبة قيصريّة»(١٦)، وفي كتابه مشاهير الرجال يقول: «إنّ الإنجيل المسمّى بحسب العبرانيّين، الذي نقلتُه حديثاً إلى اليونانيّة واللاّتينيّة، والذي استخدمَه أوريجينوس، يقول: "إنّ يعقوب حلَفَ بألاّ يأكلَ خبزاً منذ السّاعة التي شرب فيها كأسَ الربّ إلى الوقت الذي رآه يقوم من بين الأموات. وقال له الربّ: خذ المائدة والخبز. وأضاف: كُلْ خبزَكَ، لأنّ ابن الإنسان قام من بين الأموات"»(١٧).

وغير هذه الشهادات كثير تجدها في مقالة الأب «لاغْرَانْج»، مؤسّس المدرسة البيبليّة في أورشليم، في «المجلّة الكتابيّة»(١٨)، وهو يحقّق في أصل «الإنجيل بحسب العبرانيين»، وفي تعاليمه، وصحّة نسبته إلى الإبيونيّين.

***

---

(١٢) Saint Jérôme, Commentaire sur Isaïe, XI, 2.

(١٣) Saint Jérôme, Commmentaire sur Ezéchiel, XVIII, 7.

(١٤) Saint Jérôme, Commentaire sur Ephésiens, V, 3, 4.

(١٥) Saint Jérôme, Commentaire sur Matthieu, XII, 13.

(١٦) Saint Jérôme, Dialogue contre les Pélagiens, 3, 2.

(١٧) Saint Jérôme, De Viris Illustribus, II.

(١٨) M.J. Lagrange, L'Evangile selon les Hébreux, Revue Biblique, 2 (1922), p. 161-181; 3 (1922), p. 322-349. Voir S.D.B., Apocryphes, 470-475..

يتّضح لنا من شهادات الآباء والمؤرّخين أنّ الإنجيل العبراني كان واسع الانتشار: لقد وجد واتُّخِذ بتعاليمه في أنطاكيا، والإسكندريّة، وحلب، وآسيا الصغرى، وليون، وقبرص، وروما؛ وربّما في مكّة أيضاً.

ويبدو أيضاً أنّه تُرجم إلى لغات عديدة: لقد وضع، أصلاً، في اللّغة الأراميّة، ثمّ نُقل إلى اليونانيّة، ثمّ إلى اللاّتينيّة؛ وربّما إلى العربيّة أيضاً.

وجال في عصور متتالية، منذ القرن الثاني حتّى أوائل القرن السابع؛ وربّما إلى يومنا هذا أيضاً في ترجمته العربيّة.

وكثر الكلام عليه عند معظم آباء الكنيسة ومؤرّخيها؛ واعتمد عليه الإبيونيّون، بنوعٍ خاصّ. وسُمِّي، تارة، «إنجيل النّصارى»، وطوراً «إنجيل الرّسل الإثنَي عشر»؛ وربّما أيضاً «إنجيل العرب»؛ وقد كان أيضاً بين يدَي «الحُمْس» من قريش، العاكفين المتحنّفين في الكعبة وغار حراء.

ومن المحتّم القول بأنّ وجود الإبيونيّين في مكّة وقريش يفرض وجود الإنجيل بحسب العبرانيّين؛ أو أيضاً: وجود الإنجيل العبراني في مكّة وقريش يفرض وجود الإبيونيّين. وما يشير إلى ذلك، ويؤكّده، إعتماد القرآن على تعاليم هذا الإنجيل في موضوعاتٍ عدّة، نعدّدها ونبيّنها في الفصل الأخير؛ وبنوعٍ خاصّ موضوعات في المسيح عيسى، وأمّه، والرّوح القدس، والحسنات والصدقات، وأحوال المعاد الأخير، وغيرها.. هذه الموضوعات هي نفسها في

«القـرآن العـربي» وفي «الإنجـيل الـعـبـراني»؛ وهـي نفـسـهـا عند «الحُمْس» من قريش وعند «الإبيونيّين» من النصارى(١٩).

أمّا طريقة الترجمة التي قـام بها القسّ ورقة للإنجيل العبراني من الأراميّـة إلى العربيّة، فلا تعني ترجـمةً حرفيّـةً ودقيقةً، كـما هو الحال اليوم؛ بل كانتْ، في الحـقيقة، كما يقول القـرآن العربي نفسه: «تفصيـلاً»، و«تصريفاً»، و«تيـسيراً»، و«تذكيراً»، و«تـصديقاً»(٢٠)... هذه الطريقة كـانت متّبعـة في القديم، في الأوساط النصـرانيّة، وفي الكتب المقدّسة نفسها. وللدلالة على ذلك «يكفي أن نقابل بين متّى ٤/ ١٥ وأشعيا ٨/٢٣– ٩/١؛ ومتّى ١٢/١٧ وأشعيا ٤٢/١–٤»(٢١).

وهذه الطريقة في التـرجمة هي «أقرب إلى التفـسير اللاّهوتي والدفاعي منـها إلى الترجـمة بالمعنى الصـحيح»(٢٢). إنّها، بلا ريب، طريقـة المترجـمين الأقـدمين، كـما هي طريقـة القسّ ورقـة في نقله

---

(١٩) يوجز جواد علي عـقيدة الإبيونيّين بقـوله: «يعتقدون بوجود اللّه الواحد، خالق الكون. وينكرون رأي بولـس الرّسول في المسـيح. ويحـافظون على حـرمـة يوم السبت وحرمة يوم الرب... ويعتقد أكثـرهم أنّ المسيح بشرٌ مثلنا، امتاز على غيره بالنبـوّة، وبأنه رسول اللّه... وهو نبيٌ كـبقيّـة مَن سبـقه من الأنبيـاء المرسَلين... وبعضـهم أنكر الصلب المعـروف، وذهب إلى أنّ مَن صُلب كان غـير المسـيح، وقد شُبّه على مَن صلبه، فظـنّ أنّه المسيح حقًا. ورجعوا إلى أنجيل مـتّى بالعبرانيّة...» (المفصّل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ٦/ ٦٣٥).

(٢٠) سنرى معنى هذه الألفاظ فيما يلي.

(٢١) J. Daniélou, Théol. du Judéo-Christianisme, p. 103. Voir TOB., note (r) sur Mt. 4, 15; et note (r) sur Mt. 12, 17.

(٢٢) Kilpatrick, The Origin of the Gospel according to Matthew, Oxford, 1946, p. 56.

الإنجيل بحسب العبرانيّين من الآراميّة إلى العربيّة. «ولقد كان هناك مدرستان للترجمة، أو نوعان من المدارس التفسيريّة: المدرسة الحرفيّة Midrachim darchani تتّبع آيات التّوراة آيةً فآية، والمدرسة التفصيليّة Midrachim parchani تتّبع المعنى الموجود في مقاطع الكتاب»[٢٣].

بقي علينا أن نعرف شيئاً عن الترجمة العربيّة نفسها. لكنّ هذا رهن بفرصة يوّفرها لنا التاريخ، فيتاح للمنقّبين في آثار مكة وتحت رمالها اكتشاف تلك الترجمة الثمينة. وما دام ذلك مستحيلاً، يبقى لنا تحسّر عليها إلى الأبد. ومع هذا يفيدنا النظر في الأثر العظيم الذي خلّفه القسّ ورقة والنّبيّ محمّد. وقد يكون القرآن العربي هو هذا الأثر.

ولكن، لنرى، قبل ذلك، ما في القرآن العربي من شهاداتٍ يشهد بها على نفسه، إذ يقول هو نفسُه عن نفسه، بأنّه «قراءة»، «عربيّة»، «مصدِّقة»، «مفصّلة»، و«ميسَّرة» لكتابٍ أعجميّ. فلننظر.

(٢٣) V. Manns, Essais sur le judéo-christianisme, jérusalem, p. 74

ثانياً - قرآن النّبيّ محمّد

لم يكن محمّد يدري ما الكتاب وما الإيمان لولا وجود مَن يَهديه إليهما ليضعه على الطريق القويم: «مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الكِتَابُ وَلا الإِيْمَانُ... وَإِنَّكَ لَتُهْدَى إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ»[٢٤]. ولم يكن يعرف ما في الكتاب من علم لولا وجود معلّم يعلّمه ما لم يكن يعلم: «وَأَنْزَلَ اللّهُ عَلَيكَ الكِتَابَ وَالحِكْمَةَ، وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ»[٢٥]. ويوم يشكّ محمّد بما يَعلم، عليه أن يسألَ مَن عنده علم الكتاب[٢٦]. وعليه، فإنّ حقيقة كتاب محمّد تأتي من حقيقة نسبته إلى كتابٍ سابقٍ، وإنّ علْم محمّد هو علم لكتابٍ سابق. وقد يكون قرآن محمد هو أيضاً قراءة لهذا الكتاب السابق. فلننظر في القرآن العربي نفسه، فشهادته خير شهادة[٢٧].

١ - ألقرآن هو «قراءة» للكتاب الأعجمي

ألقرآن، لغةً، يعني قراءة. وهو مصدر آرامي للفعل الثلاثي المعتلّ الأخير: «قْرُو، نِقْرِى، قِرْيُونُو». ويعني: «قراءة» أو «تلاوة»

---

(٢٤) سورة الشورى ٤٢/٥٢.

(٢٥) سورة النساء ٤/١١٣.

(٢٦) سورة يونس ١٠/٩٤.

(٢٧) ألمقصود في هذا الفصل ليس إظهار التقارب بين الإنجيل العبراني والقرآن العربي من حيث المضمون، وهو ما سنراه مفصّلاً في الفصل الأخير؛ بل من حيث التعابير التي يستعملها القرآن العربي.

لنصٍّ مكتوب. وقد ورد معرَّفاً بالألف واللاّم ٥٨ مرّة، وفي صيغة النكرة ١٢ مرّة. والجدير بالذّكر أنّ صفة «عربي» تتبع صيغة النكرة. وليس من ذكرٍ للفظة «عربيّ» إلاّ وهي صفة للغة القرآن. والقرآن، في ترجمته العربيّة، كما في أصله غيرِ العربي، هو وَحيٌ وهُدىً وشفاء: «أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ! قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاء»[٢٨].

إلاّ أنّه «جُعِل» بلسانٍ عربيٍّ ليعقله العرب: «إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ»[٢٩]؛ أو: «وَإِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ. وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الكِتَابِ لَدَينَا»[٣٠]، أي: إنّ القرآن، في صيغته العربيّة، موجود في الكتاب الأصل. هذا القرآن، «كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآناً عَرَبِيًّا لِقَومٍ يَعْلَمُونَ»[٣١]، أي: ليتبيّن المؤمنون تفاصيله، ويعلموا مضمونه، ويتعرّفوا على أخباره وقَصصه: «نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيكَ أَحْسَنَ القَصَصِ بِمَا أَوحَينَا إِلَيكَ هَذَا القُرْآنَ»[٣٢]، ويهتدوا به. وهو في لغته العربيّة، مصانٌ، كما في لغته الأصليّة، مِن كلِّ عِوَج وضَلال: «وَقُرْآناً عَرَبِيّاً غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ»[٣٣].

«جُعِلَ» في اللغة العربيّة ليتمكّن محمّد من قراءته وحدَه دون الاتّكال على سواه: «إِقْرَأْ كِتَابَك. كَفَى بِنَفْسِكَ اليَومَ عَلَيكَ حَسِيباً»[٣٤]،

---

(٢٨) سورة فصّلت ٤١/٤٤.

(٢٩) سورة يوسف ١٢/٢.

(٣٠) سورة الزخرف ٤٣/٣-٤.

(٣١) سورة فصّلت ٤١/٣.

(٣٢) سورة يوسف ١٢/٣.

(٣٣) سورة الزّمر ٣٩/٢٨.

(٣٤) سورة الإسراء ١٧/١٤؛ قد يكون المقصود "كتابَ الأعمال" الذي سيحاسب

وليتمكّن أيضاً من أن يبشّر به مكّةَ وسائر القُرى وينذرها ويبلّغها رسالةَ ربّه: «أَوْحَينا إِلَيكَ قُرْآناً عَرَبِيّاً لِتُنْذِرَ أُمَّ القُرَى وَمَنْ حَولَهَا»[٣٥]. ولو حصل العرب عليه بلغته الأعجميّة لما أدركوا تفاصيله وأخباره، ولكانوا تمنَّوا أنْ يُنقل إليهم بلغتهم: «وَلَو جَعَلْنَاهُ قُرْآناً أَعْجَمِيّاً لَقَالُوا: لَولا فُصِّلَتْ آيَاتُه!»[٣٦]؛ وبالعكس أيضاً: لو حصل عليه الأعجميّون بلغة عربيّة لما آمنوا به: «وَلَو نَزَّلْنَاهُ عَلَى بَعْضِ الأَعْجَمِيِّينَ فَقَرَأَهُ عَلَيهِمْ مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ»[٣٧].

نستنتج ونقول: إنّ قرآنَ النّبيّ محمّد هو قراءة عربيّة لإنجيل القسّ ورقة، لا أكثر ولا أقلّ. كُتبَ بلسانٍ عربيٍّ مُبين ليعقله العرب ويؤمنوا بها.

٢ - ... قراءة عربيّة «مفصّلة» للكتاب الأعجمي

«ألتفصيل»، بحسب مفهوم القرآن، يعني أمرين:

ألأمر الأوّل يعني «تعريباً» ونقلاً من لغةٍ إلى لغة، ليدرك المؤمنون مضمونَه ويعملوا بموجبه. وقد تمنّى المكّيون أن يُعَرَّبَ لهم الكتاب، فلبّى محمّد (؟) أمنيّتهم بحسب قوله: «وَلَو جَعَلْنَاهُ قُرْآناً أَعْجَمِيّاً (كما هو عليه الإنجيل العبراني) لَقَالُوا: لَولاَ **فُصِّلَتْ** آيَاتُه!»[٣٨]، أي لولا ترجمتْ آياته إلى لغتهم! وأكّد لهم أنّ الكتاب

عليه النّبيّ في اليوم الأخير. في كلّ حال، كتابٌ لا بدّ من «قراءته».

(٣٥) سورة الشورى ٤٢/٧.

(٣٦) سورة فصّلت ٤١/٤٤.

(٣٧) سورة الشعراء ٢٦/١٩٨-١٩٩.

(٣٨) سورة فصّلت ٤١/٤٤.

الأعجمي نُقلَ إلى لسانهم العربيّ بواسطة خبيرٍ حكيم: «كِتَابٌ **فُصِّلَتْ** آيَاتُه قُرْآنَاً عَـرَبِيّاً»[٣٩]، «كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمّ **فُصِّلَتْ** مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ»[٤٠].

والأمر الثـاني يعني تفريقَ آيات الكـتاب، وتبويبَـها، وجـعلَها فصــلاً فصلاً، وسورةً ســورة، واعطاءها للناس بحسب المناســبات، ومن أجل حفظها بســهولة، وتذكّرها بيسرٍ وسرعة. وقــد ردّد محمد (؟) قصدَه هذا، فقال: «وَكَذَلِكَ **نُفَصِّلُ** الآيَاتِ لِقَومٍ يَعْلَمُونَ»[٤١]، «وَهُوَ الّذِي أَنْزَلَ إِلَيكُمُ الكِتَابُ **مُفَـصَّلاً**»[٤٢]، و«لَقَدْ جِـئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ **فَصَّلْنَاهُ** عَلَى عِلْمٍ»[٤٣]، و«قَدْ **فَـصَّلْنَا** الآيَاتِ لِقَـومٍ يَذَّكَّرُونَ»[٤٤]، و«كُلَّ شَيءٍ **فَصَّلْنَاهُ** تَفْصِيلاً»[٤٥].

كلا الأمرين يعني أنّ الـكتاب العربي **«تصرّف»** بآيات الكتاب العـبـراني تيـسـيـراً للذكـر. قـال: «وَلَقَـدْ **صَـرَّفْنَا** فِي هَذَا القُـرْآنِ لِيَذَّكَّرُوا»[٤٦]؛ وقال أيضاً: «وَلَقَدْ **صَرَّفْنَا** لِلنَّاسِ فِي هَذَا القُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ»[٤٧]؛ ويردّد: «وَأَنْزَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً وَ**صَرَّفْنَا** فِيهِ»[٤٨].

---

(٣٩) سورة فصّلت ٤١/٣.

(٤٠) سورة هود ١١/١.

(٤١) س. الأعراف ٧/٣٢؛ التوبة ٩/١١؛ الروم ٣٠/٢٨؛ يونس ١٠/٥.

(٤٢) سورة الأنعام ٦/١١٤.

(٤٣) سورة الأعراف ٧/٥٢.

(٤٤) سورة الأنعام ٦/١٢٦.

(٤٥) سورة الإسراء ١٧/١٢.

(٤٦) سورة الإسراء ١٧/٤١.

(٤٧) سورة الإسراء ١٧/٨٩؛ أنظر: سورة الكهف ١٨/٥٤.

نستنتج ونقول: إنّ القرآن العربي هو «**تَفْصِيلُ** الكِتَابِ (الأعجمي) لا رَيْبَ فِيهِ»[٤٩].

٣ - ... وقراءة «مُصَدِّقَة» للكتاب الأعجمي

لئن «تصرّف» القرآن العربي و«فصّل» آياتِ الكتاب الأعجمي، بحسب مقتضى الظروف والمناسبات، فإنّه يبقى، في مطلق الأحوال، «**مُصَدِّقاً**» للكتابِ الأصل. ولئن غيّر «التعريب» و«التفصيلُ» و«التصريف» فيه بعضَ الشيء فإنّ تعليمَه يبقى أيضاً «**مُصَدِّقاً**» لتعليم الكتاب الأصل. وقد ردّد محمد (؟) هاجسَه هذا مراراً، ليبرهن للنّاس صدقَ ما يُنقل إليهم من «الكتاب الذي بين يديه»، وليشهد لهم أنّ كتابَه العربي إنّما هو بالفعل «**تَصْدِيقٌ**» للكتاب العبراني، وهو «الحَقُّ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيهِ»[٥٠]. فلنسمع، ولو كان في ما نسمع ترداد وتكرار. قال:

«وَمِنْ قَبْلِه (أي القرآن) كتابُ موسَى إمَاماً ورَحمَةً. وهَذَا (القرآن) كِتَابٌ **مُصَدِّقٌ** لِسَاناً عَرَبِيّاً»[٥١]؛ «وَهَذَا (القرآن) كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ **وَمُصَدِّقُ** الّذِي بَيْنَ يَدَيهِ (أي قبله من الكتب)»[٥٢]، و«نَزَّلَ عَلَيكَ الكِتَابَ بِالحَقِّ **مُصَدِّقاً** لِمَا بَينَ يَدَيهِ»[٥٣]، «إنّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإذْنِ اللّهِ

---

(٤٨) س. طه ٢٠/١١٣؛ الأحقاف ٤٦/٢٧؛ الأنعام ٦/٤٦ و٦٥ و١٠٥؛ ٧/٥٨.

(٤٩) سورة يونس ١٠/٣٧.

(٥٠) سورة آل عمران ٣/٣.

(٥١) سورة الأحقاف ٤٦/١٢.

(٥٢) سورة الأنعام ٦/٩٢.

(٥٣) سورة آل عمران ٣/٣.

مُـصَدِّقـاً لِمَا بَينَ يَدَيهِ»[٥٤]، «وَالّذي أَوحَـينَا إِليكَ مِنَ الكِتَـابِ هُوَ الحَقُّ مُصَدِّقاً لِمَا بَينَ يَديهِ»[٥٥]، «وَمُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ»[٥٦].

والسامـعون يَعـرفون ذلك تمام المعـرفة، وبنوع خـاص، أهلُ الكتاب. هؤلاء: «لَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ... كَفَرُوا بِهِ»[٥٧]، و«يَا أَيُّهَـا الّذينَ أُوتُوا الكِـتَابَ! آمِنُـوا بِمَا نَزَّلْنَا (من القـرآن) مُصَدِّقاً لِمَا مَعَكُمْ (من التوراة)»[٥٨]، «وَإِذا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللّهُ (القرآن)، قَالُوا: نُؤْمِنُ بِمَا أُنْزِلَ عَلَينَا (أي التوراة. قال:) وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ، وَهُوَ (أي القرآن) الحَقُّ مُصَدِّقاً لِمَا مَعَهُم»[٥٩].

نستنتج: إنّ بعض التّـوراة والإنجيل كان بين يدي محـمّد (؟)، يفصّلها بالحقّ، ويتـصرّف بها لتيسير الذكـر، وينقلها بالصّدق. ولم يكن هذا القرآن العربي، بالنتيجة، «حَدِيثًا يُفْتَرَى، وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذي بَيْنَ يَدِيْهِ، وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ، وَهُدًى، وَرَحْمَةً لِقَومٍ يُؤْمِنُونَ»[٦٠].

٤ – ... وقراءة «ميسّرة» للكتاب الأعجمي

من مميّـزات القراءة العـربيّة لـلكتاب الأعـجمـي أنّها قـراءة **«ميسّرة»**، أي أنّها تُدْرَكُ بسهـولة، وتُفهم بسـهولة، وتُحـفظ بسـهولة.

---

(٥٤) سورة البقرة ٢/ ٩٧.

(٥٥) سورة فاطر ٣٥/ ٣١.

(٥٦) سورة آل عمران ٣/ ٥٠؛

(٥٧) سورة البقرة ٢/ ٨٩.

(٥٨) سورة النساء ٤/ ٤٧.

(٥٩) سورة البقرة ٢/ ٩١.

(٦٠) سورة يوسف ١٢/ ١١١.

وهي ميسّرة لمحمّد ولجماعته بلسانٍ عربيٍّ مُبين: يسّرها الله لمحمّد، ليقوم برسالته على أكمل وجه؛ ويسّرها لجماعته، لتعقِلها، وتحفظها، وترتّلها ترتيلاً. وهذا قصد محمّد (؟) وقد أعلنه مراراً. فلنسمع، ولو في السمع تكرار وملل:

«وَقَدْ **يَسَّرْنَا** الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ (أي: سهّلناه للحفظ) فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ (متّعظٍ به وحافظ له؟)»[٦١]، «فَإِنَّمَا **يَسَّرْنَاهُ** بِلِسَانِكَ (لتفهمه العربُ منك) لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ؟»[٦٢]، «فَإِنَّمَا **يَسَّرْنَاهُ** بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ (من العرب) وَتُنْذِرَ بِهِ قَوماً لُدّا»[٦٣]؛ وعلى المتّقين من العرب أن يقرأوا ما تيسّر لهم من الآيات، فلذلك كان يدعوهم باستمرار، ويقول: «فَاقْرَأُوا مَا **تَيَسَّرَ** مِنَ الْقُرْآنِ... فَاقْرَأُوا مَا **تَيَسَّرَ** مِنْهُ»[٦٤].

وقد يساعد الترتيل على تيسير القرآن فيكون أسهلَ حِفظاً وأقربَ منالاً وأيسرَ تذكّراً، فطلب الله (؟) من نبيّه أن يقوم بالترتيل: «رَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً»[٦٥]، «وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً»[٦٦]، أي: بحسب تفسير الجلالَين: "أتينا به شيئاً بعد شيء بتمهّلٍ وتؤدة لتيسير فهمه وحفظه". وطلب اللهُ (؟) أيضاً من محمّد أن يقوم بتلاوة الآيات ليعرف الذين عندهم الكتاب–الأصل، إذا ما تُلي عليهم القرآنُ العربي،

---

(٦١) سورة القمر ٥٤/١٧ و٢٢ و٣٢ و٤٠

(٦٢) سورة الدّخان ٤٤/٥٨.

(٦٣) سورة مريم ١٩/٩٧.

(٦٤) سورة المزمّل ٧٣/٢٠.

(٦٥) سورة المزمّل ٧٣/٤؛ سورة الفرقان ٢٥/٣٢.

(٦٦) سورة الفرقان ٢٥/٣٢.

أنّه من عند اللّه، فيخرّون ساجدين: «وَالَّذِينَ أُوتُوا العِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ، إِذْ يُتْلَى عَلَيهِمْ، يَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ سُجَّداً. وَيَقُولُونَ: سُبْحَانَ رَبِّنَا»(٦٧).

إنّ فضل القرآن العربي على الكتاب الأعجمي أنّه أصبح مُيَسَّراً بلسانٍ عربيٍّ مُبين، يفهمه العرب، ويحفظونه بسهولة. ولا غرابة في الأمر، فاللّهُ لا يرسل رسولاً إلاّ بلسانِ قومه ليتبيّنَ لهم الحقُّ واضحاً: «وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلاّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ»(٦٨).

نستنتج ونقول: إنّ محمّدًا، أو اللّهُ، أو القسّ ورقة (؟) رغب في أن يكونَ للعرب كتابٌ بلسانهم ليتبيّنوا تعاليمه، ويؤمنوا بآياته، وبذلك تزول الحجّة عنهم عندما يتيسّر لهم بلسانهم كلُّ شيء.

٥ – ... ألقرآن العربي «تذكرة» للكتاب الأعجمي

«ألتذكرة»، بحسب مفهوم القرآن، تعني أمرين:

ألأوّل يعني **خُلاصَةَ** أخبار النّبيّين السّابقين وقَصصهم وتعاليمهم وأمثالهم. نقول: لم يكن همّ محمّد (؟) أن ينقل إلى المتّقين من العرب الذين استجابوا دعوته كلَّ أسفار العهدَين القديم والجديد، بل بعضاً منها، ممّا يناسب حالَهم وعقيدَتهم ومقدرتهم. وأكّد ذلك بقوله المتكرّر: «كَلاَّ إِنَّهُ تَذْكِرَةٌ»(٦٩)، و«كَلاّ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ»(٧٠)، و«إِنَّهُ لَتَذْكِرَةٌ لِلمُتَّقِينَ»(٧١).

---

(٦٧) سورة الإسراء ١٧/١٠٧–١٠٨.

(٦٨) سورة إبراهيم ١٤/٤.

(٦٩) سورة المدثر ٧٤/٥٤.

(٧٠) سورة عَبس ٨٠/١١.

(٧١) سورة الحاقة ٦٩/٤٨.

أمّا الذين أُوتوا العلم والراسخون فيه فليسوا بحاجة إلى «تذكرة» لأنّهم يعرفون كلَّ الكتاب بآياته المُحْكَمَاتِ كما بآياته المُتَشَابِهَات[٧٢]؛ في حين أنّه «تذكرة»، أو «مختصر»، أو أيضاً «خلاصة» كافية للعرب ليكونوا على الصراط المستقيم: «إنّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ. فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إلَى رَبِّهِ سَبِيلاً»[٧٣]؛ لأنّ العرب لم يأتوا «مِنَ العِلْمِ إلاّ قَلِيلاً»[٧٤]، و«لا يُؤْمِنُونَ إلاّ قَلِيلاً»[٧٥]؛ كما «لا يَذْكُرُونَ اللّهَ إلاّ قَلِيلاً»[٧٦]. ولبساطته وسهولة تعاليمه وقَصصِهِ حَفظَهُ النبيّ دون تعبٍ وعناء: «مَا أَنْزَلْنَا عَلَيكَ القُرآنَ لِتَشْقَى. إلاّ (أي: لكن أنزلناه) تَذْكِرَةً لِمَنْ يَخْشَى»[٧٧].

ينتج عن هذا المعنى أنّ القرآن العربي هو **ملّخص** سهل، أو **خلاصة** كافية، للتذكير بالتوراة والإنجيل. وقد أعطيت هذه الخلاصة للعرب قَصدَ التخفيفِ عنهم: «وَذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ»[٧٨]. والمقصود هو هذا التخفيف: «يُرِيدُ اللّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ»[٧٩]، «أَلآنَ خَفَّفَ اللّهُ عَنْكُمْ، وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفاً»[٨٠].

---

(٧٢) إشارةً إلى ما جاء في سورة آل عمران ٣/٧.

(٧٣) سورة المزمّل ٧٣/١٩.

(٧٤) سورة الإسراء ١٧/٨٥.

(٧٥) سورة البقرة ٢/٨٨؛ سورة النّساء ٤/٤٦ و١٥٥.

(٧٦) س. النساء ٤/١٤٢؛ الأعراف ٧/٣؛ النمل ٢٧/٦٢؛ غافر ٤٠/٥٨.

(٧٧) سورة طه ٢٠/٢-٣.

(٧٨) سورة البقرة ٢/١٧٨.

(٧٩) سورة النساء ٤/٢٨.

(٨٠) سورة الأنفال ٨/٦٦.

والأمر الثّاني يعني «تَذْكِيرًا» بما ورد في التوراة والإنجيل. وعليه يقوم دور محمّد على أن يذكّر الناس بأنبياء اللّه السابقين وتعاليمهم: «ذَكِّرْ. إنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ»[٨١]. وراح محمّد يذكّر بأنبياء التوراة والآباء الأقدمين: «وَاذْكُرْ فِي الكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ»[٨٢]؛ «وَاذكر في الكتاب مُوسَى»[٨٣]؛ «واذكر في الكتاب إسْمَعِيلَ»[٨٤]؛ «واذكر في الكتاب إِدْرِيسَ»[٨٥]؛ «وَاذْكُرْ عَبدَنَا أَيّوب»[٨٦]؛ «واذكر عِبادنا إبراهيم وإسحق ويعقوب»[٨٧]؛ «واذكر إسمعيل وأليسع وذا الكِفْلِ»[٨٨]؛ «واذكُر أخا عَاد»[٨٩]؛ «واذكُر في الكتاب مَريم»[٩٠]... أُذكُرْ وذَكِّرْ يا محمّد... لعلّ الذكرى تنفع: «ذكّر. فإنَّ الذِّكرَى تَنْفَعُ المؤمنين»[٩١]. وغلب على القرآن العربي اسم: «الذكر الحكيم»[٩٢]. وكم كان يعاتب محمّد الّذين لا يذكرون، فيعاتبهم باستمرار: «أفلا تتذكّرون؟»[٩٣].

---

(٨١) سورة الغاشية ٨٨/ ٢١.

(٨٢) سورة مريم ١٩/ ٤٠.

(٨٣) سورة مريم ١٩/ ٥١.

(٨٤) سورة مريم ١٩/ ٥٤.

(٨٥) سورة مريم ١٩/ ٥٦.

(٨٦) سورة ص ٣٨/ ٤١.

(٨٧) سورة ص ٣٨/ ٤٥.

(٨٨) سورة ص ٣٨/ ٤٨.

(٨٩) سورة الأحقاف ٤٦/ ٢١.

(٩٠) سورة مريم ١٩/ ١٦.

(٩١) سورة الذاريات ٥١/ ٥٥.

(٩٢) وردت لفظة «ذكر» بمعنى القرآن للدلالة عليه أكثر من ٦٠ مرّة.

(٩٣) سورة الأنعام ٦/ ٨٠؛ سورة السجدة ٣٢/ ٤... وغيرها.

ألحقيقة تقضي بأن نقول: إنّ محمّداً لم يكن يعرف أيّة لغة أجنبيّة. وأظنّ المسلمين يقبلون ذلك من دون صعوبة؛ لأنّهم يذهبون إلى أبعد من ذلك، فيقولون إنّ محمّداً يجهل حتّى القراءة والكتابة. هذا يعني أنّ محمّداً ليس هو الذي «فَصَّلَ» الكتاب الأعجمي؛ وليس هو الذي «بَيَّنَ» آياته؛ وليس هو الذي «يَسَّرَهُ» بلسانٍ عربيٍّ مبين... بل جلّ ما كان لمحمد أن يصنعه هو أن يكون للعرب نذيراً وبشيراً، وللكتابِ مُبلِّغاً. وهذا هو الذي أكّد عليه القرآن وردّد: «وَمَا أَرْسَلْنَاكَ (يا محمّد) إلاّ بَشِيراً وَنَذِيراً»[٩٤].

ومع هذا، لا نزال نسأل: أين هو هذا الكتاب السابق الذي اعتمده القسّ والنبي؟ ونحن نعلم أنّ هناك كتباً كثيرة في التوراة وحول التوراة، منها ما هو رسمي ومنها ما هو منحول. ونعلم أيضاً أنّ نسخاً كثيرة من الإنجيل وعن الإنجيل، منها ما هو رسمي ومنها ما هو منحول... إلاّ أنّ القرآن العربي يذكر «الإنجيل» كأنّه واحد لا غير، يذكره معرّفاً بالألف واللام أثنتي عشرة مرّة[٩٥]، وأنّ كتب السيرة تذكره أيضاً بين يدي القسّ ورقة، وتسمّيه «إنجيل العبرانيين»، والقرآن العربي يأخذ مجمل تعاليمه منه...

---

(٩٤) سورة الفرقان ٢٥/٥٦؛ س. سبأ ٣٤/٢٨؛ س. الإسراء ١٧/١٠٥؛ س. البقرة ٢/١١٩؛ س. الأحزاب ٣٣/٤٥؛ س. فاطر ٣٥/٢٤؛ س. الفتح ٤٨/٨؛ س. المائدة ٥/٦٧؛ س. النحل ١٦/٣٥؛ وأيضاً: ٥/٩٢ و٩٩؛ ١٣/٤٠؛ ٢٤/٥٤؛ ٢٩/١٨؛ ٣٦/١٧؛ ٤٢/٤٨؛ ٦٤/١٢ وغيرها...

(٩٥) سورة آل عمران ٣/٣ و٤٨ و٦٥؛ ٥/٤٦ و٤٧ و٦٦ و٦٨ و١٠٠؛ ٧/١٥٧؛ ٩/١١١؛ ٤٨/٢٩؛ ٥٧/٢٧.

ولكنّنا نجد في القرآن العربي ما لا نجده في الإنجيل العبراني!
فما الحجّة إذاً؟ ألحقيقة أنّنا نخطأ في الجزم إنْ قلنا إنّ قسّ مكة كان يعتمد الإنجيل العبراني وحسب، من دون التوراة وبعض الأناجيل، والتعاليم النصرانيّة المعتمِدة على التقليد الشفهي والتراث الكنسي العام. ألواقع أنّ القرآن جمع معلومات كثيرة، ومن مصادر عديدة. ولا بدّ لنا من التريّث إلى أن تنجلي الحقيقة كاملة؛ لأنّ الشِّيَع النصرانيّة في مكّة تتعدّى، في تعاليمها، الإنجيلَ، فتأخذ الكثيرَ من التّوراة، والمزامير، والتلمود، والتقاليد الشفهيّة، وغير ذلك...

ثالثاً - وَحدة الوحي في الإنجيل والقرآن

ليس في مسيرة اللّه، عَبر التّاريخ، فراغ. إنّ اللّهَ يستمرّ في الخلق ومتابعة الأحداث، فلا يتخلّى عن خَلقه أبداً. لكنّ الإنسان يريد من اللّه خلاصاً. والخلاص، كالخَلق، فِعلٌ دائم. في الخَلق لم يكلِّف اللّهُ بديلاً عنه؛ وفي الخلاص أيضاً. هو الذي خلق ويَخلق؛ وهو الذي خلّص ويخلّص. ألخلقُ يستمرّ بموجبِ نِظامٍ بالغِ الدِّقة؛ هكذا الخلاص يكونُ بموجبِ استمراريّةِ «كلمة اللّه» المُرسَلة. فاللّهُ هو هو، وكلمتُه هي نفسُه، ووحيه هو إيّاه.. وبالتالي، لا بدّ من أن يكون الوحيُ مستمرّاً، وكلمة اللّه فاعلة، والخلق دائماً، والخلاص مشروعاً أزليّاً أبديّاً، والأنبياء يكمّلون بعضهم بعضاً، والعهد الجديد يعتمد على عهد قديم. وقد عبّر القرآن العربي عن هذه المعطيات خيرَ تعبير. وفي تعابيره هذه مجموعة ثانية من الأدلّة على وحدة الوحي واستمراريّته.

١ - وَحدة الوحي

لقد كان محمّد يعي استمراريّةَ الوحي بين الإنجيل العبراني و«قراءته العربيّة» وعياً كاملاً. فهو لم يأتِ بوحيٍ جديد من لا شيء. لقد جاءه الوحي كما جاء مَن قبله: «إنّا أوحَينَا إليكَ كمَا أوحَينَا إلى نوحٍ والنَّبِيِّينَ مِنْ بَعدِه. وأوحَينَا إلى إبْرَاهيمَ، وإسمَعيلَ، وإسحَقَ، ويَعقُوبَ، والأسْباطِ، وعيسَى، وأيُّوبَ، ويُونُسَ، وهَارونَ، وسلَيمانَ.

وآتَينَا داوُدَ زَبُوراً»[٩١]. والوحي على محمّد كالوحي على مَن قبله سواء سواء: «كَذلكَ يُوحِي إليكَ وإلى الّذينَ مِنْ قَبْلِكَ اللّهُ العزيزُ الحكيم»[٩٢]؛ وأيضاً: «وَلَقَدْ أُوحِيَ إليكَ وإلى الّذينَ مِنْ قَبْلِكَ»[٩٣].

ولكن، إذا كان الوحي على محمّد كالوحي على مَن سبقه، فإنّ الوحيَ إيّاه، وليس من وحيٍ جديد. والوحي في القرآن العربي هو نفسه في الكتاب الـ «مِنْ قَبْل»،في «اللّوح المحفوظ»[٩٤]، «مِنَ الغَيب»[٩٥]. غير أنّ محمّداً، من جهة، لا يعلم الغيب[٩٦]، بل «لا يَعلَمُ الغَيبَ إلاّ اللّه»[٩٧]؛ ومِن جهةٍ ثانية، يوحي إليه اللّهُ «مِنَ»الغَيب. هذا التناقض الظاهر دليلٌ على أنّ الغَيبَ السابق هو المصدرُ لمحمّد.

٢ – وَحدة التنزيل

ألتنزيل القرآني هو أيضاً «**مِنْ**» تنزيلٍ سابق، أي: هو «تبيانٌ» لِمَا نَزل «**مِنْ قَبْل**». وكان همُّ محمّد (؟)، على ما يبدو، أن يُبَيِّنَ للنّاس كلَّ ما نزل على النّبيّين الأقدمين. فهو (؟) يأخذ منهم، يعتمد عليهم، ينقل عنهم، يستوحي أخبارَهم وقَصصهم، ويُعطي أمْثالَهم. وكلّ ذلك ليُظهر للعرب كلّ شيء. قال: «نَزَّلْنَا الكتَابَ (أي القرآن) **تِبْيَاناً** لكلِّ

---

(٩١) سورة النساء ٤/١٦٣.

(٩٢) سورة الشورى ٤٢/٣.

(٩٣) سورة الزّمر ٣٩/٦٥.

(٩٤) سورة البروج ٨٥/٢٢.

(٩٥) أنظر: سورة آل عمران ٣/٤٤؛ س. هود ١١/٤٩؛ س. يوسف ١٢/١٠٢.

(٩٦) سورة الأنعام ٦/٥٠؛ سورة هود ١١/٣١.

(٩٧) سورة النمل ٢٧/٦٥.

شيء، وهُدًى ورحمةً وبُشْرَى للمُسْلمين»[٩٨]؛ وقال: «وأَنْزَلْنَا إليكَ الذِّكْرَ (أي القرآن) لِتُبَيِّنَ للنّاسِ ما نُزِّلَ إليهِمْ. وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ»[٩٩]؛ وقال: «يُريدُ اللّهُ لِيُبَيِّنَ لكُمْ وَيَهدِيَكُمْ سُنَنَ الّذينَ مِنْ قَبْلِكُمْ»[١٠٠]...

فبما أنّ القرآن العربي تِبْيانٌ للكتاب السابق، فهو، بسببِ ذلك، يعتبر أهلَ الكتابِ عارفين به وبمضمونه. قال: «وَهُوَ (أي اللّه) الّذي أنْزَلَ إليكُمُ الكِتَابَ (أي القرآن) مُفَصَّلاً. وَالّذينَ آتَيناهُمُ الكِتابَ (أي التوراة والإنجيل) يَعْلَمُونَ أنّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بالحَقِّ. فَلا تَكُونَنَّ (يا محمّد) مِنَ المُمْتَرِينَ (أي الشاكّين)»[١٠١]. وقال أيضاً: «وَيَرَى الّذينَ أُوتُوا العِلْمَ (أي أهل التوراة والإنجيل) الّذي أُنْزِلَ إلَيكَ مِنْ رَبِّكَ (أي القرآن) هُوَ الحَقُّ. وَيَهْدِي إلَى صِراطِ العَزيزِ الحَميدِ»[١٠٢].

والجميع، كتابيّون وأُمّيّون، يؤمنون بالكتاب السابق والكتاب اللاّحق إيماناً واحداً. ومَن لا يؤمن بهما فهو ليس من أتباع محمّد: «الرّاسِخُونَ في العِلْمِ مِنْهم (أي النّصارى)، وَالمُؤْمِنُونَ (من العرب) يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إلَيكَ (أي القرآن)، وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ (أي التوراة والإنجيل)»[١٠٣]. وأتباع محمّد حقّاً همّ القائلون: «آمَنَّا باللّهِ، ومَا أُنْزِلَ إلَينَا، ومَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلُ»[١٠٤].

---

(٩٨) سورة النحل ١٦/ ٨٩.

(٩٩) سورة النحل ١٦/ ٤٤.

(١٠٠) سورة النساء ٤/ ٢٦.

(١٠١) سورة الأنعام ٦/ ١١٤.

(١٠٢) سورة سبأ ٣٤/ ٦.

(١٠٣) سورة النساء ٤/ ١٦٢ و٦٠؛ سورة البقرة ٢/ ٤.

(١٠٤) سورة المائدة ٥/ ٥٩.

ينتج من ذلك أنّ التنزيلَ العربي هو التنـزيل الأعجمي. والذين يعرفون هذا يشـهدون على صحّة ذاك؛ والذين يقـرأون ذاكَ يعرفون هذا: وعلى محمّد أن يتأكّـد فلا يكون، بعدُ، من الشاكّين: «إنْ كُنْتَ (يا محـمّد) فـي شَكٍّ مِمَّـا أنْزَلْنَا إلَيكَ، فَاسْـألِ الذِينَ يَقْرأُونَ الكِتَـابَ مِنْ قَبْلِكَ»[١٠٥].

٣ – وَحدة الكتاب

ما يؤكّد وحدة الـقرآن العربي والكتاب الأعجمي دعـوةُ محمّد جماعتَه للأخذ «بِالكِتَابِ كُلِّه»[١٠٦]، أي، بحسب تفسير الجلالَين، مثلاً، «بالكُتُبِ كلّها»؛ وبحـسب تفسير القرآن نفـسه بـ «الكِتَاب الّذي نَزَّلَه عَلَى رَسُولِه، وَالكِتَابِ الّذي أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ»[١٠٧].

وليس على النّصـارى واليـهـود إلاّ أنْ يفـرحـوا بما أُنْزِلَ إلى محمّد: «الّذينَ آتينَاهُمُ الـكِتابَ يَفْرَحونَ بما أُنْزِلَ إليكَ»[١٠٨]؛ كما ليس على العرب الأمِّيّين أن يحـتَجّوا على محمّد بأنّه لم يُنَزِّلْ عليـهم كتاباً بلغتهم، فقال لهم محذّراً: «(لا) تَقُولُوا:إنّما أُنْزِلَ الكِتَابُ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنا، وإنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَـتِهِمْ لَغَافِلِينَ»[١٠٩]، أي غافلين عن قراءته «لعدم معرفتنا لها، إذ ليست بلغتنا»[١١٠].

---

(١٠٥) سورة يونس ١٠/ ٩٤.

(١٠٦) سورة آل عمران ٣/ ١١٩.

(١٠٧) سورة النساء ٤/ ١٣٦.

(١٠٨) سورة الرّعد ١٣/ ٣٦.

(١٠٩) سورة الأنعام ٦/ ١٥٦.

(١١٠) تفسير الجلالَين لسورة الأنعام ٦/ ١٥٦.

لقد كـان محمّد يعي تمام الوعـي مهمّتـه هذه، إذ لمْ يترك من الكتاب شـيئاً إلاّ أخـذ به: «ما فرَّطْنَا فـي الكتَابِ مِنْ شَيْءٍ»[١١١]، ولم نكتبْـه. والإيمان الصحـيح منوط بإقامـة التوراة والإنجـيل والقرآن العـربي: «يَا أَهْلَ الكِتـابِ!لَسْـتُمْ عَلَى شَيْءٍ حـتّى تُـقِيـمُـوا التَّـوراةَ والإنجيلَ وَمَا أُنْزِلَ إلَيكُمْ»[١١٢].

٤ – وَحدة الشريعة

وحدة الشريعة في الكتابَين الأعـجمي والعربي، ظاهرةٌ ظهوراً واضحاً. من نوح إلى إبراهيم وموسى وعيسى، مروراً بالنّبيّين ذوي العزم جميعهم، حتّى محمّد، ألشريعة واحدة مستمرّة، لا تبديلَ فيها : «سُنَّةُ اللّهِ في الّذيـنَ خَلَوا مِنْ قَـبْلُ ولَنْ تَجِـدَ لسُنَّةِ اللّهِ تَبْـدِيلاً»[١١٣]؛ وقال: «فلن تجِدَ لسُنَّةِ اللّهِ تبدِيلاً، ولَنْ تجدَ لسنّةِ اللّهِ تَحويلاً»[١١٤].

شريعة محمّد هي نفسـها شريعة نوح: «شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ ما وَصَّى به نُوحاً»[١١٥]. وسنّته هـي سنّة الرُّسُل السابقين، لا تتـحوّل: «سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَـا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا. وَلا تَجِدُ لِسُنَّـتِنَا تَحْويلاً»[١١٦]. وليس على مـحمّد إلاّ أنّ يبـيِّنَ لأتباعـه سـنن الأوّلين ويهديهم إليـها: «يريدُ اللّهُ لِيُبَيِّنَ لكُمْ ويَهديكُمْ سُنَنَ الّذينَ مِنْ قَبْلِكُم»[١١٧].

---

(١١١) سورة الأنعام ٦/٣٨.

(١١٢) سورة المائدة ٥/٦٨.

(١١٣) سورة الأحزاب ٣٣/٦٢.

(١١٤) سورة فاطر ٣٥/٤٣؛ أنظر سورة الفتح ٤٨/٢٣.

(١١٥) سورة الشورى ٤٢/١٣.

(١١٦) سور الإسراء ١٧/٧٧.

(١١٧) سورة النساء ٤/٢٦.

بيد أنّ فرقاً بين سنّة محمّد وسنّة مَن قبله. هذا الفرقُ يقوم على "خفّة" الشريعة المحمّديّة، بسبب ما في الإنسان العربي من "ضعف". قال: «ألآنَ خَفَّفَ اللّهُ عَنْكُمْ، وَعَلِمَ أنّ فيكُمْ ضَعْفاً»[118]؛ و«يُرِيدُ اللّهُ أنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ، وَخُلِقَ الإنسانُ ضَعِيفاً»[119]؛ و«يُريدُ اللّهُ بِكُمُ اليُسْرَ. وَلا يُريدُ بِكُمُ العُسْرَ»[120].

وحجّة ذلك أنّ محمّداً هو رسولٌ لأمّة لها ظروفها الخاصّة، وأوضاعها الخاصّة. فحالة العرب الثقافيّة والاجتماعيّة غير حالة أهل الكتاب. لهذا، فإنّ اللّهَ، لحكمته، يعيّنُ لكلّ أمّة رسولاً لها. قال: «لَقَدْ بَعَثْنَا في كلّ أمّةٍ رَسُولاً»[121]؛ وأكّد: «لكلّ أمّةٍ رسُولٌ»[122]. ورسول الأمّيّين غير رسول الكتابيّين؛ ولا يجب أن يكون مثله، ولا يسنّ شريعةً كشريعته، «وَاللّهُ أعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ»[123].

٥ – وَحدة الإيمان

ما في الكتاب الأعجمي والقرآن العربي شيء واحد: ألعربي يفسّر الأعجمي ويستند إليه؛ والأعجمي أصلُ العربي وشاهد عليه. مَن يؤمن بواحدٍ من دون الآخر لا يكون على الصراط المستقيم. فعلى «أهل الكتاب» أن يؤمنوا بالقرآن العربي لأنّه «تذكرة» للكتاب

---

(١١٨) سورة الأنفال ٨/٦٦.

(١١٩) سورة النساء ٤/٢٨.

(١٢٠) سورة البقرة ٢/١٨٥.

(١٢١) سورة النحل ١٦/٣٦.

(١٢٢) سورة يونس ١٠/٤٧.

(١٢٣) سورة الأنعام ٦/١٢٤.

الأعـجمي؛ وعلى «الأمّـيّين» أن يؤمنوا بالكتـاب الأعجـمي لأنّه أصل القرآن العربي.

فهـو يقـول للأمّيّين من العـرب: «قولوا: آمَنَّا باللّه، وَمـا أُنْزِلَ إلَينَا، وَمَا أُنْزِلَ إلى إبْرَاهـيمَ وإسمَعيلَ وإسـحق ويعقوبَ والأسْـباط، ومَا أوتِيَ مُوسَى وعِـيسَى، وَما أوتِيَ النّبيّـونَ من ربِّهم. لا نُفَرِّقَ بَينَ أحَدٍ منْهُمْ. وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمونَ»[١٢٤]... ويعترف أهل الكتاب من اليهود والنّصارى: إنّ مـا «أُنْزِلَ إلَيكَ مِنْ ربِّكَ هُوَ الحَقُّ»[١٢٥]؛ وهـم «يَعْلَمُونَ أنّهُ مُنْزَلٌ مِنْ رَبِّكَ بالحَقِّ»[١٢٦].

هؤلاء «إذا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إلى الرّسولِ تَرَى أعْيُنَهُمْ تَفيضُ مِنَ الدَّمْعِ ممَّا عَرَفُوا مِنَ الحَقِّ. يَقُولُونَ: رَبَّنَا! آمَنَّا. فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ. وَمَا لَنَا لا نُؤْمِنُ باللّهِ وَمَا جاءَنَا مِنَ الحَقِّ؟! وَنَطْمَعُ أنْ يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ القَوْمِ الصَّالِحِينَ! فَأَثَابَهُمُ اللّهُ بِمَا قَالُوا جنّاتٍ.. وَالّذينَ كَفَروا، وَكَذَّبُوا بآيَاتِنَا أولَئِكَ أصْحَابُ الجَحِيمِ»[١٢٧]. وليس أهلُ الكتاب على شيء إنْ لم يؤمنوا بالتوراة والإنجيل وما أنزل على محمّد[١٢٨]. فـ«الرّاسِخُونَ في العِلْمِ منهـم (النصـارى)، والمُؤْمِنُونَ (العـرب) يُؤْمِنُونَ بِمَـا أُنْزِلَ إليكَ (أي القرآن)، وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ (أي التوراة والإنجيل)»[١٢٩].

---

(١٢٤) سورة البقرة ٢/١٣٦؛ أنظر: آل عمران ٣/ ٨٤؛ والعنكبوت ٢٩/ ٤٦...
(١٢٥) سورة سبأ ٣٤/٦.
(١٢٦) سورة الأنعام ٦/١١٤.
(١٢٧) سورة المائدة ٥/٨٣-٨٤.
(١٢٨) راجع سورة المائدة ٥/٦٨.
(١٢٩) سورة النساء ٤/١٦٢ و٦٠؛ سورة البقرة ٢/ ٤.

فالإيمان بالكتب كلّها هو إسم المسلمين وتحديدهم. فمن يأخذ بالتوراة وَحدها من دون سواها فهو من اليهود «الظالمين»[١٣٠]؛ ومَن يأخذ بالإنجيل وحده من دون سواه فهو من المسيحيّين المغالِين في دينهم[١٣١]؛ ومَن يأخذ بالقرآن العربي وحده من دون سواه فهو من أتباع مصحف عثمان ومجاهِدي المدينة، لا من أتباع محمّد ومسلمي مكّة. ومَن يؤمن بالكتب كلّها فهو من المسلمين الحقيقيّين الذين يعلنون باستمرار: «آمَنَّا باللّهِ، وَمَا أُنْزِلَ إلَينَا، وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلُ»[١٣٢]، ويعرفون، كما عرف فرعون قبلهم، أنْ «لا إلَهَ إلاّ الّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إسْرَائيلَ»[١٣٣].

***

بعد هذا كلّه، يبقى السؤال الأكبر: كيفَ تعرّف محمّد على الوحي السابق؟ أهو اللّه الذي دخل عليه وكلّفه بتأسيس دينٍ جديد؟ أم هو جبْريل وافى محمّداً وخصّه بإنزالٍ مباشَر من «اللّوح المحفوظ»؟ أم هو أمرٌ حدَثَ له كما يَحدث للملهَمين من العالَم؟ أم هو، أخيراً، معلّمٌ خبيرٌ حكيمٌ علّمَ محمّداً ما لم يكن يَعلم، وقرّرا معاً إنشاء حركةٍ دينيّةٍ روحيّةٍ إجتماعيّةٍ ثوريّةٍ قلبتْ وجهَ المجتمع المكّي، إنْ آتتها الظروفُ ودعمتْها؟

---

(١٣٠) هي الصفة التي يُطلقها القرآن على اليهود باستمرار.

(١٣١) أي يُغالون في تأليه المسيح؛ أنظر: سورة النساء ٤/ ١٧١؛ المائدة ٥/ ٧٧.

(١٣٢) سوورة البقرة ٢/ ٤ و١٣٦؛ س. آل عمران ٣/ ٨٤ و١٩٩؛ س. النساء ٤/ ٦٠ و١٦٢؛ س. المائدة ٥/ ٥٩؛ س. العنكبوت ٢٩/ ٤٦...

(١٣٣) سورة يونس ١٠/ ٩٠.

واحد من اثنَين: إمّـا أن يكونَ محمّـدٌ اكتشف الـتنزيلَ السابق بذاته، وتعلّمه بلغـته الأصليّة، ونقله إلى لسانه، وأخـذ منه ما يناسب أحوالَ مـدعوّيه؛ وإمّـا أن يكون تلقّن التنزيل الســابق على يد «خبـير حكيم علّمه ما لم يكن يعلم»! ولا يمكننا افتـراض أيّ احتمال آخر. فلا اللّه يتدخّل في أمـور الناس، متخـطّياً القوانينَ الطبـيعيّـة التي سنّها، فيعلِّم إنساناً أمّيّاً جاهلاً، ويجـعله يتنبّأ عن الغيب والمستقبل، ويظهر عليـه كاشـفاً عـن سرِّه العظيم؛ ولا الملاك جـبـريل تتفـتّح له أبواب الســماء ويُنعم عليـه بزيارة صديقـه محـمّد على الأرض علـى مدى ســتّين سنة ونيّف، ويظهـر عليـه مـا يفـوق الستّ والعـشـرين ألف مرّة[١٣٤]! وما أدراك إنْ شكّ بعضُ النّاس بعمل جبريل ووجود جنس ملائكي!؟

لا يمكننا افتراض الأمر الأوّل، لأنْ لمْ يعرَفُ عن محمّد أنّه كان يعرف العبريّة، أو الأراميّة، لينقل عنها ما نجده في القرآن من قصص النّبيّين، وأخبـار الأقدمين، وشرائع التوراة، وأمثـال الحكمة، وتعاليم الإنجيل؛ أو أنّه كـان بوسعه أن يتلقّن التنزيل الســابق بدون معلّمٍ أو كتـابٍ أو هداية... أمّا مـا يؤكّد لنا الأمر الثـاني فهـو أنّ محمّـداً كان يعتمد بـاستمرارٍ على «مَنْ عِنْدَه عِلْمُ الكتاب»، يسألهم، يـسترشدهم، يستشهد بهم، وتكفيه شـهادتهم: «قُلْ كَفَى بِاللّهِ شَهِيداً بَينِي وبَينَكُمْ ومَنْ عِنْدَه عِلْمُ الكِتَابِ»[١٣٥].

---

(١٣٤) السيرة الحلبيّة ١/٢٦٩.

(١٣٥) سورة الرّعد ١٣/٤٣.

بقي، إذاً، أن يكون محمّدٌ تعلّم ما لم يكن يعلم من «خبيرٍ حكيم»، عنده عِلمُ الكتاب المنزل. ولسنا نجد، في بيئة محمّد، وفي كتب السِّيرة، غيرَ القسّ ورقة. قد يكون في مكّة غير القسّ ورقة؛ ولكنّ دلائل كثيرة تشير إلى القسّ ورقة، ذكرناها مفصّلةً في الفصلين السابقَين، حتّى لم يبقَ زيادة لمستزيد.. فالقسّ ورقة هو الشخصيّة البارزة في حياة محمّد(١٣٦)، والإنجيل العبراني الذي كان ينقله هو القرآن العربي الذي بشّر به محمّد.

---

(١٣٦) حتّى قيل عنه، عند وفاته: «وَلَمْ يَنشَبْ وَرقة أنْ توفِّيَ وفَتَرَ الوحيّ».

رابعاً - النَّبيُّ يُعَلِّمُ مَا تَعَلَّمَ مِنَ القَسِّ

بعدما تعلَّمَ محمّد ما لم يكن يعلم، راح يعلِّم، بدوره، ما أصبح يعلم. وتعليم الأمّيّين من العرب كان من مهمّات دعوته الرئيسيّة، شأنه شأن النّبيّين السابقين، والتلاميذ اللاّحقين الذين أرسلهم عيسى ليكونوا «معلِّمي الأمم»[١٣٧]. وكما ناشد الرسول بولس تلميذَه طيموتاوس بقوله: «أناشِدُكَ أنْ أَعْلِنْ كلامَ اللّه، وأَلِحَّ فيه، بوقته وبغيرِ وقته. وَبِّخْ. وأَنْذِرْ. وعِظْ بصبرٍ جميلٍ ورَغبةٍ في التّعليمِ»[١٣٨]. والتعليم في نظر رسل المسيح وصيّة ملزِمة، أعلنها بطرس في عِظته في بيت كرنيليوس، قال: «قدْ أوصانا الربُّ أنْ نعلِّمَ الشّعبَ»[١٣٩]...

هكذا راح محمّد يَعِظُ ويبشِّرُ ويعلِّمُ ويُنذرُ ويبلِّغَ رسالةَ ربِّه. فهو، خليفة القسّ ورقة على نصارى مكّة، أُرسِلَ لدعوة النّاس إلى الإيمان، لأنَّ «الإيمان مِنَ البشارة»[١٤٠]؛ فاندفع يعلّمهم كلامَ اللّه، ويبيِّن لهم الآيات، ويزكّيهم من خطاياهم، ويَهديهم إلى الصراط المستقيم، ويوضح لهم مستلزمات الدِّين القَيِّم، وينشلهم من ضلالٍ أمعنوا فيه. لقد علّمهم تعاليم الكتاب والحكمة والإنجيل، وذكّرهم

---

(١٣٧) إنجيل متى ٢٨/١٩.

(١٣٨) الرسالة الثانية إلى طيموتاوس ٤/٢.

(١٣٩) أعمال الرسل ١٠/٤٢.

(١٤٠) الرسالة إلى أهل روما ١٠/١٢-١٥ و١٧.

بناموس وموسى وعيسى، وتلا عليهم الآيات ليكونوا مؤمنين، لأنّ الإيمانَ مِن السّماع. قال:

«لَقَدْ مَنّ اللّهُ على المؤمنينَ (من العرب) إذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْ أنفسهِمْ، يَتْلُو عَلَيهِمْ آياتِه، وَيُزَكِّيهِمْ، ويُعَلِّمُهُمُ الكِتَابَ والحِكْمَة، وإنْ كانُوا، مِنْ قَبْلُ، لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ»[١٤١]. وردّد هذا القول مراراً[١٤٢]، وقال أيضاً: «أرْسَلْنَا فِيكُمْ رسولاً مِنْكم. يَتْلُو عَلَيكُمْ آياتِنَا، ويُزَكِّيكُمْ، ويُعَلِّمُكُمُ الكِتابَ والحِكمَةَ. ويُعَلِّمُكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُون»[١٤٣]. وردّد القول[١٤٤].

لقد وعى محمّد دورَه التعليمي هذا، وعرف أنّه بُعِثَ إلى العرب رسولاً، وبشيراً، ونذيراً، ومبلّغاً رسالةَ ربّه. قال: «.. إنْ أنا إلاّ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ»[١٤٥]. وقال أيضاً: «إنّني لكُمْ مِنْهُ نَذيرٌ وبشيرٌ»[١٤٦]. وذكّره اللّه مراراً: «إنْ أنتَ إلاّ نَذير. إنّا أرْسَلْنَاكَ بالحقِّ بَشِيراً ونَذيراً»[١٤٧]، «ومَا أرسلْنَاكَ إلاّ مُبَشِّراً ونَذيراً»[١٤٨]، و«يا أيُّها النّبيُّ! إنّا أرسَلْنَاكَ شاهِداً ومبشِّراً ونَذيراً»[١٤٩].

---

(١٤١) سورة آل عمران ٣/ ١٦٤.

(١٤٢) أنظر: سورة ٦٢/ ٢ و١٢٩.

(١٤٣) سورة البقرة ٢/ ١٥١.

(١٤٤) سورة البقرة ٢/ ١٢٩.

(١٤٥) سورة الأعراف ٧/ ١٨٨.

(١٤٦) سورة هود ١١/ ٢.

(١٤٧) سورة فاطر ٣٥/ ٢٤؛ أنظر: سورة البقرة ٢/ ١١٩.

(١٤٨) سورة الفرقان ٢٥/ ٥٦؛ سورة الفتح ٤٨/ ٨.

(١٤٩) سورة الأحزاب ٣٣/ ٤٥.

وليس على النّاس أن يتعجّبوا أو يتساءلوا عن مهمّة صاحبهم. إنّها مهمّة واضحة، لا لبس فيها ولا غموض. فهو رجلٌ منهم، له مهمّة معروفة ليست مدعاة عجبٍ واستفهام: «أكَانَ للنّاسِ عَجباً أن أوحَينَا إلى رجلٍ منْهم أنِ أنْذِرِ النّاسَ؟»(١٥٠)؛ «وَعَجِبُوا أنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ»(١٥١).

ووعى محمّد أنّ كتابه أيضاً كان «بَلاغاً» من اللّه، و«إنذاراً» لمكّة، أُمِّ القُرى ولمن حولَها من العشائر والقبائل. قال: «وَأُوحِيَ إلَيَّ هَذَا القُرْآنُ لأُنْذِرَكُمْ بِهِ»(١٥٢)؛ «وَهَذَا كِتَابٌ... لِتُنْذِرَ أُمَّ القُرَى وَمَنْ حَولَهَا»(١٥٣)؛ وردّد: «وكَذَلِكَ أَوْحَينَا إليكَ قُرآناً عَرَبِيّاً لِتُنْذِرَ أُمَّ القُرَى وَمَنْ حَولَها»(١٥٤). ولا يجب أن يكون لمحمّدٍ حَرَجٌ في أن يُنذر به. قال: «كِتَابٌ أُنْزِلَ إلَيكَ. فَلا يَكُنْ في صَدرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ لِتُنْذِرَ بِهِ»(١٥٥).

وشهد محمّدٌ على أنّه صادقٌ أمين في رسالته. لقد «جَاءَ بالصِّدْقِ»(١٥٦). ويقول: «أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاتِ رَبّي. وَأنَا لَكُمْ ناصحٌ أَمِين»(١٥٧). وكم صلّى إلى اللّه ليكون صادقاً أميناً في تبليغ الرسالة

---

(١٥٠) سورة يونس ١٠/٢.

(١٥١) سورة ص ٣٨/٤.

(١٥٢) سورة الأنعام ٦/١٩.

(١٥٣) سورة الأنعام ٦/٩٢.

(١٥٤) سورة الشورى ٤٢/٧.

(١٥٥) سورة الأعراف ٧/٢؛ أنظر أيضاً: سورة الأحقاف ٤٦/١٢؛ وسورة إبراهيم ١٤/٥٢؛ وسورة النحل ١٦/٨٩...

(١٥٦) سورة الزّمر ٣٩/٣٣.

(١٥٧) سورة الأعراف ٧/٦٨.

الموكـولة إليـه: «رَبِّي! أَدْخِلْـنِي مُـدْخَلَ صِـدْقٍ. وَأَخْـرِجْنِي مُـخْـرَجَ صِدْقٍ»[١٥٨]، «وَاجْعَلْ لِي لِسَـانَ صِدْقٍ فِي الآخَرِينَ»[١٥٩]... واشتهر محمّـد، في شبابه وتعامله مـع النّاس، بصدقه وأمانتـه، فعُرف، في مجتمعه، بـ «الأمين».

هذا من حيث سيـرته وأقواله. أمّا من حيث التـعاليم التي بشّر بها فهي أيضاً اتُّصِفتْ بالصـدق والأمانة. لقد علَّمَ ما تعلَّم. ونقل إلى النّاس مـا نقـل إليـه قسّ مكّة من التـوراة والإنجـيل. وسنرى هذه التعاليم الصادقة في الفصل الأخير من بحثنا.

(١٥٨) سورة الإسراء ١٧/ ٨٠.

(١٥٩) سورة الشعراء ٢٦/ ٨٤.

خاتمة الفصل

لقد كـان من الصعب علينا ألاّ نجد وراء النّبيّ مَن كـان يعلّمه ويدرّبه؛ ومن الصعب أيـضاً ألاّ نجد وراء القـرآن العربي كتـاباً آخر يعتـمد عليـه. فكما كـان قسّ مكّة وراء النّبيّ مـحمّد يهـمس في أُذُنه وحيَ اللّه من وراء السـتـار، هكذا كـان وراء قرآن مـحـمّد الإنجـيل العبراني يجود عليه بتعاليمه وأمثاله وقصصه...

ولكن، إذا كانت الهداية إلى القسّ ورقـة سهلةَ المنال، ولا تثير مشـاكل كثيـرة؛ فإنّ الخلود إلى الإنجـيل العبـراني وحده كمـصدرٍ وحيـدٍ لعلوم القـرآن العربي لن يمرّ بدون مـشاكل. ذاك لأنّ الـقرآنَ نفسـه، كما وصل إلينا، يُثـير مشـاكل لا تُحصى. ولا أحـد يستطيع التـقـدّم خطوةً واحـدةً إنْ لمْ ينكشـفْ له الكتـاب الأصل، أو الكتـاب «الإمام»، بحسب تعبير القرآن نفسه.

غير أنّنا، إذا اعتمدنا على علم «نزول الآيات»، بحسب ترتيبها الزمني، ينكشـف لنا شيءٌ هامٌّ جِداً في مـجال العـلوم الإسلامـيّـة والقرآنيّـة، ألا وهو أنّ تعاليم القـرآن العربي لا تخـتلف في شـيء عن تعـاليم الأنجـيل العـبـراني؛ بل إنّ القـرآن العـربي هو «تفـصـيل» و«تصـديق» للإنجيل العـبـراني؛ إلى درجةِ أنّنـا نستطيع القـول: إنّ القرآن الـعربي إرثٌ نصرانيّ فـي اللّغة العربـيّة. لنقل أيضـاً: ألقرآن المكّي هو الإنجيل بالعربيّة.

الفصل الرّابع

ألنّصرانيّة والإسلامُ دينٌ على دينِ

أوّلاً — النّصرانيّة في بيت محمّد

ثانياً — الإسلامُ قَبْلَ الإسلام

ثالثاً — النّصرانيّة والحنيفيّة والإسلام

رابعاً — الدِّينُ القَيِّم



أوّلاً - النّصرانيّة في بيتِ محمّد

لم تبقَ النّصرانيّة، في مكّة والحجاز، وَقفاً على الرّهبان السائحين، والغرباء الطارئين، والحجّاج والتجّار من روم وأحباش وأقباط، من دون سواهم من السكّان الأصليّين. لقد اعتنق النّصرانيّة قومٌ كثيرٌ من قريش، بحسب شهادات المؤرّخين المسلمين، كاليعقوبي، والأزرقي، والجاحظ، والطبري، وغيرهم...

وتشهد معظم كتب السِّير والأخبار على وجودِ مُناخٍ نصرانيٍّ عامٍّ عاش فيه محمّد. فلم يكن جَدُّ عبد المطّلب، ووالده، وأعمامه، وبعضُ زوجاته، وأنسباؤه، ومعارفه.. بعِيدِينَ عن النّصرانيّة، أو جاهلين مبادئها وتعاليمها.

كما لم يكن الرّهبان والقسّيسون والمتحنّثون والمتحنّفون بدون أثرٍ أو فِعلٍ في حياة النّبيّ، وسلوكه، وأخلاقه، وتعاليمه. وكم من هؤلاء كان في مكّة، وحولَها، وكعبتها، وأسواقها، يبشّرون ويعظون ويخطبون!!

فلننظر في هذه الآثار النّصرانيّة في البيت النبوي.

١ - عبد المطّلب الإبيوني

قيل عن عبد المطّلب إنّه «من بين الّذين رَفَضوا عِبادة الأصنام في الجاهليّة، كأبي بكر الصدّيق، وزيد بن عمرو بن نفيل، وعبيدالله

بن جحش، وعثمان بن الحُويرِث، وورقة بن نوفل، ورباب البرّاء، وأسعد بن كريب الحميري، وقسّ بن ساعدة الأيادي، وأبي قيس بن صرمة»[١]. هؤلاء جميعهم ذكرتْهم كتب السِّير النّبويّة، دالّةً على هدايتهم وإيمانهم القويم وتوحيدهم وأخلاقهم وأعمالهم في مجال البرِّ والإحسان وصنع الحسنات والصدقات مع الفقراء وأبناء السبيل.

وقيل عن عبد المطّلب، بنوع خاصّ، إنّه «كان على ملّة إبراهيم، أي: لم يعبد الأصنام»[٢]. ودين إبراهيم هو «الدِّين الإسلامي الحنيف»، كما يصفه القرآن: «ما كان إبراهيمُ يهوديّاً ولا نصرانيّاً؛ ولكن كان حنيفاً مسلماً»[٣]؛ هو «الدِّينُ القَيِّم»[٤].

وقال فيه اليعقوبي: «رفض عبادةَ الأصنام، ووحّد اللّه، ووفى بالنذر، وسنّ سنناً نزل القرآنُ بأكثرها، وجاءت السنّة من رسول اللّه بها»[٥]. »وقد جاءتْ أدلّةٌ كثيرة تشهد على أنّ عبد المطلب كان على الحنيفيّة والتّوحيد»[٦]، أي، بحسب تعبير ابن سعد، «كانَ يتألّه»[٧]. و«التألّه» صفة النّصارى في بلاد العرب.

---

(١) أنظر ابن الجوزي، كتاب الأمتاع، عن السيرة الحلبيّة ١/٣٦.

(٢) ألسيرة الحلبيّة ١/٤٨؛ ألسيرة المكّيّة ١/٣٧.

(٣) سورة آل عمران ٣/٦٧.

(٤) سورة التوبة ٩/٣٦؛ سورة يوسف ١٢/٤٠؛ سورة الروم ٣٠/٣٠ و٤٣؛ سورة البيّنة ٩٨/٥.

(٥) تاريخ اليعقوبي، ٢/١٠.

(٦) ألسيرة المكّيّة ١/٧٢.

(٧) طبقات ابن سعد ١/٨٥.

وثمّة إشارات أخرى إلى نصرانيّة عبد المطّلب الإبيونيّة، يدلّ عليها بعضُ صفاته وأخلاقه وتعاليمه ووصاياه لبنيه. لقد قيل عنه إنّه «كان من حلماء قريش وحكمائها، وكان مُجَابِ الدّعوة، محرِّماً الخمْرَ على نفسه. وهو أوّل مَن تحنّثَ بحِراء. كان، إذا دخلَ شهرُ رمضان، صعدَ، وأطعمَ المساكين. وكان صعودُه للتخلّي عن النّاس. يتفكّر في جلال اللّه وعظمته. وكان يرفع من مائدته للطّير والوحوش في رؤوس الجبال. ولذلك كان يقال له: "مُطْعِم الطّير"؛ ويقال له أيضاً: "الفَيَّاض"»[٨].

وثمّة روايات أخرى تزيد على صفات عبد المطّلب وأخلاقه وممارساته الإبْيُونيّة، فتوضح: «ومِن مناقب عبد المطّلب، وفيها ما يدلّ على توحيده: أمْرُه لبنيه بمكارم الأخلاق؛ وتحنّثُه في غار حِراء؛ وإطعامه المساكين، حتّى كان يرفع للطير والوحوش في رؤوس الجبال من مائدته؛ وقطعُه يد السّارق؛ ووفاؤه بالنّذر؛ وتحريمه الخمر على نفسه؛ ومنعه الزنا، ونكاح المحارم، وقتلُ المؤودة؛ وأنْ لا يطوف البيتَ عريانٌ. ومن ذلك قوله: "واللّهِ! إنّ وراءَ هذه الدّار داراً يُجزَى فيها المحسن بإحسانه، ويُعاقَب المسيء بإساءته»[٩].

هذه المناقب النبيلة، والتعاليم السّمحة تشير، بلا شكٍّ، إلى هداية عبد المطّلب، بل إلى نصرانيّته وإبيونيّته. فرفضُه عبادة

---

(٨) سيرة ابن هشام ١/٤٣-٤٤؛ أنظر: السيرة الحلبيّة ١/٤؛ السيرة المكّيّة ١/٢٢-٢٣؛ تاريخ اليعقوبي ٢/١٠.

(٩) السيرة الحلبيّة ١/٤؛ السيرة المكّية ١/٧٣؛ تاريخ اليعقوبي ٢/١٠-١٢... يلاحظ أنّ القرآن جاء بمعظم هذه السنن التي قال بها عبد المطّلب ومارسها.

الأصنام، وإيمانه بالتـوحيـد، وتحنّثه، واهتـمامـه البالغ بالمسـاكين، وإطعام الجـياع، وتحريمه الخمـرة، وإيمانه بالقيامة والحـساب... لا تشير إلى وَثنيّته، أو إلى جهله الإله الحقيقي. بل تميل ميلاً جازماً إلى هدايته، إمّا إلى اليهوديّة وإمّا إلى النصرانيّة، ألديانتَين المعروفتَين في مكّة والحجاز آنذاك.

غيـر أنّ تشديد كتـب السِّير والأخـبار على عناية عـبد المطّلب بالمسـاكين، وإطعامـه الجيـاع، واهتمـامه بوحـوش الجبال وطـيور الصحراء التي كان يوفّر لها من مـائدته، يوجّهنا نحو الإبيونيّة، التي يدلّ عليها اسمـها المشتقّ من «إبْيُون»، أي الفقيـر؛ والتي كانت عُرفتْ بتعاليمها البالغة في العناية بالفقراء والمساكين وأبناء السبيل...

والذي يوجّهنا، أيضـاً، نحو انتمـاء عبد المطّلب إلى الإبْيُـونِيّة، مُنادمته الأحبار، والرّهبان، على السّواء. وكـثيراً ما تذكر كتب السِّير والأخبار رحلاته إليهم، واجتماعه بهم، والتحدّث الطويل معهم، حول موضوعاتٍ دينيّة وأخلاقيّة كثيرة.

يقول السيوطي، مثلاً، وهو أكـثر مَن بحث في القرآن والسيرة النّبـويّة: «وبينا عـبـد المطّلب يومـاً في الحـجـر، وعنـده أسْـقفٌ يُحادثه..»[١٠]. وعن العبّـاس قال: «قال عـبد المطّلب: قَدِمـنا اليَمنَ في رحلةِ الشتاء، فنزلنا على حَبْرٍ من اليهود يقرأ الزَّبور»[١١]. ويذكر ابن الجوزي: «أنّ مـحمّداً، في سنة سَـبْع من مولده، أصابه رَمَـدٌ شديد،

---

(١٠) ألسيرة المكّية ١/٧٣؛ السيرة الحلبيّة ١/١٢٢.

(١١) ألسيرة الحلبيّة ١/٤٨.

فأخـذه جَدُّهُ ناحيةَ عـكاظ إلى راهبٍ يُعالج الأعين»[١٢]. وفي السّيرة الحلبيّة «إنّ عبد المطّلب خرج من بيته حتّى أتَى عِيْصاً، وهو راهبٌ من أهل الشام، وقد أتاه اللّهُ عِلماً كثيراً. وكان يلزم صومعتَه»[١٣]...

والكثير الكثير من الأخبـار والروايات في كتب السّيرة النبويّة يشير إلى معـرفة عبد المطّلب بالنّصرانيّة، وممارسـاته الإبيونيّة. هذا الجوّ عاش فـيه النّبيّ محمّد، منذ نعـومة أظفاره. واستمـرّ فيه طوال حياته في مكّة، إلى أن بلغ إثنتَين وخمسين سنة ونيّف.

٢ - هداية وَالدَيه؟

لم يُعرف عن والدَي مـحمّد الشيء الـكثير. ولم يكن لهـما أيُّ دورٍ فاعلٍ في حياته وتربيته. لقد توفّـاهما اللّه وابنهما طفل صغير لا يعي من الحياة أمراً. لم يتركا له سـوى خمس نُوقٍ، ومربيّة نصرانيّة اسمـها «بركـة الحبـشيّـة»، وكنيتـها «أمّ أيمن». تدبّرتْ أمـرَ الطفل، ودرّبتْه على الحياة، وبعض مبادئ الدين والأخلاق. كان النّبيّ يُحبُّها جداً. وقـد عُرف عنه قوله لهـا: «أنتِ أُمِّي بَعْدَ أُمِّي»[١٤]؛ وقوله عنها: «مَنْ سرَّهُ أنْ يتزوّجَ امرأةً مِنْ أهلِ الجَنَّة فَلْيتزوّجْ أمَّ أيمَن»[١٥].

بالإضافة إلى ذلك، ترجّح المصادر الإسـلاميّة أيضاً أنّ والدَي محـمّد كـانا على الهداية والصـراط المستـقيم. فـقد قـال أحد أكـبر

---

(١٢) المرجع السابق نفسه ١/١٢٥.

(١٣) المرجع السابق نفسه ١/٧٧.

(١٤) السيرة الحلبيّة ١/١١٧.

(١٥) المرجع السابق نفسه ١/٥٧.

مفسّري القرآن، الفخر الرّازي، وأثبت: «أنّهما كانا على الحنيفيّة، دين إبراهيم، عليه السلام؛ كما كان زيد بن عمرو بن نفيل وأضرابه». وأكّد، بالاستناد إلى قوله تعالى: «إنّما المشركون نجس»، بأنّه يجب «أن لا يكون أحدٌ من أجداده مُشْرِكاً»[١٦].

وقد ارتضى كلامَ الرّازي هذا أئمّةٌ محقِّقون، أمثال العلاّمة السنوسي، والمحقِّق التلمساني محشي الشفاء، فقالا: «لم يتقدّم لوالديه شِرْكٌ. وكانا مُسْلِمَين؛ لأنّه، عليه الصلاة والسلام، انتقل من الأصْلابِ الكريمة إلى الأرْحام الطاهرة. ولا يكون ذلك إلاّ مع الإيمان باللّه تعالى.. وما نقله المؤرِّخون قلّةُ حياءٍ وأدب. وهذا لازمٌ في جميع الأنبياء»[١٧]. وقد أيّد الجلال السيوطي كلامَ الفخر الرازي بأدلّة كثيرة، وألّف في ذلك رسائل[١٨].

وشهد محمّدٌ، فيما بعد، في حياته، على إيمان أجداده ووالدَيه. فقال: «لم أزلْ أُنْقَلُ من أصْلاب الطاهرين إلى أرحام الطّاهرات». واستدلّ منه بعض أهل السِّير على «أنّ آباء النّبيّ كانوا مؤمنين، أي متمسِّكين بشرائع أنبيائهم. وليس فيهم كافر؛ لأنّ الكفر لا يوصَف بأنّه طاهر»[١٩].

يُستدَلّ من هذه الأقوال «حنيفيّة» والدَي محمّد، واتّباعهما دين إبراهيم، و«طهرهما» من الكفر، وأنّهما كانا «مسلمين» قبل محمّد؛

---

(١٦) تفسير الرازي للتوبة ٩/٢٨.

(١٧) نقلاً عن السيرة الحلبيّة ١/٥٨.

(١٨) السيرة المكّيّة ١/ ٧٠-٧٢.

(١٩) السيرة الحلبيّة ١/٤٨.

وقد تركا لـه مرضعة ومربّيـة حبشيّـة نصرانيّة... يعني: أنّهـما كانا على الهداية والتوحيد والدِّين القيِّم؛ أو قل: على النّصرانيّة...

٣ – أبو طالب «على ملّة أبيه»

توفّي عبد المطلب ولحـفيده محمّد ثمـاني سنين؛ فكفله عمّه أبو طالب، وأكمل تربيـتَه، ودرّجه على تقـاليد العيلة الهـاشميّـة وتراثها الديني. فـ «نهض أبو طالب بحقٍّ ابن أخـيه على أكـمل وجه. وضـمّه إلى وُلْده، وقدّمه عليهم، واختصّه بفضلٍ واحترام. وظلّ، فوقَ أربعين سنة، يعـزّ جانبـه، ويبسط علـيه حـمايتـه، ويصادق ويخـاصم مِن أجله»[٢٠].

وما عُـرف عن مناقب أبي طالب، في متـون الكتب، كثـير. ممّا يؤكّد لنا أنّه عاش في الهداية والإيمان. عرف عنه، كما عُرف عن أبيه، عنايته بالفـقراء والمساكين، وإقـراء الضيوف، وإطعـام الطعام؛ وهو الفقيـر، كثير العيـال قليل المال. وقد تدلّ وصيّتُه الأخـيرة لبنيه على «إبْيونِيَّـتِه»، وعلى مدى اهتـمامه بالـفقراء، حيـث قال لهم، وهو على فراش الموت: «أجـيبُـوا الدّاعي، وأعطوا السـائل. فـإنّ فيـهمـا شرفَ الحياة والممات»[٢١]. وربّما تعرّف النّاس عليه من خـلال صفته هذه، «فأخـبرنا خالد بن خـدّاش قال: توجّه إلى الشـام فنزل منزله، فأتاه فيـه راهبٌ فقـال: إنّ فيكـم رجلاً صـالحـاً. فقـال: إنّ فِينا مَنْ يُـقْري الضّيفَ، ويفكُّ الأسيرَ، ويفعل المعروف»[٢٢].

---

(٢٠) محمّد الغزالي، في فقه السّيرة، ص ٦٧.

(٢١) السيرة المكّية ١/ ٩١.

(٢٢) طبقات ابن سعد ١/ ١٢٠.

وتذكـر كتب الأخـبار أنّ آخـر كلمـةٍ تفوّه بهـا أبو طالب، وهو يحتضر، قوله: «أنا على ملّة عبد المطّلب. ثم مات»[٢٣]. ويشير بعضها الآخر إلى أنّه كان «كأبيه عبد المطّلب»[٢٤]، أي كان على هدايته وإيمانه ورفضه الأصنام وتعبّده واهتمامـه بالفقراء والتحنّث والصيام طوال شـهر رمضان[٢٥]، يعني أنّه كان على الحنيفيّة والتوحيد دين إبراهيم وسائر «الحمس» من قريش.

إلاّ أنّ بعض الأخبار تريد أن يبقى أبو طالب خارجاً عن الهداية والإيمان، وذلك قصد الوقـوف بوجه مقدِّسي علي وشـيعته، فـأبقتْه على جـاهليّتـه وضلاله. وهذا مـوقف يتـعمّـده أهلُ السنّة بحقّ علي وشيعته؛ فرفـضوا، بذلك، أن يكون أبو طالب «على ملّة أبيه». غير أنّ الشـيعـة فتُمـيتُ أبا طالب مـؤمناً مسلمـاً، وترفض أن يكون كـافراً مشركاً، متعبِّـداً للأصنام؛ ذاك لأنّ شأن علي في الإمامة كشأن النّبيّ في النبّوة. وكلا النّبيّ والإمام، في نظر الشيعة، معصوم.

٤ - المناخ النصراني العام

لم يكن المناخ الديني العام في مكّة، الذي عاش فيه محمّد، مناخَ شِرْكٍ وأوثانٍ وعبادة أصنام. فمكّة لـم تكن مشركة، أو عابدة أصنام، أو جاهلةً الإله الحقيـقي، أو منكرةً التوحيد؛ كما يحلـو لكتّاب السّيرة والأخبار أن يصوّروها.

---

(٢٣) طبقات ابن سعد ١/١٢٢.

(٢٤) السيرة الحلبيّة ١/١٢٥؛ السيرة المكّيّة ١/٩١.

(٢٥) المراجع السابقة نفسها.

ثمّ إنّ الشرك الذي يحاربه القرآن العربي، ليس شِركاً بالمعنى الحقيقي للكلمة، أي إشراك غير اللّه في الألوهة؛ إنّما هو شرك تعبُّدٍ، أي إشْرَاكُ غَيرِ اللّهِ مع اللّهِ في العبادة والشفاعة والطقوس: أكان هذا الغير ملاكاً[٢٦]، أو جِنّاً[٢٧]، أو صنماً[٢٨]، أو نبيّاً[٢٩]، أو قوّة من قوى الطبيعة كالشمس والقمر وغيرهما[٣٠]...

إنّ العربَ، في مكّة، لم يعبدوا أحداً ممّن هو دون اللّه إلاّ توسّلاً، وللتقرّب به إلى اللّه الواحد: «مَا نَعْبُدُهُمْ إلاّ لِيُقَرِّبُونَا إلى اللّهِ زُلْفى»[٣١]. ولم يأخذ القرآنُ على سكّان مكّة جهلَهم اللّهَ؛ بل أخذ عليهم تفكيرَهم المادّي باللّه، وتصويرَهم له بالصّور والأصنام. وهو يقرّ بإيمانهم ومعرفتهم له، وإنْ كانوا به مشركين. قال: «وَمَا يُؤْمِنُ أكْثَرُهُمْ باللّهِ إلاّ وَهُمْ مُشْرِكُونَ»[٣٢]، أي بحسب تفسير البيضاوي: «ما يُوحِّدوني إلاّ جعلوا معي شريكاً مِنْ خَلقي». ويقسم العرب باللّه بأنّهم ليسوا مشركين: «واللّهِ! رَبَّنَا! مَا كُنّا مُشْرِكِينَ»[٣٣].

ويعترف محمّد للمكّيّين بإيمانهم باللّه الواحد، الخالق، المدبّر، المحيي، ربّ السماء والأرض. يقول: «ولئنْ سألتَهم مَنْ خَلَقَ السّموات

---

(٢٦) سورة الصافّات ٣٧/١٤٩–١٥٠؛ النحل ١٦/٥٧؛ آل عمران ٣/٨٠....

(٢٧) سورة الأنعام ٦/١٠٠؛ سورة سبأ ٣٤/٤١...

(٢٨) س. يونس ١٠/١٨؛ الأعراف ٧/١٩٧؛ الزخرف ٤٣/٦١؛ النجم ٥٣/١٩

(٢٩) سورة آل عمران ٣/٨٠...

(٣٠) سورة النمل ٢٧/٢٤؛ سورة فصّلت ٤١/٣٧...

(٣١) سورة الزمر ٣٩/٣.

(٣٢) سورة يوسف ١٢/١٠٦.

(٣٣) سورة الأنعام ٦/٢٣.

والأرْضَ؟ لَيَقُولُنَّ: ألله»[٣٤]؛ «وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّموات والأرضَ وسخَّرَ الشمْسَ والقَمَرَ؟ لَيَقُولُنَّ: اللّه»[٣٥]؛ «وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوات والأرضَ؟ لَيَقولُنَّ: خَلَقَهُنَّ العَزِيزُ العَلِيمُ»[٣٦]؛ «وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ منَ السَّماءِ ماءً فَأحْيا بِهِ الأرضَ مِنْ بَعْدِ مَوتِها؟ لَيَقُولُنَّ: اللّه»[٣٧].

وإذا سألهم محمّد: مَن يدبّر هذا الكون العظيم؟ ومَن يحيي الأرضَ؟ ومَن بيدِه كلُّ شيء؟ ومَن يفعل الخيرَ والشرّ؟ سيقولون: اللّه. قال: «قُلْ: مَنْ رَبُّ السَّمَواتِ السَّبع، وربّ العرْشِ العظيم؟ سيقولون: اللّه»[٣٨]؛ «قُلْ: مَن بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كلِّ شيْءٍ؟ سيقولون: اللّه»[٣٩]؛ «قُلْ: مَنْ يُخرجُ الحَيَّ مِنَ المَيتِ؟ ويُخرجُ المَيتَ مِنَ الحَيِّ؟ وَمَنْ يُدَبِّرُ الأمْرَ؟ فسيقولون: اللّه»[٤٠]. و«إذا فَعَلُوا فاحِشَةً، قالُوا: وَجَدْنا عَلَيْهَا آبَاءَنَا. وَاللّهُ أمَرَنَا بِهَا»[٤١].

فوثنيّة العرب، إذاً، «أمْسَتْ شَكْلِيّة»[٤٢].

---

(٣٤) سورة لقمان ٣١/٢٥؛ الزمر ٣٩/٣٨؛ الزخرف ٤٣/٨٧.

(٣٥) سورة العنكبوت ٢٩/٦١.

(٣٦) سورة الزخرف ٤٣/٩.

(٣٧) سورة العنكبوت ٢٩/٦٣.

(٣٨) سورة المؤمنون ٢٣/٨٥.

(٣٩) سورة المؤمنون ٢٣/٨٨.

(٤٠) سورة يونس ١٠/٣١.

(٤١) سورة الأعراف ٧/٢٨.

(٤٢) حسين هيكل، حياة محمّد، ص ٨٩.

فـلا الشرّك، إذاً، ولا جـهل الله، ولا إنكار وجوده، ولا الوثنيّـة بمعناها المألوف، كان موجوداً في مكّة. ولئن طاب لبعض أهل الأخبار وكتّاب السِّير إثبات غيـر ذلك، فهو من قبيل إظهار النّور على الظلمة، وإظهار العلم بعـد الجهل، وبَيان الإيمان بعد الكفر. فـمكّة، وبصريح الكلام، لم تكنْ، في أيّام النّبيّ، مشركة، ولا وثنيّة، ولا جاهلة للّه.

مكّة كانت مؤمنة باللّه الواحد، الخـالق. ولكنْ كانت تتقرّب إليه بالصّـور والتمـاثيل. وكانت تتـعبّـد له بواسطة الملائكة والقـدّيسين والأوليـاء. وكانت، قَبْـلَ محمّـد وبعده، وحـتّى اليوم، تـقبّل الحجر الأسودَ التماساً لمغفرة الذنوب والتطهير اللّذين لا يُلتمسان إلاّ مِن اللّه مباشرة.

وما كـانت معرفة مـحمّد بالرّهبان الـنّصارى، الّذين أتينا على ذكر بعضٍ منهم، والتجاؤه إليهم في ملمّـاته، وصعوباته، وأمراضه، إلاّ شاهداً على معـرفة محمّـد بالنّصرانيّة، أو، ربّما، على نصـرانيّته أيضاً. وإجلال القرآن العربي للرهبان والقـسّيسين والحياة الرهبانيّة دليل على محبّته لهم ورضاه عنهم وتقديره أيضاً.

ثانياً - الإسلامُ قَبْلَ الإسلام

في معتقد المسلمين «إنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللّهِ الإسْلامُ»[٤٣]، و«مَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإسْلامِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْه»[٤٤]، و«مَنْ يُرِدِ اللّهُ أنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ للإسْلامِ»[٤٥]، و«هُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ»[٤٦]. والإسلام هو الدِّين التّام الكامل الذي ارتضاه اللّه لعباده المؤمنين برسالة محمّد: «وَأَتْمَمْتُ عَلَيكُمْ نِعْمَتِي، وَرَضِيتُ لَكُمُ الإسْلامَ دِينًا»[٤٧]. وهو نعمة من اللّه يمنّ بها على المؤمنين، الذين يشكرونه عليها: «لا تَمُنُّوا عَلَيَّ إسْلامَكُمْ؛ بَلِ اللّهُ يَمُنُّ عَلَيكُم»[٤٨].

فالإسلام، إذاً، هو دين اللّه، ولا دين سواه مقبول عنده. وهو الدين الذي بشّر به محمّد بين العرب.

غير أنّ أسئلةً كبيرة يتحتّم علينا طرحها، وهي: هلِ الإسلام، حقّاً، دين جديدٌ؟ وهل كان محمّد أوّل مَن دعا إليه؟ وبتعبير آخر: هل من خلاف بين تعاليم «النصرانيّة» التي عاش محمّد في رعايتها، وتعاليم الإسلام في القرآن العربي؟ هل الإسلامُ العربي وُجد من لا

---

(٤٣) سورة ال عمران ٣/ ١٩.

(٤٤) سورة آل عمران ٣/ ٨٥.

(٤٥) سورة الأنعام ٦/ ١٢٥.

(٤٦) سورة الزمر ٣٩/ ٢٢.

(٤٧) سورة المائد ة ٥/ ٣.

(٤٨) سورة الحجرات ٤٩/ ١٧.

شيء؟ أم أنّه الإسم العربي للنصرانيّة؟ ألقرآن وحدَه يملك الجواب، وعليه معتمدنا.

نقول، بادئ ذي بدء: إنّ معنى كلمة "إسلام" ومشتّقاتها في القرآن غير معناها الذي أصبح لها في التاريخ الإسلامي اللاّحق. والمعنى القرآني أوّل، وهو المقبول؛ فيما المعنى اللاّحق فيه نظر.

"ألإسلام"، في القرآن، يعني دينَ النّبيّين السابقين، ودينَ أولئك الذين اتّبعوا محمّداً من دون أن يفرّقوا بين نبيّ ونبيّ، أو بين كتاب وكتاب. إنّه دين الذين وحّدوا اللّه، ورفضوا الشرك والأوثان، وآمنوا باليوم الأخير.

والمسلمون الحقيقيّون هم الذين لا يزالون على إيمان مَن أسماهم القرآن "أهل كتاب"، قبل أن يتفرّقوا شيَعاً وفرَقاً وأحزاباً. قال: «قلْ: يَا أهلَ الكتَابِ! لَستُمْ علَى شَيءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّورَاةَ وَالإِنْجيلَ ومَا أُنْزِلَ إلَيكُمْ مِنْ رَبِّكُم»(٤٩).

وأنبياء التّوراة، جميعُهم، مع عيسى وتلاميذه، كانوا مُسلمِين، قبل الإسلام؛ وحتّى الجِنّ وفرعون والسحرة تمنّوا أن يكونوا مُسلمين :

فنوح، أوّلُ رسولٍ إلى أهل الأرض، دعاه اللّهُ إلى أنْ يكون من المسلمين. قال: «أُمِرتُ أنْ أكُونَ **مِنَ المُسْلِمِينَ**»(٥٠).

(٤٩) سورة المائدة ٥/٦٨.

(٥٠) سورة يونس ١٠/٧١.

وإبراهيم، لم يكن يهوديًا ولا نَصرانيًا، بل كان مُسلماً حقيقيًا. قال: «مَا كانَ إبراهيمُ يهوديّاً، -ولا نَصرانيّاً-. ولَكِنْ كَانَ **حَنِيفاً مُسْلِماً**. ومَا كَانَ من المُشرِكين»[٥١]. و «إذ قَالَ لهُ رَبُّه: **أَسْلِمْ**. قَالَ: **أَسْلَمْتُ** لِرَبِّ العَالمِينَ»[٥٢].

وإبراهيم وابنُه **إسماعيل** يصلّيان إلى اللّه أن يجعلهما وذرِّيَّتَهما مسلمين: «رَبَّنا! تَقبَّلْ منَّا. إنّكَ السَّميعُ العَلِيم. رَبَّنا! وَاجْعَلْنا **مُسْلِمَينِ** لَكَ. ومن ذرِّيَّتِنا أُمَّةً **مُسْلِمَةً** لَكَ»[٥٣]. وعنهما قال القرآنُ أيضاً: «فلمّا **أَسْلَمَا** وَتَلَّهُ للْجَبِينِ» (أي صرعه عليه)[٥٤].

وعن قرى **قوم لوط** قال: «مَا وَجَدْنا فِيها غَيرَ بَيتٍ **مِنَ المُسْلِمِينَ**» (هو بيت لوط وابنتَيه)[٥٥].

ويعقوب أيضاً يُوصي بنيه قُبَيل موته قائلاً: «يَا بَنيَّ! إنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لكُمُ الدِّينَ. فلاَ تَمُوتُنَّ إلاَّ وَأَنتُمْ **مُسْلِمُونَ**»[٥٦].

وبنو يعقوب كانوا لأبيهم أوفياءَ فاستجابوا لوصيّته، وقالوا: «نَعْبُدُ إلهَكَ وإلهَ آبائِكَ إبراهيمَ وإسماعيلَ وإسحقَ، إلَهاً وَاحِداً. **وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ**»[٥٧].

---

(٥١) سورة آل عمران ٣/٦٧.

(٥٢) سورة البقرة ٢/١٣١.

(٥٣) سورة البقرة ٢/١٢٧-١٢٨.

(٥٤) سورة الصافات ٣٧/١٠٣.

(٥٥) سورة الذاريات ٥١/٣٦.

(٥٦) سورة البقرة ٢/١٣٢.

(٥٧) سورة البقرة ٢/١٣٣.

ويوسف الصدِّيق يصلِّي إلى ربِّه قائلاً: «ربِّ!.. أنتَ وليِّي في الدنيا والآخرة. تَوَفَّنِي **مُسْلِماً**، وألحِقْني بالصَّالحِين»[٥٨].

و**موسى** أيضاً يقول لشعبه: «إنْ كنتُم آمَنتُم باللَّه فَعَليه تَوكَّلوا إنْ كنتُم **مُسْلِمِينَ**»[٥٩].

وحتّى **فرعون**، الذي حاول أن يتوب إلى اللَّه قَبْلَ أن يُدركَه الغَرَق، أعلَن إسلامَه. قال: «لا إلهَ إلاَّ الَّذي آمَنَتْ بِهِ بَنو إسْرَائيل. **وَأَنَا مِنَ المُسْلِمِينَ**»[٦٠].

و**السَّحَرةُ** أيضاً اعترفوا أمام فرعون، وطلبوا من اللَّه أن يُميتَهم مُسلِمِين. قالوا: «رَبَّنا أفْرِغْ عَلَينا صَبْراً. وَتَوَفَّنَا **مُسْلِمِينَ**»[٦١].

وكذلك **الجِنّ**، منهم مسلمون ومنهم ظالمون، قالوا: «وَأَنَّا **مِنَّا المُسْلِمُونَ**، ومِنَّا القاسِطونَ (أي الجائرون). **فَمَنْ أسْلَمَ** فأولئكَ تَحَرَّوا رَشَداً (أي قصدوا طريقَ الحقّ). وأمَّا القَاسِطُونَ فكانوا لجَهَنَّمَ حَطَباً»[٦٢].

واعترف **سليمان** أنّه كان مسلماً، من قبلُ أن يلتقي ببلقيس ملكة اليمن. قال: «وَأُوتِينا العِلْمَ مِنْ قَبْلِها. **وَكُنَّا مُسْلِمِينَ**»[٦٣]. وقال القرآنُ عنه: «إنَّه مِن سُليمانَ، وإنَّه بسمِ اللَّهِ الرَّحمنِ الرَّحيمِ، ألاَّ تَعلُوا

---

(٥٨) سورة يوسف ١٢/١٠١.

(٥٩) سورة يونس ١٠/٨٤.

(٦٠) سورة يونس ١٠/٩٠.

(٦١) سورة الأعراف ٧/١٢٦.

(٦٢) سورة البقرة ٢/٢٤.

(٦٣) سورة النمل ٢٧/٤٢.

عليَّ وَأْتُونِي **مُسْلِمِينَ**»[٦٤]؛ وقال أيضاً: «يا أيُّها الملأ! أيُّكُم يأْتِيني بِعرشِها (أي بلقيس ملكة اليمن) قبلَ أنْ يَأْتُونِي **مُسْلِمِينَ**»[٦٥].

وبلقيس نفسُها أعلنت إسلامَها مع سليمان، فقالت: «ربِّ! إنِّي... **أَسْلَمْتُ** مَعَ سُلَيمانَ للَّهِ ربِّ العَالَمِين»[٦٦].

وأنبياء بني إسرائيل، جميعُهم، يحكمون على ما في التَّوراة من هدى ونور. قال: «إنَّا أنزَلْنا التَّوراةَ فيها هدًى ونورٌ. يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ **أَسْلَمُوا** للَّذِين هَادُوا»[٦٧].

وقال عن **الحَوارِيِّين** الذين شهَّدوا عيسى على إسلامهم: «فلمَّا أَحَسَّ عيسى منهم الكُفرَ، قال: مَن أنْصَاري إلى اللَّه؟ قال الحَوَارِيُّون: نَحنُ أنصَارُ اللَّهِ. آمَنَّا باللَّه. وَاشْهَدْ (يا عيسى) **بِأنَّا مُسْلِمُونَ**»[٦٨]. وفي المعنى نفسه، قال أيضاً: «وَإذْ أَوْحَيتُ إلَى الحَوَارِيِّينَ أنْ آمِنُوا بي وبرَسُولي (عيسى). قَالُوا: آمَنَّا. وَاشْهَدْ (يا عيسى) **بِأنَّنَا مُسْلِمُونَ**»[٦٩].

أمَّا **الأنبياء العرب** الذين يتكلّم عليهم القرآن، مثل: **هُود**، نبيّ عاد: ٧ مرّات[٧٠]، **وصَالِح**، نبيّ ثمود: ١١ مرّة[٧١]، **وشُعَيب**، نبيّ

---

(٦٤) سورة النمل ٢٧/ ٣٠-٣١.

(٦٥) سورة النمل ٢٧/ ٣٨.

(٦٦) سورة النمل ٢٧/ ٤٤.

(٦٧) سورة المائدة ٥/ ٤٤.

(٦٨) سورة آل عمران ٣/ ٥٢.

(٦٩) سورة المائدة ٥/ ١١١.

(٧٠) أنظر: **٧**/ ٦٥؛ **١١**/ ٥٠ و٥٣ و٥٨ و٦٠ و٨٩؛ **٢٦**/ ١٢٤.

مِـدْين: ١١ مـرّة أيضـاً[٧٢]، فلم يشـر القـرآن إلـيـهم مـرّةً إلى أنَّهم مـسلمين. وهذا أيضاً دليلٌ آخـر على أنّ "الإسـلام" هو دين أنبيـاء التوراة والإنجيل.

و **"أهلُ الكتاب" جـميـعُهم**، بحسب ما جـاء في القرآن عنهم، يَهوداً كانوا أم نَصارى، كانوا مُسلِمين :

قال : «قُلْ يَا أهلَ الكتـاب! تعالَوا إلى كلمةٍ سَـواءٍ بَينَنا وبَينَكم: ألاَّ نَعْبُدَ إلاَّ اللَّهَ. وَلا نُشرِكَ به شَيئاً. وَلا يَتَّخِذَ بعْضُنا بعْضاً أرْباباً مِن دُونِ اللَّه. فَإنْ تَوَلَّوا فقُولوا: إشْهَدُوا **بأنَّا مُسْلِمُونَ**»[٧٣].

وقال أيضاً عن أهل الكتاب الذين «قالوا: لن يَدخُلَ الجنّةَ إلاّ مَن كان هوداً -أو نصارى-. تلك أمَانِيُّهُمْ... بلى **مَنْ أسْلَمَ وَجْهَهُ** للّهِ وهو مُحْسِنٌ فلَهُ أجْرُهُ عندَ رَبِّه»[٧٤]؛

وأيضاً : «ومَن أحسنَ ديناً **ممَّنْ أسْلَمَ وَجْهَهُ** للّه وهو مُحْسِنٌ، وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إبراهيمَ حنيفاً، واتَّخذَ اللّهُ إبراهيمَ خَليلاً»[٧٥]؛

وأيضاً : «**وَمَنْ يُسْلِمْ وَجْهَهُ** إلى اللّهِ وهو مُحْسِنٌ فقد استَمسَكَ بالعروة الوُثقى. وإلى اللّه عاقِبةُ الأمُور»[٧٦]؛

---

(٧١) أنـظـر : **٧**/٧٣ و٧٥ و٧٧ و١٨٩ و١٩٠؛ **١١**/٦١ و٦٢ و٦٦ و٨٩؛ **٢٦**/١٤٢؛ **٢٧**/٤٥.

(٧٢) أنظر : **٧**/٨٥ و٨٨ و٩٠ و٩٢ (مـرّتين)؛ **١١**/٨٤ و٨٧ و٩١ و٩٤؛ **٢٦**/١٧٧؛ **٢٩**/٣٦.

(٧٣) سورة آل عمران ٣/٦٤.

(٧٤) سورة البقرة ٢/١١١-١١٢.

(٧٥) سورة النساء ٤/١٢٥.

(٧٦) سورة لقمان ٣١/٢٢.

وأيضاً : «وَمَن أحسنُ قولاً ممّنْ دَعَا إلى اللَّهِ وعَمِلَ صالحاً، وقال: **إنّني مِنَ المُسْلِمِينَ**»(٧٧).

وأيضاً : «ولاَ يَأْمُرُكُمْ أنْ تَتَّخِذُوا الملائِكَةَ وَالنّبيِّينَ أرْبَاباً. أَيَأْمُرُكُم بِالكفرِ بعدَ **إذْ أنْتُمْ مُسْلِمُونَ**؟!»(٧٨).

***

وثمّة أيضاً آيات أخرى، حيث ترد كلمة "**إسلام**" ومشتقّاتها، تدلُّ على أنّ مسلمي مكّة، كأهلِ الكتاب، هم الذين يؤمنون بإلهٍ واحد، ويأخذون بتعاليم التوراة والإنجيل والقرآن، ويؤمنون برسالة النبيِّين السابقين جميعِهم، ولا يفرّقون بينهم.

والمسلمون الحقيقيّون، في تعريف القرآن، كالنّصارى من أهلِ الكتاب، هم الذين "يوحِّدون" و"لا يفرِّقون"، و"يُقيمون الكتابَ كلَّه" ولا يُميِّزون، ويؤالفون بين الشيع والأحزاب المختلفة ولا يتحزَّبون. إنّهم «أمّة وسط» بين اليهود "الظالمين»، والمسيحيّين "المغالين"، أمّة «مقتصدة» في عقيدتها.

قال النَّصارى : «إنَّا كنَّا مِن قَبْلِه (أي القرآن) **مُسْلِمِينَ**»(٧٩).

وقال عنهم : «هُوَ سَمّاكُمُ **المُسْلِمِينَ** مِنْ قَبْلُ وَفِي هذا»(٨٠).

وقال اللّهُ عنهم لمحمَّد : «وَمَا أرْسَلْنَاكَ إلاَّ رَحمَةً للعالمِين. قلْ:

---

(٧٧) سورة فصّلت ٤١/٣٣.

(٧٨) سورة آل عمران ٣/٨٠.

(٧٩) سورة القصص ٢٨/٥٢.

(٨٠) سورة الحج ٢٢/٧٨.

إنَّما يُوحَى إليَّ إنَّما إلهُكُم إلَهٌ واحدٌ. فهلْ أنتُمْ **مُسْلِمُونَ**؟»[٨١].

وقال محمّد لأتباعه: «وَلا تُجادلوا أهلَ الكتاب إلاَّ بالتي هي أحسنُ إلاَّ الَّذينَ ظَلَمُوا منْهُمْ. وَقُولُوا: آمَنَّا بالذي أُنْزِلَ إلينَا وَأُنْزِلَ إليكُمْ. وَإلهُنا وَإلهُكم واحِدٌ. وَنَحْنُ لَهُ **مُسْلِمُونَ**»[٨٢].

***

فعلى مثال نوح، وإبراهيم، وإسماعيل ابنِه، ويعقوب، وبنيه الأسباط الإثنَي عشر، ويوسف الصدّيق، والنَّبيَّين موسى وسليمان، وملكة اليمن بلقيس، وفرعون والسحرة، والجِنّ، والحوارِيِّين رسلِ عيسى الإثنَي عشر، والأنبياءِ وأهلِ الكتاب كافّةً، يهودٍ ونصارى، في مختلف شيعهم وأحزابهم... يكون أتباعُ محمّد، ويقولوا : «آمنَّا باللَّه، ومَا أُنزِلَ إلينَا، ومَا أُنزِلَ إلَى إبْرَاهيمَ، وإسْمَاعيلَ، وإسْحَقَ، ويَعْقوبَ، والأسْباطِ، ومَا أُوتِيَ مُوسَى، وعِيسَى، ومَا أُوتِيَ النَّبيُّونَ مِنْ ربِّهم. **لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أحَدٍ مِنْهُمْ. وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ**»[٨٣].

ويدعوهم القرآنُ أيضاً إلى أن يؤمنوا باللّهِ وبكتبه، وبألاَّ يُفَرِّقوا بين أحدٍ من النّبيّين. وبذلك يكونون مسلمين حقيقيّين. قال: «قلْ: آمَنَّا باللَّهِ، ومَا أُنْزِلَ علَينا، ومَا أُنْزِلَ علَى إبْراهيمَ وإسْماعيلَ وإسْحقَ ويعْقوبَ والأسْباط، ومَا أُوتِيَ مُوسَى وعِيسَى والنَّبيُّون مِن ربِّهم. **لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أحَدٍ مِنْهُمْ. وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ**»[٨٤].

---

(٨١) سورة الأنبياء ٢١/١٠٧-١٠٨؛ أنظر أيضاً سورة النمل ٢٧/٩١-٩٢.

(٨٢) سورة العنكبوت ٢٩/٤٦.

(٨٣) سورة البقرة ٢/١٣٦.

(٨٤) سورة آل عمران ٣/٨٤.

ويدعو محمّدٌ أتباعَه بألاّ يتفرّقوا كما تفرّق بنو إسرائيل. ولا يتبعوا أيّ فريق منهم. بل ليتّقوا اللّه. ولا يموتُنّ إلاّ على الإسلام. قال: «يَا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا! إتَّقُوا اللّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ. وَلاَ تمُوتُنَّ إلاَّ **وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ**»(٨٥).

***

وثمّة آيات أخرى أيضاً تدلّ على أسبقيّة الإسلام الحقيقي، أي الإسلام البيبلي على الإسلام العربي. وهي آياتٌ تشير إلى أنَّ محمّداً نفسَه أعلنَ انضمامَه إلى الإسلام البيبلي السابق على الإسلام العربي، ودعا إلى إقامةِ أحكامه، والالتحاقِ به. وهو، على ما يبدو، أمرٌ إلهيّ(؟).

قال : «وَأُمِرْتُ (؟) أنْ أَكُونَ منَ **المُسْلِمِينَ** (أي من نصارى مكّة)، وأنْ أَتْلُوَ القرآنَ»(٨٦). فأيّ أمرٍ هو؟ وأمْرُ مَن؟ ومَن هم المسلمون الذين سيكون محمّد منهم؟ وأيّ قرآن موجود مدعوٌّ إلى تلاوته؟ وقال أيضاً : «أُمِرْتُ (؟) أنْ **أُسْلِمَ** لرَبِّ العالَمِينَ»(٨٧).

ثمّ اشتدّ عليه الأمر (؟)، ودعا (؟)هُ إلى أن يكونَ رأسَ المسلمين، وإمامَهم، والمسؤولَ عنهم، وسيّدَهم، وقائدَهم، ووليَّ أمرِهم، وبكلمة: أوّلَهم. قال: «وأُمِرْتُ (؟) لأَنْ أَكُونَ **أوَّلَ المُسْلِمِينَ**»(٨٨).

---

(٨٥) سورة آل عمران ٣/ ١٠٠-١٠٤.

(٨٦) سورة النّمل ٢٧/ ٩١-٩٢.

(٨٧) سورة غافر ٤٠/ ٦٦.

(٨٨) سورة الزمر ٣٩/ ١٧.

وقـال أيضـاً وبالمعـنى نفـسـه: «وَإِنِّي أُمِـرْتُ (؟) أنْ أكُـونَ **أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ**»[٨٩]. وكـذلـك قـال مـرددّاً: «وبِذَلكَ **أُمِـرْتُ** (؟) **وَأَنَا أَوَّلُ المُسْلِمِينَ**»[٩٠].

هذه **الأولويّة**، Priorité، كما هو واضح، ليست **أوّليّة** زمنيّة، Primauté، بل هي أولويّة في المقام والمسؤوليّة. ويُستبعد جدّاً أن تكون أوّليّة زمنيّة بعدما أثبت القرآنُ نفسُه أسبقيّةَ الإسلام البيبلي على الإسلام العربي؛ وأسبقيّة إسلام النبيّين والنصارى من أهلِ الكتاب على إسلام محمّد وأتباعه.

هذا **الأمر**، المتواتر على محمّد، هل هو من اللّه مباشرة، كما يقول المسلمون اليوم؟ أم هو من شخصٍ آخر يتكلّم باسم اللّه، كما هو واضح في دور القسّ ورقة، ابنَ عمّ السيّدة خديجة، زوج النبيّ، وأقرب المقرَّبين إلى محمّد، وخبير بمعرفة ناموس موسى وعيسى؟ قسُّ مكّة هذا هو الذي قام بـ **الأمر الإلهي**، أمرِ التبليغ والإنذار.

لهذا، ليس للمسلمين اليوم حجّةٌ في أن يضيّعوا على الإسلام الحقيقي زمناً سابقاً على الزمن الذي حدّدوا هم فيه نشأتَه. وليس لهم أن يدّعوا الإسلام كأنّه أعطي لهم من دون سواهم. وليس لهم أخيراً أن يكونوا على غير ما كان عليه محمَّد وصحبُه في مكّة.

***

(٨٩) سورة الأنعام ٦/ ١٤.

(٩٠) سورة الأنعام ٦/ ١٦٣.

هذا الإسلام السابق، **إسلامُ مكّة**، أي دين هو؟

إذا تفحّصنا جيّداً تعاليمَ القرآنِ المكِّي وتعاليمَ النَّصرانيّة التي كانت تعيش في مكّة والجزيرة العربيّة آنذاك، نجدها تعاليم واحدة مشتركة :

ألإسلام المكِّي لا يختلف عن النّصرانيّة المكّيّة في شيء، بل هو هذه النّصرانيّة عينها : يعتقد معتقدَها، يُقيم كتبَها، يدعو دعوتَها، يتْبع أنبياءَها، يؤمن بإيمانِها، يرفع شعارَها، يسير بموجب شريعتها، يمارس فروضَها، واحداً فواحداً.

والأجدر القول: إنَّ النصرانيّة والإسلام المكِّيّين دين واحد باختلاف الإسم. أو قل: إنّ الإسلامَ المكّي هو الاسمُ العربيّ للنصرانيّة المكّيّة.

هذا الإسلام-النَّصراني هو الدِّين الذي ارتضاه اللّه لعباده : «أليومَ أكْملْتُ لكُم دِينَكُم، وأتممْتُ عليكُم نِعْمَتِي، ورَضِيتُ لكُمُ **الإسْلامَ** دِيناً»[٩١]. ولا دين عند اللّه مقبول سواه: «مَن يبْتَغِ غيرَ **الإسْلامِ** دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنه»[٩٢]، و«إنَّ الدِّينَ عند اللّهِ **الإسْلامُ**»[٩٣]، و«مَن يُرِدِ اللّهُ أنْ يَهْدِيَه يَشْرَحْ صَدرَه **للإسْلامِ**»[٩٤]، وهو نعمةٌ من اللّه يُمَنّ عليها، ولا يُمَنُّ عليها سواه : «لا تَمنُّوا عليَّ **إسْلامَكُمْ**، بلِ اللّهُ

---

(٩١) سورة المائدة ٥/٣.

(٩٢) سورة آل عمران ٣/٨٥.

(٩٣) سورة آل عمران ٣/١٩.

(٩٤) سورة الأنعام ٦/١٢٥.

يَمَنُّ علَيكُم»[٩٥]؛ لأنَّه جعلَ محمّداً وأتباعَه على الصراط المستقيم، أي على إسلام النّبيّين السابقين، كالنصارى أنفسهم.

هذه الآيات وغيرها، حيث ترد لفظة «**إسلام**» ومشتقّاتها، تدلّ، مرّة أخرى، على أنّ الإسلام، في نظر القرآن، ليس ديناً مستقلاً عن دين النّصارى من أهل الكتاب؛ وأنّ الإسلام الحقيقي كان قبل الإسلام الذي يقول به المسلمون؛ وأنّ الوحي فيه ليس خاصّاً به، بل استمرارٌ للوحي السابق؛ وأنّ تعاليمه وعقيدَته وطقوسه هي نفسها تعاليم النّصرانيّة وعقيدتها وطقوسها.

***

أمّا **الإسلام اللاّحق** فقد أصبح ديناً مستقلاً، إلى جانب اليهوديّة والمسيحيّة، ديناً له من اليهوديّة موقفاً معادياً؛ ومن النَّصرانيّة، حين نشأته، موقفَ قَبول، ومن المسيحيّة موقف تكفير.

هذه الإستقلاليّة فرضتْ، في التاريخ الإسلامي اللاّحق، حالتَين غريبتَين كلَّ الغرابة : حالة صراع رقّم تاريخ العلاقات بين المسيحيّين والمسلمين إلى الأبد؛ وحالة «حوار ديني» كاذب، حاول فيه الطرفان تقريب وجهات النّظر المختلفة، من دون جدوى.

والحالتان ليستا من إسلام مكّة في شيء. فإسلام مكّة ليس ديناً مستقلاً عن «النصرانيّة» حتّى يتصارعا؛ ولا هو يهادن «المسيحيّة» حتّى يتحاورا.

---

(٩٥) سورة الحجرات ١٧/٤٩.

لهذا يتحتّم على المسلمين اليوم أن ينظروا إلى الإسلام الأصل، إسلام مكّة، نظرتهم إلى حركةٍ روحيّةٍ إجتماعيّةٍ تصحيحيّةٍ ثوريّةٍ في مجتمع مكّة. ويتحتّم أيضاً على المسيحيّين اليومَ أن يتعاملوا مع هذه الحركة المكّيّة التصحيحيّة على أنّها جزء من تاريخهم وتراثهم الديني والاجتماعي.

بهذا الاعتبار يُصبح **الصراع** بين المسيحيّة والإسلام اليوم صراعاً سياسيًا لا أكثر ولا أقلّ. وبالاعتبار أيّاه يصبح **الحوار** بين المسيحيّة والإسلام كحوار مَن يكلّم نفسَه. وبالتالي، لا مكان بين النصرانيّة والإسلام، لا للصراع ولا للحوار، لأنّ النصرانيّة **تحتوي** الإسلام؛ والإسلامَ ثورةٌ إجتماعيّة في قلب النصرانيّة.

ونردّد، فنقول : إنّ كلّ ما في الإسلام اليوم ممّا لا يقبل به المسيحيّون ، وكلّ ما في المسيحيّة اليوم ممّا لا يقبل به المسلمون، يعود إلى تلك النّصرانيّة العربيّة التي كانت في مكّة ؛ كما يعود إلى المجتمع الجديد الذي أسّسه محمّد بموجب معطيات ذاك الزمان.

وإذا شاء أحدُنا أن يفهم حقيقة الأمور، عليه أن يعود إلى تلك البدايات، ويتخطّى "تنزيلات جبريل" ، وأن يعود إلى تلك الأسباب التاريخيّة والاجتماعيّة والدّينيّة التي نشأ الإسلام في ظلّها. عند ذاك تبدأ مسيرةٌ جدّيّة، جديدةٌ، جديرةٌ بالبقاء. والعودة إلى البدايات تعني، في ما تعني، الوقوف على ما في القرآن من تعاليم التوراة والإنجيل، وتعاليم آباء الكنيسة، ومجامعها، وشيعها المختلفة.

ثالثاً - النّصرانيّة والحنيفيّة والإسلام

ما يثبت لنا أسبقيّة الإسلام الحقيقي على الإسلام العربي أخذُ محمّد بدين إبراهيم الحنيف. والحنيفيّة صفة لِمَن «حَنَفَ»، أي مَالَ عن دين آبائه. فإذا كان آباؤه مُؤمنين موحّدين، ثمّ حنف عنهم، يكون «الحنيف»، بهذا المعنى: وثنيًا مشركاً. وإذا كان آباؤه وثنيّين مشركين، ثمّ حنف عنهم، يكون، مؤمنا موحّداً. لهذا تعني لفظة «حنيف» الشيءَ وضدَّه. فهي، في العربيّة، تعني المؤمن الموحّد، وهي صفة إبراهيم خليل اللّه؛ وتعني، في السريانيّة، الوثنيّ المشرك، وهي صفة عابدي الأصنام.

ترد لفظة «حنيف» ومشتقّاتها، في القرآن العربي، اثنتَي عشرة مرّة[٩٥]. منها ما هو مكّي، ومنها ما هو مدني. منها ما جاء مع ذكر إبراهيم وملّته، ومنها ما جاء في وصف الدّين الذي دعا إليه محمّد. منها ما جاء مطلَقاً على كلّ دين أو مذهب يدعو إلى التّوحيد ويرفض الشرك والأصنام، ومنها ما جاء وصفاً للدّين القيّم والصراط المستقيم. إلاّ أنّها جميعها تحمل معنى التوحيد والإيمان القويم.

---

(٩٥) سورة البقرة ٢/ ١٣٥؛ آل عمران ٣/ ٦٧ و٩٥؛ النساء ٤/ ١٢٥؛ الأنعام ٦/ ٧٩ و١٦١؛ يونس ١٠/ ١٠٥؛ النحل ١٦/ ١٢٠ و١٢٣؛ الروم ٣٠/ ٣٠؛ الحج ٢٢/ ٣١؛ البيّنة ٩٨/ ٥.

نستنتج من هذه الآيات ما يلي:

١. إنّ الحنيفيّة ليست ديناً مستقلاً موجوداً في أيّام محمّد، كما هي اليهوديّة والنصرانيّة والمجوسيّة والصابئة؛ بل هي صفة لدين. فالحنيف، في القرآن، صفة لا إسم.

٢. إنّ الحنيف، بنوعٍ خاصّ، صفة لدين إبراهيم وملّته وأتباعه الّذين لم يُشركوا باللّه أحداً، ولم يُظهروا أيّ خلاف فيما بينهم؛ بل هم على «دين القيّمة» أو «الدِّين القيّم»[٩٦]، أي هم على التوحيد المطلق؛ وليسوا أحزاباً متفرِّقين..

٣. إنّ الحنيف صفة لمن ترك الشرك وعبادة الأصنام، واجتنب الرّجس والأوثان، وامتنع عن قول الزور والبهتان[٩٧].

٤. إنّ الحنيف صفة لمن عبد اللّهَ بإخلاص، وأقام الصلاة، وأتى الزّكاة[٩٨]، **وأسلَمَ** وجهَه للّه، وعمل الإحسان[٩٩]، واتّخذ اللّه واحداً أحداً لا شريك معه.

٥. إنّ الحنيف صفة لمن فُطر على الصدق والأمانة. إنّه «فطرة اللّه التي فطر النّاسَ عليها»[١٠٠]، لا تبديل فيه. إنّه إيمان بسيط، لا غشّ فيه ولا مواربة؛ بل إخلاصٌ وإسلامٌ وطاعةٌ.

---

(٩٦) سورة البيّنة ٩٨/٥؛ التوبة ٩/٣٦؛ يوسف ١٢/٤٠؛ الرّوم ٣٠/٣٠ و٤٣.

(٩٧) سورة الحاج ٢٢/٣٠-٣١.

(٩٨) سورة البيّنة ٩٨/٥.

(٩٩) سورة النساء ٤/١٢٥.

(١٠٠) سورة الروم ٣٠/٣٠.

٦. إنّ الحنفاء هم الذين اتّبعوا ملّة إبراهيم[١٠١]، وأُمِر محمّد أن يكون مثلهم وبينهم[١٠٢]، وقد هداه الله إلى ذلك هدياً صادقاً[١٠٣].

٧. إنّ الحنيفيّة صفة لملّة إبراهيم وملّة محمّد على السواء: «ملّة إبيكُمْ إبْرَاهيمَ هُوَ سَمّاكُمْ مُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا (القرآن)»[١٠٤]. وكما كان إبراهيم أوّلَ الحنفاء، أي المؤمنين الموحّدين؛ هكذا هو محمّد أوّل المسلمين، أي المؤمنين الموحِّدين. بل إنّ إبراهيم، كمحمّد، «كانَ حَنِيفاً مُسْلِماً»[١٠٥].

***

هذا في القرآن عن الحنيفيّة. أمّا ما في كتب السِّير والأحاديث فيدلّ، أيضاً وأيضاً، على أنّ الحنفاء هم جماعة من العرب لم يعبدوا الأصنام، ولم يُشركوا بالله، بل سفّهوا عبادة الأصنام والقائلين بها، وكانوا على دين إبراهيم قبل أن يقع خلاف فيما بينهم[١٠٦].

ثمّ ذكرت كتب الحديث إنتماء محمّد إلى الدِّين الحنيف، وإلى اعتباره إيّاه ديناً «سَمحاً»، بخلاف ما هي عليه اليهوديّة «الظالمة». من

---

(١٠١) سورة النساء ٤/١٢٥؛ آل عمران ٣/٩٥.

(١٠٢) سورة النحل ١٦/١٢٣؛ آل عمران ٣/٦٧–٦٨.

(١٠٣) سورة آل عمران ٣/٩٥؛ الأنعام ٦/١٦١.

(١٠٤) سورة الحج ٢٢/٧٨.

(١٠٥) سورة آل عمران ٣/٦٧.

(١٠٦) راجع في ذلك: تاريخ الطبري ١/٤٠٤؛ روح المعاني للألوسي ١/٣٥٢؛ بلوغ الأرب ٢/١٩٦؛ لسان العرب ٩//٥٦؛ ١٠/٤٠٢؛ مجمع البيان للطبرسي ١/ ٤٦٧ و٢١٥؛ الجامع للقرطبي ٣/١٢٨؛ ١٠/١٩٨؛ تفسير البيضاوي ١/١٥٩؛ الكامل لابن الأثير ١/٢٤٤...

ذلك قوله: «بُعِثْتُ بالحنيفيّة السّمحَة السّهلة»[١٠٧]؛ و«أحبّ الأديان إلى اللّه تعالى الحنيفيّة السّمحة»[١٠٨]، و«لم أُبعَثْ باليهوديّة –ولا بالنّصرانيّة[١٠٩]– ولكنّي بُعِثْتُ بالحَنيفيّة السّمِحَة»[١١٠].

وتضيف كتب السِّيرة أنّ الحنيف هو مَن اختتن، وحجّ البيت[١١١]، واستقام على ملّة إبراهيم واتّبعه عليها[١١٢]، واعتزل الأصنام واغتسل من الجنابة[١١٣]، وامتنع عن أكل ذبائح الأوثان وكلّ ما أُهلّ إلى غير اللّه، وحرّم الخمر[١١٤]. قال الطبري: «وكان النّاس مِن مضر يحجّون البيتَ في الجاهليّة يُسمّون حنفاء»[١١٥].

هذه المآثر، هي، كما رأينا، مآثر نصرانيّة، مارسها النّصارى في مكّة. وممّا يثبت ذلك خَلط أهل الأخبار في ما بين الحنفاء والنّصارى. فالقسّ ورقة بن نوفل، تارةً هو نصرانيّ، وطوراً حنيف؛ وكذلك القسّ إبن ساعدة؛ وعثمان بن الحويرث، وزيد بن عمرو بن نفيل.. وغيرهم ممّا ذكرنا آنفاً...

---

(١٠٧) لسان العرب ٩/ ٥١.

(١٠٨) مجمع البيان للطبرسي ١/ ٥١٥؛ الإصابة ١/ ٥١ رقم ١١٤.

(١٠٩) لفظة مقحمة. فالنّصرانيّة توصف، بعكس اليهوديّة، بالسماحة أيضاً.

(١١٠) مسند إبن حنبل ٤/ ١١٦؛ ٦/ ٢٣.

(١١١) لسان العرب ١٠/ ٤٠٢؛ ألزمخشري ١/ ١٧٨ و٢٣٦ و٤٠٧؛ مجمع البيان للطبرسي ١/ ٤٦٧؛ ٣/ ١٠٩؛ تفسير الرازي ١٣/ ٥٧؛ ١٤/ ١٠؛ ١٧/ ٢٧١.

(١١٢) تفسير الطبري ٣/ ١٠٥؛ ٦/ ٣٠٦؛ ٥/ ٢٩٧؛ الجامع للقرطبي ٢/ ١٢٨.

(١١٣) تاج العروس ٦/ ٧٧ مادّة «حنف»؛ ألقاموس ٣/ ١٣٠؛ لسان العرب ٩/ ٥٦.

(١١٤) ألقرطبي ٤/ ١٠٩؛ تاريخ ابن خلدون ٢/ ٧٧؛ تفسير الرازي ٨/ ١٥٠.

(١١٥) تفسير الطبري على سورة البقرة ٢/ ١٣٥.

وفي مروج الذهب للمسعودي ذكرٌ لحنفاء نصارى، منهم: حنظلة بن صفوان، وخالد بن سنان العبسي، ورئاب الشفي، وورقة بن نوفل، وعدّاس النينوي، وأبي قبيس، وصرمة أبي أنس الأنصاري، وأبي عامر الأوسي، وعبد اللّه بن جحش، وبحيرا الرّاهب... هؤلاء وغيرهم هم من الحنفاء كما هم من النصارى(١١٦).

وثمّة حديث للنّبيّ عن القس إبن ساعدة يقول فيه: «هذا رجلٌ من أياد تحنّف في الجاهليّة»(١١٧)؛ ممّا يدلّ على أنّ القسّ النصراني هو نفسه الذي يتحنّف.

ثمّ إنّ الحنيفيّة تطلق على النّصرانيّة كما تطلق على الإسلام؛ وتعني النّصرانيّة كما تعني الإسلام؛ وتوصف بها النّصرانيّة كما يوصف بها الإسلام. فإبراهيم مثلاً كان «حنيفاً مسلماً»؛ و«مَنْ أَسْلَمَ للّه كان حنيفاً»(١١٨)؛ ومَن هداه اللّه إلى الصراط المستقيم جعله حنيفاً(١١٩)؛ ومَن أقام الصلاة وآتى الزّكاة وحجّ إلى بيت اللّه الحرام، واختتن كان حنيفاً ومسلماً(١٢٠).

ينتج من كلّ ذلك أن الحنيف هو المسلم والنّصراني على السوا. ولكأنّ الحنيفيّة والنّصرانيّة والإسلام ثلاثة أسماء، أو صفات، لمسمّى أو موصوف واحد.

---

(١١٦) مروج الذهب للمسعودي، ١/ ٧٨ وما بعدها.

(١١٧) طبقات ابن سعد ١/ ٢ و٥٥.

(١١٨) سورة النساء ٤/ ١٢٥.

(١١٩) سورة الأنعام ٦/ ١٦١.

(١٢٠) سورة البيّنة ٩٨/ ٥.

رابعاً - «ألدِّين القَيِّم»

من بعد الذي رأيناه عن مفـهوم الإسلام الحقيقي، والحنيـفيّة، والنّصرانيّة، الـتي تتميّز عن المسيـحيّة.. بات بوسعنا الآن اسـتجلاء موقف محمّد والقرآن العربي من اليهود والمسيحيّين والنصارى. وإذا تعـمّقنا قليـلاً في موقف القـرآن من كلّ فئـة نستطيع أن نعـرف مَن استـجاب الدّعوةَ الجديدة منهم ومَن تنـكّر لها، مَن اتّبعهـا من العرب ومَن عـاداها. فـالمعنيّـون في القـرآن، إذاً، أربعـة فـئـات: أليـهـود، والمسيحـيّون، والنّصارى، والمتّقون من العرب. وعندمـا نتعرّف على مميّزات كلّ فئة منهم نعـرف عندئذٍ هويّةَ «الدِّين القَيِّم» الذي دعا إليه محمّد وبشّر به.

١. أليهود

تعرّف عليهم محمّد، بعد الـهجرة إلى يثرب. ناصبوه العداء، لا بسبب رفـضـهم نبوَّتَه، كـما يقول أهل السِّـيرة والأخبـار؛ بل بسبب انتصاره للنّصرانيّة، من جهـة غزواته المتكرّرة على قبائلهم في سبيل تحطيم نفوذهم، وسـبي نسائهم، وإستـباحة أمـوالهم، ونهب قراهم ومزارعهم؛ وذلك من أجل رفع مستوى الأذلّة الفقراء من صحابته.

ثمّ راحت العداوة بين محمّد واليهود تتـعمّق أكثر فأكثر، حتّى طالت الدين والمعتقـدات. فاتّهمهم بتحـريف التّوراة، وتغيير ما فـيها حـتّى يُخفـوا منهـا الدِّين الحقـيـقي الذي كان علـيه جـدُّهم إبراهيم

والنّبيّـون فيما بعـد، والذي أتى به محمّد. لذلك كـان يدعوهم إلى أن يؤمنوا بما أُنْزِلَ عليه، فكانوا دائماً يرفضون:

«إذَا قِيلَ لَهُـمْ: آمِنُوا بِما أَنْزَلَ اللّهُ. قـالوا: نُؤمنُ بما أُنْزِلَ علينا. ويَكفُرُونَ بما وَرَاءَه»[١٢١]؛ و«إذا قيل لهم: اتّبعـوا ما أنْزَلَ اللّه. قالوا: بل نتّبعُ ما أَلْفَـينا عليه آبَاءَنَا»[١٢٢]؛ و«إذا قِيل لهم: تَعَالَوا إلى ما أَنْزَل اللّهُ وَإلى الرَّسُولِ. قـالوا: حَسْبُنَا مـا وَجَدْنَا عَليـه آباءَنا». ويقول اللّه تعـالى ردّاً عليـهم: «أَوَلَوْ كـانَ آباؤُهُـمْ لا يَعلَمـونَ شَـيـئـاً وَلا يَهتَدُون؟»[١٢٣]، أي، كما يفسّر الطبـري: «أيَتبعونَ آباءهم ويقلّدونهم ولو كانوا على ضلالةٍ وخطأ»؟

هؤلاء اليهود، في ما هم عليه من رفض وعداء، يصفهم القرآن العربي بـ «الظالمين»[١٢٤]، وبـ «شرّ البريّة»[١٢٥]، و«أوّل كافر به»[١٢٦]. هم «سـمّاعُـونَ للكَذِبِ»[١٢٧]؛ «يُحَـرِّفُونَ الكَلِمَ عَن مَـواضِعِـه»[١٢٨]؛ ويلبسون الحقّ بالبـاطل، ويكتمون الحق[١٢٩]؛ ثم يصدّون النّاس عن سبيل اللّه[١٣٠] من أجل تضليلهم وإغـلاق أبواب الجنّة دونهم. هؤلاء

---

(١٢١) سورة البقرة ٢/ ٩١.

(١٢٢) سورة البقرة ٢/ ١٧٠؛ أنظر أيضاً : سورة لقمان ٣١/ ٢١.

(١٢٣) سورة المائدة ٥/ ١٠٤.

(١٢٤) أنظر : البقرة ٢/ ١٢٤ و١٩٣ و٢٥٨؛ آل عمران ٣/ ٥٧؛ الأنعام ٦/ ٦٨...

(١٢٥) سورة البيّنة ٩٨/ ٦.

(١٢٦) سورة البقرة ٢/ ٤١.

(١٢٧) سورة المائدة ٥/ ٤١.

(١٢٨) سورة النساء ٤/ ٤٦.

(١٢٩) سورة آل عمران ٣/ ٧١.

(١٣٠) سورة آل عمران ٣/ ٩٩.

اليهود كفّــار لا يؤمنون الإيمان الحقّ. «لَعَنَهُمُ اللّهُ بِكُفْرِهِمْ فـ (هم) لا يُؤْمِنُونَ إلاّ قَلِيلاً»[١٣١].

٢. المسيحيّون

هؤلاء أيضاً لم يعـرفهم محمّد في مكّة، ولم يقف عـلى كتابهم الرّسـمي، ولم يطّلع على حقـيـقة عـقيـدتهم. هم يأخذون بالإنجـيل بحـسب رواياته الأربع: مـتّى ومرقس ولوقـا ويوحنّا؛ ويعـتقـدون بألوهيّة المسيح وبنوّته الطبيـعيّة للّه؛ وبأنّه صُلب ومات ثمّ قام؛ وأنّه جاء ليـخلّص العالم ويفتديـه من آثامه وشروره؛ ويعتـقدون بالرّوح القـدس على أنّه ذاتاً إلهيّـة؛ وبكنيـسةٍ أسّـسهـا المسيح لتكمّل سـرّه الخلاصي... غير أنّهم اخـتلفوا فيما بينهم، وتفـرّقوا إلى فِرق وشِيع، عرف منها العربُ ثلاثاً: أليعقوبيّة والنسطوريّة والملكيّة.

إيمانهم بألوهيّـة المسيح جـعلهم، في نظر محـمّد، مغـالين في الدّين، وعلى عداء تامّ معه ومع اليهـود والنّصارى. فهم يختلفون عن اليهـود الذين لا يعتـرفون بنبـوّة عيسـى؛ ويختلفون عـن النّصارى الذين لا يعترفون ببنوّته الطبيعيّة للّه.

ولذلك وصفهم القرآن العربي بـ «الّذِينَ غَلوا فِي الدِّينِ». وهو، لذلك، ينصحهم بقـوله: «يَا أَهْلَ الكِتاب! لا تَغْلُوا فِي دِينِكمْ. وَلا تَقُولُوا عَلَى اللّه إلاّ الحَقَّ: إنّما المَسِـيحُ عِيسَى ابنُ مَريمَ رسولُ الـلّه، وكلمتُه، ألقَاها إلى مَـريمَ، وروحٌ منه. فآمِنُوا باللّهِ ورُسُلِه. وَلا تَـقولُوا: ثَلاثةٌ. انتَهُوا خَيراً لكُمْ. إنّمَا اللّهُ إلهٌ واحِدٌ. سُبْحَانَه أنْ يكونَ له وَلَدٌ. لَهُ مَا في

---

(١٣١) سورة النساء ٤/٤٦.

السّمَوَات ومَا في الأرْضِ. وكَفَى باللّهِ وَكـيلاً. لَنْ يَسْتَنْكِفَ المسيحُ أنْ يَكونَ عبداً للّه...»[١٣٢].

هؤلاء المسيحيّون الّذين تعرّف عليهم محمّد وكفّرهم واعتبرهم مشركين، هم وَفْدُ نَجْران الذي وافى محمّداً ليقدّم له الولاء السياسي، ويقدّم لهم هو، بالمقابل، الأمان، شرط أن يؤدّوا الجزية، ويخضعوا لـ «نظام الذّمّيّة». جادلهم محمّد في أمر ألوهيّة المسيح عيسى، وبنوّته للّه؛ ثم تركهم على إيمانهم إلى حين إيمانهم بتعاليمه. هذا الجدل الديني بين الطرفَين وُزِّع على ثلاث سُوَر: آل عمران ٣/ ٣٣-٦٤؛ ألنساء ٤/ ١٧٠-١٧٢؛ والمائدة ٥/ ٧٥-٨٠ و١١٢-١٢٠؛ فيما هو، في الأصل، حديث واحد، في مناسبة واحدة. وما في سورة التوبة عن الجزيّة ونظام الذّمّيّة، وشروط معاملتهم[١٣٣]، هو توضيح وتشريع وتأكيد للعداء المستحكم .

٣. النّصارَى

هؤلاء يختلفون عن اليهود وعن المسيحيّين على السواء. فهم لا ينكرون نبوّة عيسى كاليهود؛ ولا يقولون ببنوّته للّه كالمسيحيّين. إنّهم «أمّة وسط»[١٣٤]، بحسب تحديد القرآن، «أمّة مقتصدة»[١٣٥] في عقيدتها. يقيمون «الكتابَ كلَّه»[١٣٦]، أي «الكتب»: التوراة والإنجيل.

---

(١٣٢) سورة النساء ٤/ ١٧١-١٧٢؛ أنظر أيضاً: س المائدة ٥/ ٧٢.

(١٣٣) سورة التوبة ٩/ ٢٩.

(١٣٤) سورة البقرة ٢/ ١٤٣.

(١٣٥) سورة المائدة ٥/ ٦٦.

(١٣٦) سورة ال عمران ٣/ ١١٩.

يؤمنون بموسى وعيسى معاً. فهم «مِنْ قَومِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهدُونَ بالحَقِّ وبه يَعدلون»(١٣٧).

فأهل الكتاب ليسوا سَواء؛ بل منهم «أُمَّةٌ قائمَةٌ يَتلُونَ آيات اللّه أنَاءَ اللّيلِ، وهم يَسجُدُون. يُؤمنون باللّهِ واليومِ الآخِرِ. ويأمُرُونَ بالمعروفِ ويَنْهَونَ عَن المُنكر. ويُسارِعونَ في الخَيرَات، وأولئكَ منَ الصّالِحِينَ. وما يَفعَلوا مِن خَيرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ»(١٣٨). ومِنْ أهل الكتاب أيضاً «مَنْ يُؤمِنُ باللّهِ ومَا أُنْزِلَ إليكُمْ ومَا أُنْزِلَ إليهِمْ، خَاشعينَ للّه. لا يَشْتَرُونَ بآيَاتِ اللّه ثَمَناً قَليلاً. أولئكَ لهُمْ أجْرُهُمْ عندَ رَبِّهِم»(١٣٩). هؤلاء يؤتمنون على الكثير الكثير: «وَمِنْ أهْلِ الكِتابِ مَنْ إنْ تأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إلَيكَ»(١٤٠).

هؤلاء، كما رأينا، يصفهم القرآن بالعلم والمعرفة. فهم «الرّاسِخُونَ فِي العِلْمِ.. يُؤمنون بما أُنْزِلَ إليكَ»(١٤١)، وهم «أُولُو العِلْمِ قائماً بالقسط»(١٤٢)، و«الّذينَ أُوتُوا العِلْم»(١٤٣)، و«الّذينَ أُوتُوا العِلْمَ مِنْ قَبْلِه (أي من قَبْلِ القرآن)، إذا يُتْلَى عَليهم يَخِرُّونَ للأذْقَانِ سُجَّداً»(١٤٤). هم يعلمون أنّ القرآن حقٌّ فيؤمنون به: «الّذينَ أوتُوا

(١٣٧) سورة الأعراف ٧/١٥٩ و١٨١.

(١٣٨) سورة آل عمران ٣/١١٥.

(١٣٩) سورة آل عمران ٣/١٩٩.

(١٤٠) سورة آل عمران ٣/٧٥.

(١٤١) سورة النساء ٤/١٦٢؛ آل عمران ٣/٧.

(١٤٢) سورة آل عمران ٣/١٨.

(١٤٣) سورة النحل ١٦/٢٧؛ القصص ٢٨/٨٠؛ الروم ٣٠/٥٦؛ محمّد ٤٧/١٦.

(١٤٤) سورة الإسراء ١٧/١٠٧.

العِلْم (يعلمـون) أنّه (أي القـرآن) الحَقُّ من ربِّكَ، فَـيُـؤمِنوا به»[١٤٥]. والقـــرآن هو «آيَـاتٌ بَيِّنَاتٌ فـي صـــدورِ الـذين أُوتوا العـلم»[١٤٦]، ويفرحون به «بما عندهم من العِلْم»[١٤٧]. لذلك «يرفعُ اللّهُ الّذينَ آمَنوا منـكم (أي من الـعـــرب) والـّذينَ أوتـُوا العِلْـمَ (أي النصـــارى) دَرَجَاتٍ»[١٤٨].

هؤلاء النّصـارى يستـشـهـدهم مـحمّـد على صحّـة رسالتـه وحقيـقة كتابه. فهـم، مع اللّه والملائكة، يشهدون على التّوحـيد ونبذ الشِّـرْك: «شـــهـد اللّهُ أنّه لا إله إلاّ هُوَ، والملائـكةُ، وأُولُو العِلم قـائمـاً بالقِسط»[١٤٩]؛ ويشــهدون على القـرآن بما عندهم من مـثله: «شَهِـدَ شَـاهِدٌ مِنْ بَني إسْـرَائيلَ عَلَى مِـثْلِهِ (أي على مـثل القـرآن العـربي) فَآمَنَ»[١٥٠]. وتَكْفي مـحمّداً شـهادتُهم: «قُلْ كَـفَى باللّهِ شَهِيـداً بيني وَبَينَكُمْ وَمَنْ عِنْدَه عِلْمُ الكِتابِ»[١٥١].

ويومَ يرتاب محمّد من صحّـة ما أُنْزِلَ عليه، يسأل أهلَ الكتاب ليـتـثـبّتَ ممّا يُوحَى إليـه، أو ممّا يقـوله للنـاس. فعـند هؤلاء الدليلُ والبـرهان والحجّـة: «إنْ كُنْتَ في شَكٍّ ممّـا أنْزَلْنَا إليكَ فَاسْـأَلِ الّذينَ يَقْـرَأُونَ الكِتَابَ مِنْ قَـبْلِكَ. لَقَـدْ جَاءَكَ الحَقُّ مِنْ رَبِّكَ. فَـلا تَكُونَنَّ مِنَ

(١٤٥) سورة الحاج ٢٢/ ٥٤؛ سبأ ٣٤/ ٦.
(١٤٦) سورة العنكبوت ٢٩/ ٤٩.
(١٤٧) سورة غافر ٤٠/ ٨٣.
(١٤٨) سورة المجادلة ٥٨/ ١١.
(١٤٩) سورة آل عمران ٣/ ١٨.
(١٥٠) سورة الأحقاف ٤٦/ ١٠.
(١٥١) سورة الرعد ١٣/ ٤٣.

المُمْتَرِينَ (أي الشاكّين). وَلا تَكُونَنَّ مِنَ الّذِينَ كَذَّبُوا بآيَاتِ اللّهِ، فَتَكُونَ مِنَ الخَاسِرِينَ»[١٥٢].

ويومَ يرتاب أتباع محـمّد من صوابيّة رسالتـه يأمرهم بقوله: «فَـاسْـأَلُوا أهْلَ الذِّكْـرِ (أي التـوراة والإنجيل) إنْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُـونَ بِالبَيِّنَاتِ والزُّبُرِ. وَأنْزَلْنَا إليكَ الذِّكرَ (أي القـرآن) لِتُبَيِّنَ للنَّاسِ ما نُزِّلَ إلَيهِمْ»[١٥٣]. وعندما تصـعب الحجّـة على النّبيّ يذهب إليهم ليـحتكم عندهم: «وَلْيَحْكُمْ أهْلُ الإنجيلِ بِمَا أنْزَلَ اللّهُ فيهِ»[١٥٤].

٤. المسْلمون

كـانت الدّعوة إلـى محـمّـد أن يوحِّدَ بين شِـيع بني إسـرائيل وأحزابهم؛ فكان يأمرهم باستمرار: «شَرَعَ لكم منَ الدِّينَ ما وصَّى به نُوحاً، والذي أوحَـينا إليكَ، ومَا وصَّينَا بِهِ إبراهيمَ ومُوسَى وعـيسَى أنْ أقِيمُـوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيـهِ.. وَمَا تَفَرَّقُوا إلاّ مِنْ بَعْـدِ ما جَاءَهُمْ العِلْمُ بَغْياً بَينَهمْ (أي عدواناً بعضـهم على بعض، وحسَداً وعداوة على طلب الدنيا)[١٥٥]. و«اعْتَصِمُوا بحَبْلِ اللّهِ وَلا تَفَرَّقُوا»[١٥٦]

---

(١٥٢) سورة يونس ١٠/٩٤-٩٥.

(١٥٣) سورة النحل ١٦/٤٣-٤٤؛ سورة الأنبياء ٢١/٧.

(١٥٤) سورة المائدة ٥/٤٧. يقول الطبري: «جوّز المفسّرون قراءة "وَلْيَحْكُمْ" بقراءة ثانية: "وَلِيَحْكُمَ"، كـما جوّزوا أيضاً أن يعـود الضمير في «فيـه» إمّا إلى الإنجيل وإمّا إلى القرآن. وكلاهما مصيب.

(١٥٥) تفسير الطبري على الشورى ٤٢/١٣-١٤.

(١٥٦) سورة آل عمران ٣/١٠٣.

وكـان هاجسـه الدائم ألاّ يُقال عنه، كـما قـال فرعـون لأخيـه موسى: «إنّي خَشِيتُ أنْ تَقُولَ فَرَّقْتُ بَينَ بني إسرائيل»[١٥٧]. وقد قيل له: «إنّ الّذينَ فَرّقوا دِينَهُمْ، وَكانُوا شِـيَعاً لَسْتَ مِنْهمْ في شَيْءٍ»[١٥٨]. واستجـاب النّبيّ هذا القول حين قال وردّد: «لا نُفَـرِّقُ بَينَ أَحَدٍ مِنْهُمْ. وَنحْنُ لَهُ مُـسْلِمُـون»[١٥٩]، وقـال أيضـاً: «لا نُفَـرِّقُ بَينَ أحَـدٍ منْ رُسُلِه»[١٦٠]. ووصف أتباعَـه بـ «الّذِينَ آمَنُوا باللّهِ ورُسُلِهِ لَمْ يُفَـرِّقُوا بين أحدٍ منهم»[١٦١]. ونصحهم بأن «لا تَكُونوا مِنَ المُشْرِكينَ مِنَ الّذينَ فَرَّقُوا دِينَهمْ وكـانُوا شِيَعاً»[١٦٢]؛ وأيضاً: «لا تَكونُوا كـالّذِينَ تَفَرَّقُوا واخْتَلَفُوا»[١٦٣].

فـالمسلمـون، إذاً، هم النّصـارى الذين توحّـدوا. أي هم الذين قالوا بتـوحيد الرّسل والأنبيـاء السابقين؛ وقالوا بتوحـيد اللّه نابذين الشّرك والكفر؛ وقالوا بتوحيد الـشِّيَعِ والأحزاب التي فَرَّقَتْهم؛ وقالوا أخيراً بإقـامة التوراة والإنجيل والقرآن دون تميـيزٍ أو تفريق. وبذلك أصبـحوا، كما يقـول عنهم القرآن العربي: «أُمَّـة وَاحِدة»[١٦٤]، و«أمّةً

(١٥٧) سورة طه ٢٠/ ٩٤.

(١٥٨) سورة الأنعام ٦/ ١٥٩.

(١٥٩) سورة البقرة ٢/ ١٣٦؛ آل عمران ٣/ ٨٤-٨٥.

(١٦٠) سورة البقرة ٢/ ٢٨٥.

(١٦١) سورة النساء ٤/ ١٥٢.

(١٦٢) سورةالروم ٣٠/ ٣٢.

(١٦٣) سورة آل عمران ٣/ ١٠٥.

(١٦٤) سورة المؤمنون ٢٣/ ٥٢.

وَسَطاً»(١٦٥)، و«أمّـة مقـتصـدة»(١٦٦)؛ وأصبح إسـمهم «مـسلمين»؛ وكتابهم «القرآن»؛ ودعوتهم «الإسلام»؛ وعقيدتهم «لا إله إلاّ اللّه».

هذا هو «الدِّينُ القَـيِّمُ»(١٦٧)، و«دِينُ القَـيِّمَـة»(١٦٨)، و«الصِرَاطُ المُسْتَقيم»(١٦٩).

فـالنّصرانيّـة والإسلام، إذاً، دينٌ على دين، وإسـمان لمسمّى واحد: مَن يباعد بينهما فهـو على ضلال؛ ومَن يجمع بينهما فهو على ضلال أعظم. الأوّل يعتـبرهما دينَين مختلفَين فلا يتـقاربان؛ والثاني يعتـبرهما ديـنَين مستـقلَّين وإنْ متّفـقَين. ومَن يعتـبر القرآن كـتاب المسلمين وحدهم فهو على ضلال؛ ومَن يقول أيضاً بأنّ القرآن وحده هو كتاب المسلمين فهو على ضلال أعظم.

---

(١٦٥) سورة البقرة ٢/١٤٣.

(١٦٦) سورة المائدة ٥/٦٦.

(١٦٧) سورة التوبة ٩/٣٦؛ يوسف ١٢/٤٠؛ الروم ٣٠/٣٠ و٤٣.

(١٦٨) سورة البيّنة ٩٨/٥.

(١٦٩) يرد هذا التعبير في ٣٧ موضعاً. منها مثلاً: ٢/١٤٢ و٢١٣؛ ٣/٥١ و١٠١؛ ٥/١٦؛ ٦/٣٩ و٨٧، ١٦١؛ ٧/١٦؛ ١٠/٢٥؛ ١١/٥٦؛ ١٥/٤١...إلخ.

الفصل الخامس

حَقُّ القَسِّ عَلَى النَّبِيّ

أوّلاً – في المسيحِ عيسى وأمّه مريم والرّوح القدس

ثانياً – في الفروض والعبادات وشعائر الدّين

ثالثًا – في الحسناتِ والصّدَقات وأعمال البرّ

رابعاً – في الجنّة والنار والحساب وأحوال المعاد

خامساً – في أمثالِ الإنجيل الواردة في القرآن



مقدمة

نظرة القرآن إلى اللّه وكمالاته، وقصّة الخلق منذ المبدأ حتى المَعاد، ووصف عدْن حيث آدم وحواء، وخلق الملائكة، الأخيار منهم والأشرار، واختيارالنّبيّين من نوح إلى إبراهيم، وولديه إسحق وإسمعيل، إلى يعقوب والأسباط الإثني عشر، إلى موسى كليم اللّه، صاحب التوراة وصانع المعجزات، إلى داود صاحب المزامير وسليمان الحكيم، إلى أيّوب الصبور... إلى يحيى بن زكريّا وقصّة ولادته من عاقر، إلى مولد مريم أمّ عيسى ونشأتها في الهيكل بآيات إلهيّة ومعجزات، ثمّ بشارتها بمولد عيسى، وما جاء به عيسى من إنجيل وبيّنات...

كلّ هذه، وغيرها، تناولها القرآن العربي من مصادرها الأساسيّة، التوراة، والمزامير، والتلمود اليهودي، وأناجيل النصارى المنحولة، ومصنّفات آباء الكنيسة السريانيّة، وتقاليد الكنيسة النّصرانيّة في مختلف شيعها...

ثمّة أخبار أخرى في القرآن عن الاسكندر ذي القرنَين، وانتصار الرّوم على الفرس، وقصّة أبناء الكهف، وأخبار بعض العرب البائدة، كعاد وثمود، وبعض التشريعات التي كانت قبل الإسلام... لهذه أيضاً مصادر ومراجع في التّاريخ.

وقصّة مصــادر القرآن العربي ومراجعه تطول، والبــحث فيها يقتضي إلماماً واسعاً وعميقاً بأحوال المجتمع المكّي حيث نشأ محمّد... والمصادر عديدة متــنوّعة، متعدّدة بتعدّد الموضــوعات التي ألمّ القرآن بها وبحث فــيها. وفي مجــملها شَبَــهٌ ومقارنة، بل صلةٌ قــريبة بينه وبينها، حتّــى لكأنّك تظنّ بأنّ ما جاء به جبريــل من «اللّوح المحفوظ» يكاد يكون دعــمــاً لما جــاء به كلٌّ من القسّ والنّبــيّ. وهو هدفٌ عظيمٌ عملا من أجله.

هذا الهــدف العظيم هــو الذي دعــاني إلى هذا البــحث وحــثّني عليه. به توصّلت إلى القول بأن الإسلام هو دين «**التوحيد**» بامتياز: توحيــد العقــيدة، وتوحيــد الله، وتوحيــد الفِرَق والشِّــيَع والأحزاب، وتوحــيــد الكتب كلِّهــا. وبذلك امــتنعتُ عن القــول برأيين: رأي الذين يقولون بأنّ الإسلام شيــعةٌ من شيع النصارى، ورأي الذين يربطون القرآن والإســلام مباشرة بــ «اللّوح المحــفوظ». ورحت أبحث في هذا الهدف العظيم، وفي مَن هو وراءه، فرأيتُ القسَّ وراء النبي، والإنجيلَ العــبراني وراء القــرآن العربي، والنَّصــرانيّة الإبيــونيّة وراء إســلام القسّ والنبيّ.

هذا هو الجــديد الذي عَملتُ عليــه. وهذا هو حقّ القسّ نُرجِــعه إليه. هذا الجديد نراه في موضــوعات القرآن جــميعِها. إلاّ أنّني أقتصر على الشائك منها، أي الموضوعات التي يعالجــها القرآن العربي وفيها خلاف بينه وبين اليــهوديّة من جهة، وبينه وبين المــسيحيّة مــن جهة ثانية. ولكنّه على وفاقٍ يكاد يكون تامّاً بينه وبين النصرانيّة.

أوّلاً - في المسيح عيسى وأمّه مريم وروح القدس

موضوع المسيح عيسى وأمّه مريم والروح القدس من أهمّ الموضوعات التي يختلف فيها الإسلام عن اليهوديّة والمسيحيّة، بينما يتفّق فيها اتفاقاً تامّاً مع النصرانيّة. وبسبب هذا الاختلاف عرف الإسلام بأنّه دين توحيديّ سماويّ ثالث مستقل عن اليهودية والمسيحيّة. فيما الحقيقة جهلٌ مُطبق بحقيقة الأمور. وخير دليل على ما نقول رَدُّ تعاليم القرآن إلى مصادرها[1]. وإليك الدّليل.

١ - في المسيح عيسى

١. ألمسيح في القرآن هو «عيسى ابن مريم»[2]، «بشرٌ سويّ» (١٩/ ١٧)، وُلد كسائر الناس، إذ خلقه اللّه، كما خلَق آدم من تراب (٣/ ٥٩)، وإنْ بطريقة معجزة (٣/ ٤٥)[3]....

---

(١) نشير إلى أنّنا نذكر في هذا الفصل المراجع القرآنيّة في متن النّص؛ لنُخلي المجال في متن الحواشي إلى المراجع النّصرانيّة؛ إلاّ إذا كان ثمّة أكثر من مرجع قرآني. ثمّ إنّنا نذكر السّور بأرقامها لا بأسمائها، لنخفّف عن النّص، وإن هو بخلاف القواعد الإسلاميّة المتّبعة. فلنعذر عليه.

(٢) سورة البقرة ٢/ ٧٨... ورد تعبير «ابن مريم» في القرآن ٢٣ مرّة.

(٣) سورة آل عمران ٣/ ٤٥؛ سورة الأنبياء ٢١/ ٩١؛ سورة مريم ١٩/ ١٧.

وهو كذلـك في النّصرانيّـة: ألمسيح هو يســوع ابن مريم[٤]، و «بشر بين البـشر»[٦]، ولد كسائر الناس[٧]، وخُلق كآدم من تراب[٨]، وإنْ بطريقة معجزة[٩].

٢. ومع كون مسيح القـرآن بشراً فـ «هو نبيٌّ ورسولٌ «خَلَتْ من قـبلِه الرسل»(٥/ ٧٥)؛ بل هو أسمى من الأنبـياء لأنّه «مـؤيّد من الرّوح القدس»[١٠]، وهو «كلمة اللّه»[١١]، و«روح منه» (٤/ ١٧١)، آتاه اللّهُ البيّنات[١٢]، وبصنع المعجزات: فتكلّم وهو بَعد في المهد[١٣]، وخلق من الطين كهيئة الطير[١٤]، وشفى الأكمه والأبرص، وأخرج الموتى من القبور[١٥]...

والإبيـونيّـون يقولون في ذلك الـشـيء نفسـه: ألمسـيح «نبيٌّ أسمى من الأنـبياء جـميـعاً، لأنّ فيـه روحاً مـلائكياً»[١٦]. لم يكن في البدايـة مسيـحاً، بل «صــار مســيحاً على الاصـطفاء»[١٧]، لهذا فهم

---

(٤) Actes de St. Jean. Ev. de St. Pierre.

(٦) Justinien. Dialogue avec Triphon 28.9.

(٧) Origène, Contre Cels. 5/61.

(٨) Irénée, Contre les Hérésies, 3/26.

(٩) Origène. Contre Cels. 5/65.

(١٠) سورة البقرة٢/ ٨٧ و٢٥٣؛ سورة المائدة ٥/ ١١٠.

(١١) سورة النساء٤/ ١٧١؛ سورة آل عمران٣/ ٤٥.

(١٢) سورة البقرة٢/ ٨٧ و٢٥٣.

(١٣) سورة مريم ١٩/ ٢٩؛سورة المائدة ٥/ ١١٠.

(١٤) سورة آل عمران٣/ ٤٩ ؛ سورة المائدة ٥/ ١١٠.

(١٥) ألمراجع السابقة نفسها.

(١٦) Tertullien, Du Corps du Christ, 14/5.

(١٧) Justinien, Dial. Avec Triphon. 29/1.

ينكرون أزليّةَ المسـيح وألوهيّتَه، فـهو لم يولد من اللّه[١٨]، وينسبون إليه معجزات، بعضـها نراه في الأناجيل القانونيّة الرسميّة، مثل شفاء الأبرص والأعمى وإقـامة الموتى، وبعضـها، كـخلقه من الطين كهـيئة الطير[١٩]، لا أثر له إلاّ في كتبهم الخاصة.

٣. وفي القرآن أيضاً إنكار تامّ لألوهـيّة المسيح وبنوّته للّه[٢٠]، لأنّ اللّه لم يلد ولم يولد (٣/١١٢)، بل يـقول بأن المسـيح هو «عبد اللّه»، ومن بين الملائكة المقـرّبين: «لَنْ يَسْتَنْكِفَ المَسِيحُ أنْ يكونَ عَـبداً للّه ولا المـلائكة المقـرّبين» (٤/ ٧٠)، وهو مـن المقــرّبين (٣/ ٤٥)، ويستطيع اللّه أن يهلكه (٥/ ١٧)...

وهو رأي صريح للإبيـونيّين كما ورد عنهم في كتـاب أبيفان: «إنّ المسيح ليس مـولوداً من اللّه الآب، بل مخلوقاً، وهو أحـد رؤساء الملائكة، المالك على الملائكة وعلى كل أعـمال القدير»[٢١]. وفيـه أيضاً: «ليس المـسـيح، بنظـرهم، سـوى مـلاك»[٢٢]، أو «أوّل رؤسـاء الملائكة»[٢٣]. ويشبه ذلك قول راعي هرمس: «إنّ اللّه، لمّا أراد أن يخلق الملائكة المقـرّبين من نار على عـدد سـبعـة، قضـى أن يجعل أحـدَهم ابنه»[٢٤].

---

(١٨) Origine, Contre Cels, 5/65; Epiphane, Panarion, 30/6.

(١٩) Ev. arabe de l'enfance, 26/1-2.

(٢٠) سورة المائدة ٥/ ١٧؛ سورة مريم١٩/ ٣١؛ سورة يونس ١٠/ ٦٨.

(٢١) Epiphane, Panarion, 30/4, 6.

(٢٢) Irénée, PG. 1031-1043.

(٢٣) Origène, PG. 12,207-208. Justin, PG, 6, 773-778.

(٢٤) Pasteur d'Hermas, 9/12, 7.

٤. يعتقد الإبيونيـون بأنّ «المسيح نزل على يسوع يوم عماده في الأردنّ، وفـارقه قـبل اسـتـشـهـاده»[٢٥]، ويقولون في ذلك: «إنّ يســوع هو الذي صُلب عندمـا ارتفع المسـيح عنه قبل اسـتـشـهـاده، والمسيح فـارق يسوع ابن مـريم قبل مـوته على الصليب»[٢٦]. إلاّ أنّ بعضهم يقول: «إنّ المسيح يتحوّل برضاه من صورة إلى صورة. فقد ألقى في صلبه شبهةً على سمعـان، وصُلب سمعان بدلاً منه، فيما هو ارتفع حيّاً إلى الذي أرسله، ماكِراً بجـميع الذين مكروا، للقبض عليه، لأنّه كان غـيرَ منظورٍ للجـميع»[٢٧]. وإذا كان مـوت المسيح، برأيهم، استشـهاداً، وقيامـتُه رَفْعاً إلى السـماء، فإنّه «ليس له صفـة الفادي والمخلّص»[٢٨].

هذه العـقيـدة واضـحة فـي القرآن: إنّ المسـيح لم يُقـتل ولم يُصلب، بل وقعَ الشَـبَـه على الّذين قـالوا بذلك(٤/١٥٧)، ومَكر اللّهُ بهم وهو خيـر الماكرين[٢٩]. وينكر القرآن أن يكون المسـيح قام بذاته من الموت وبقوّته، في حين أنّه يقول بأنّ اللّهَ رفعه إليه[٣٠]. ولهذا ليس له أيّ دور في خـلاص الإنسان وافـتدائه، وليس على أيٍّ إنســان أن يطلب شفاعـته. «ذلك عيسى ابن مريم قول الحق الذي فـيه يمترون» (١٩/٣٤).

---

(٢٥) Irénée, Ad. Haer, 3/3, 4.

(٢٦) Actes de St. jean, 99; Ev. de St. Pierre.

(٢٧) Irénée, Ad.Haer., 1/24, 4; Epiphane, Panarion, 1/2.

(٢٨) Irénée 3/33; 5/8.

(٢٩) سورة آل عمران٣/٥٤؛ الرعد ١٣/٤٢؛ النحل١٦/٢٦...

(٣٠) النساء٤/١٥٨؛ آل عمران٣/٥٥.

٢ - في مريم أمّ عيسى

نظرة القرآن والنّصارى إلى مريم أمّ عيسى واحدة. وبسببها يفترقان عن اليهود الّذين يتّهمهم القرآن بالكفر وقول الزور: «وَبِكُفْرِهِم وَقَولِهِم عَلى مريمَ بُهتاناً عظيماً» (١٥٦/٤). تحتلّ مريم في القرآن مقاماً رفيعاً جدّاً. إنّها المرأة الوحيدة التي ورد اسمُها فيه[٣١]. وعادة ما يُسمّى عيسى بابن مريم بخلاف التسميات الساميّة التي تنسب الابن إلى أبيه، ممّا يدلّ، من جهة، على ولادته المعجزة؛ ومن جهة ثانية، على شرف أمّه ومكانتها. وهي وابنها آية من آيات اللّه (٥٠/٢٣).

١. يعترف القرآن والنّصارى بكثرة الإنعامات التي خصّ اللّهُ بها **أجداد مريم**، وكان لهم ذلك بسببها. وكلاهما يقدّم إثباتاً لائقاً بشرف انتسابها إلى سلالة الأنبياء: من آدم إلى نوح وذرّيّة إبراهيم وآل عمران:

في القرآن «إنّ اللّهَ اصْطَفَى آدمَ ونوحاً وآل إبراهيمَ وآلَ عِمرانَ على العالمين: ذرّيّة بعضها من بعض... اذ قالت امرأة عِمران: رَبِّ إنّي نذرتُ ما في بطني»(٣٣/٣).

وفي المصادر النصرانيّة، «نقرأ في تواريخ أسباط إسرائيل الإثني عشر... وذلك ليتبيّن لنا شرف انتساب المسيح وأمّه مريم إلى ذريّة يعقوب»[٣٢]...

---

(٣١) يرد اسم مريم في القرآن ٣٤ مرّة.

(٣٢) Protévangile de Jacques, 1, 1.

٢. أمّا عن ولادة مريم العجائبيّة فيقول القرآن: «قالت امرأة عِمران: «ربّ نذرتُ لك ما في بطني مُحّرراً. فتقبّل مني»(٣/٣٥). ويُضيف: ولما وضعتها قالت: «ربّ وضعتها أنثى. واللّهُ أعلم بما وضعتْ. وليس الذَّكر كالأنثى. وإنّي سمّيتُها مريم. وإنّي أُعيذها بك وذّريتَها من الشيطان الرجيم. فتقَبّلَها ربُّها بقبولٍ حسن. وأنبتَها نباتاً حسناً» (٣/٣٦-٣٧).

وفي المصادر النّصرانيّة: قال ملاك الرب: «حَنّة، حنّة، لقد استجاب الربُّ صلاتك. إنّك ستحبلين وتلدين. وسيُتحدَّث عن ذرّيتك في الأرض كلّها». قالت حنّة: «حَيٌّ الربّ. إنْ وضعتُ للعالم ولدًا صبيّاً كان أم ابنة، سأقدّمه للربِّ الأله. وسيكون في خدمته طول أيّام حياته».

(وبعدما ولدت) «قالت للقابلة: ماذا وضعتُ للعالم؟ أجابتِ القابلة: ابنةً. وأعطت حنّة لابنتها اسم مريم».

(وصلّى يواكيم قائلاً:) أيّها الربّ، أنظر إلى ابنتك هذه، وتقبّلها، وحلّ عليها بركتك»[٣٣] «وكانت الصبية تنمو يوماً بعد يوم»[٣٤]

٣. وعن دخول مريم إلى الهيكل واحتجابها فيه، يقول القرآن: «واذكر في الكتاب مريم اذ انتبذتْ من أهلها مكانًا شرقياً. فاتخذت من دونهم حجاباً (١٩/١٦-١٧). ثم يقول: و«كفّلها زكريّا. كلّما

---

(٣٣) Protév. de Jq. 4, 5, 6.

(٣٤) المرجع نفسه، ٦.

دخل عليها زكريّا المحرابَ وجد عندها رزقاً. قال: يا مريم: أنّى لكِ هذا؟ قالت: هُو من عند الله. إنّ الله يرزق من يشاء» (٣/ ٣٧). ويقول: «وما كنتَ (يا محمد) لديهم إذْ يُلقون أقلامَهم أيّهم يكفل مريم» (٣/ ٤٤).

وفي المصادر النصرانيّة: يواكيم يقود ابنتَه مريم إلى الهيكل. وكان لها من العمر ثلاث سنوات. وكلّف ملاكُ الرّبِ زكريّا رئيس الكهنة، ليجد لمريم، زوجاً. واستشار زكريّا حكماء اليهود.. وكانت مريم تحصل على رزقها من عند ملاك الربّ(٣٥).

٤. وفي شأن **بشارة الملاك لمريم** بمولودها وهي في الهيكل، جاء في القرآن: «فأَرْسَلْنا إليها روحَنا، فتمثّل لها بشراً سويًا» (١٩/ ١٧). «وإذ قالتِ الملائكة: يا مريم إنّ اللّهَ اصطفاكِ على نساء العالمين» (٣/ ٤٢). و«إذ قالت الملائكة: يا مريم إنّ الله يبشّرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى ابن مريم وجيهاً في الدنيا والآخرة ومن المقرّبين. ويكلّم الناس في المهد وكهلاً من الصالحين» (٣/ ٤٥-٤٦).

وقالت مريم: «إنّي أعوذ بالرحمن منكَ إنْ كنتَ تقيًا» (١٩/ ١٨). ثمّ قال الملاك: «إنّما أنا رسولُ ربِّكِ لأهبَ لكِ غلامًا زكيًا« (١٩/ ١٩). فقالت مريم: «ربِّ، أنّى يكون لي ولد ولم يمسسني بشرٌ» (٣/ ٤٧). أو: «أنّى يكون لي غلام ولم يمسسني بشر، ولم أك بغيًا» (١٩/٢٠).

قال: «كذلك الله يخلق ما يشاء. إذا قضى أمراً فإنّما يقول له

---

(٣٥) Protév. de Jq. 78.

كنْ فيكون» (٣/٤٧). أو: «قال: كذلك قال ربُّكِ وَهُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ. ولنجعله آيةً للنّاس ورحمةً مِنّا وكانَ أمرًا مقضياً» (١٩/ ٢١).

وفي المصادر النّصرانيّة: «أرسل اللّهُ الملاكَ جبرائيل للعذراء يقول لها: لا تخافي، إنّكِ وَجَدتِ عند اللّه نعمةً، وستحبلين بكلمته. والمولود منكِ يُدعى ابن العليّ، وتسمّيه يسوع»[٣٦].

وفي لوقا ما يشبه ذلك. يقول: ودخل إلى العذراء ملاك يقول لها: السلام عليكِ يا ممتلئة نعمة. الربّ معك.. واضطربت لهذا الكلام، وقالت في نفسها: ما معنى هذا السلام.. قال الملاك: لا تخافي يا مريم، قد نلتِ حظوة عند اللّه.. فقالت مريم للملاك: أنّى يكون هذا ولا أعرف رجلاً.. فأجابها الملاك: إنّ الروح القدس يحلّ بك وقدرة العليّ تظلّلكِ، لذلك يكون المولود قدوساً وابن العليّ يدعى.. قالت مريم: فليكن لي كما قلت»[٣٧].

٥. وعن **ميلاد يسوع** يقول القرآن: ولمّا آن المخاض، «حملتْه فانتبذتْ به مكاناً قصيّاً»، أي: في البريّة حيث وجدتْ شجرةً جلستْ تحتها تنتظر مولودَها. «فاجأها المخاض إلى جذع نخلة. قالتْ: يا ليتني متُّ قَبل هذا وكنتُ نسياً منسيًّا». وناداها صوتٌ (؟) مِنْ تَحتِها: «لا تحزني. قد جَعل ربُّكِ تحتكِ سريًّا»[٣٨]، أي ينبوع ماء يجري،

---

(٣٦) Protévengile de Jq. 11.

(٣٧) أنظر إنجيل لوقا ١/٢٦-٣٥.

(٣٨) يختلف المفسّرون في شخصيّة الذي نادى مريم: أهو مولودها أم الملاك، فالنص القرآني مبهم تماماً... إلاّ أنّ المقابلة بين ما ورد في القرآن وما نرى في سيرة هَاجَر وابنِها اسمعيل يرجّح أنّ اللّهَ تكلّم بواسطة ملاكه مع مريم، كما تكلّم مع هاجر.

وهزّي إليكِ بجذع النّخلة تَسّاقَطُ عليكِ رطْباً جنيّا (١٩/٢٢-٢٥).

وفي المصادر النّصرانيّة، جاء في سفر التكوين عن هاجر إمرأة إبراهيم التي تاهت في البرية، ونفذ معها الماء، فطرحت إسمعيل ابنها تحت الشجرة. وجلست قبالته حزينةً. بكت وبكى الغلام. وسمع اللّهُ بكاء الغلام، وقال لها: ما لك يا هاجر! لا تخافي، فإنّ اللّه قد سمع صوت الغلام. قومي فخذي ابنك... فرأت بئر ماء وسقت الغلام وكان اللّه معه[٣٩].

وفي كتب النصارى، كما في التفاسير الإسلاميّة، إنّ النخيل انحنى لمريم وتدانى منها يقدم لها الثمر الطيّب لتطعم ابنها في سفرها إلى مصر[٤٠].

٦. في القرآن، كما في المصادر النّصرانيّة فيض من الكلام على **اضطراب يوسف** عندما رأى مريم حاملاً بابنها. وعبثاً حاول يوسف أن يبرِّئ نفسه، وقد عهد إليه شيوخ بني إسرائيل حمايتها؛ فتخلّف عن هذه الحماية. فهو، من جهة، يعرف امرأتَه مصانةً عَفيفة، وأكبر من أن تزلّ إلى مستوى سائر النساء. وتجول مخيّلة مؤلّفي

ويثبت ذلك انتقال القرآن من متابعة الكتب النصرانيّة إلى متابعة أخبار هَاجَر امرأة ابراهيم. فولادة عيسى القرآني أشبه ما تكون بولادة إسمعيل، لا في «مذود» كما في لوقا ٢/٧، ولا في «مغارة» كما في الأناجيل المنحولة، بل في البريّة، كما هو حال إسمعيل الذي اهتمّ بسقايته ملاك الرب، فأوجد له بئراً ليشرب (وهو بئر زمزم الذي لا يزال يشرب منه الحجّاج للتبرك)، كما أوجد لعيسى ينبوع ماء، كما ترى في متن النّص.

(٣٩) سفر التكوين ٢١/١٤-٢٠.

(٤٠) Protév. de Jq. 11.

روايات الحبل والولادة فتضفي على الواقع مسحة أساطير الأقدمين؛ أوجزها القرآن بلومةٍ عارفٍ ببراءة مريم في قوله: «يَا أختَ هَارون! ما كان أبوكِ امرأ سوءٍ. ومَا كانتْ أمُّكِ بَغِيًا» (١٩/٢٨). واضطربت مريم فأشارتْ إلى ابنها وطلبت منهم أن يكلِّموه في شأنها فقالوا: «كيفَ نكلِّمُ مَن كانَ في المَهدِ صَبيّاً؟ قال: إنّي عبد اللّه آتاني الكتاب وجعلني نبيّاً، وجعلَني مباركاً أينَ ما كنتُ.. وَبَرّاً بِوَالِدَتي...» (١٩/ ٢٩-٣٤).

٣ – في الرّوح القدس

١. يناط الوحي في اليهوديّة، تارة باللّهِ مباشرةً، وطوراً، بواسطة الملائكة. والتوراة تخلط عادةً بين الإثنين: مثال ذلك: قال يعقوب: «قال لي ملاك اللّه في الحلم: يا يعقوب! قلتُ: لبيّك. قال: إرفَع عينيك وانظرْ... أنا إلهُ بيتِ إيل...»[٤١]. فمَن هو المتكلِّم مع يعقوب؟ ملاك اللّه أم إله بيت إيل؟

وفي سفر القضاة: «صَعد ملاك الربّ... وقال: إنّي أخرَجتُكُم من مصر، وأدخلتُكم الأرضَ التي أقسمتُ عليها لآبائكم. وقلتُ: إنّي لا أنقضُ عهدي معكم إلى الأبد»[٤٢]. فمن هو الذي أخرج الإسرائيليّين من مصر؟ أهو ملاك الربّ الذي صعد وقال ما قال؟ أم اللّه الذي صنعَ ما صنع؟

وفي سفر الخروج: «تجلّى ملاك الربّ (لموسى) في لهيب نارٍ

---

(٤١) سفر التكوين ٣١/١١-١٣.

(٤٢) سفر القضاة ٢/١-٤.

من وسط العليقة... فناداه اللّه من وسط العليقة»[٤٣]. فملاك الربّ هو الذي تجلّى؛ واللّه الذي تكلّم.

كذلك في أعمال الرسل: «كلّم ملاكُ الربِّ فيليبّس... فقال الرّوح (القدس) لفيليبس»[٤٤]. فملاك الربّ هو الذي تكلّم. والرّوح القدس هو الذي قال...

فمن هو ملاك الربّ، إذاً، في هذه النصوص؟ وفي غيرها؟ أهو شخصيّة مستقلّة عن ذات اللّه؟ أم هو اللّهُ نفسه؟

هذا الخلط إيّاه وارد في القرآن. ولكن بين الملاك جبريل والرّوح القدس. يقول: «وآتينا عيسى ابن مريم البيّنات وأيّدناه برُوح القدس»[٤٥]، أي روح الرب، كما في التّوراة؛ أمّا في الآيات التالية فهو الملاك جبريل، يقول: «جبريل، فإنّه نزّله على قلبك بإذن اللّه» (٢/ ٩٧). ويقول: «قل نزّله روح القدس من ربّك بالحق» (١٦/ ١٠٢)، و«نزل به الرّوح الأمين» (٢٦/ ١٩٣)، وأيضاً: «إنّه لَقولُ رسولٍ كريم ذي قوّة عند ذي العرش مكين مُطاع ثمّ أمين» (٨١/ ١٩-٢١)، أي الملاك جبريل.. إلخ[٤٦].

٢. وهناك خلط آخر من نوع آخر بين الرّوح القدس ومريم أم عيسى، في القرآن كما في المصادر النصرانيّة.

---

(٤٣) سفر الخروج ٣/ ٢...

(٤٤) أعمال الرسل ٨/ ٢٦ و٢٩.

(٤٥) سورة البقرة ٢/ ٨٧؛ أنظر أيضاً: البقرة ٢/ ٢٥٣؛ المائدة ٥/ ١١٠.

(٤٦) أنظر مقالاً للمؤلّف عن الرّوح القدس في القرآن، معتمداً على الآيات التي يرد فيها لفظ «الرّوح» كلّها.

نقل أوريجينوس عن الإنجيل العبراني قولاً للمسيح: «حَملتْنِي أُمِّي الروح القدس»[٤٧]. ويعلّق القديس جيروم مفسّراً: «ممّا يدل على اعتقادهم (أي الإبيونيّين) بأنّ الرّوح القدس هو أمّ المسيح»[٤٨]. ومردّ هذا الخلط هو أنّ «الروح القدس» في اللّغة الأراميّة السريانيّة مؤنّث؛ فيما هو في «العربيّة» مذكّر. ومع هذا، شاعت جنسيّة «الرّوح القدس» المؤنّثة وأمومتُه للمسيح في أوساطٍ عربيّةٍ عديدةٍ ومتنوعة؛ فنجد اليعقوبي، مَثَلاً، يقول: «فلمّا عمّدَه (يحيى بن زكريّا) خرجتْ رُوحُ القُدُسِ على الماء»[٤٩]؛ كما هو مكتوب تماماً في إنجيل العبرانيّين: «ألروح القدس تخاطب يسوع في عماده بقولِها: أنت ابني الحبيب»[٥٠]. ونجد أيضاً عند أفراهات، أحدِ آباء الكنيسة السريانيّة، هذا القول: «إنّ الرجل يُحبّ اللّهَ أباه، والرُّوحَ القدس أمَّه»[٥١].

فالروح القدس، إذاً، من جنس «المؤنّث»، وهو، بحيث له علاقة حميمة باللّه، اعتبر «أمّ المسيح» وكأحد الأقانيم الثلاثة مع الأب والابن. ومن هنا، يجب أن نفهم ما جاء في القرآن عن لوم اللّه لعيسَى «أأَنْتَ قلتَ للناسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِلَهَينِ مِنْ دُونِ اللّه» (٥/١١٦).

فاللّه في القرآن العربي يردّ، إذاً، على الذين يؤلِّهون الرّوحَ القدس، ويعتبرونه ثالثَ ثلاثة؛ لا على الذين يؤلِّهون مريم، كما يزعم

---

(٤٧) Pseudo Mt., 10-11.

(٤٨) Origène, Comm. sur Jérémie, 15, 14.

(٤٩) تاريخ اليعقوبي، ١/٧٢.

(٥٠) Jérôme, Comm. sur Isaïe, 11, 2. Voir aussi Comm. sur Miché 7, 6.

(٥١) أفراهات، البيّنات، ١٨/١٠.

مفسّرو القرآن جميعهم، إبتداءًا من الطبري، حتّى آخر واحدٍ منهم..؛ علماً بأنّ مريم العذراء كرّمها المسيحيّون، وقدّسوها، ومجّدوها، وعظّموها جداً، حتّى قدّم بعضُهم لها القرابين، مثل «الكُلِيرِيّينَ»، من «كلّيرس» اليونانيّة التي تعني أقراصاً من الرقاق... إلاّ أنّ هذه القلّة لم يكن لها أثر ولا انتشار ولا كتاب...

وهكذا بقي كلُّ شيء عن الملاك جبريل وعن الرّوح القدس مبهَماً في النّصرانيّة كما في الإسلام. والرّوح القدس، في كلا النصرانيّة والإسلام، أكان ملاكاً أم روحاً من اللّه، مهمّته، في الحالين، منوطة بالوحي والتنزيل.

ثانياً – في الفروضِ والعباداتِ وشعائرِ الدّين

في أركان الدِّين جميعها، كما في مختلف الفروض والعبادات والشعائر، نرى تقارباً بَيِّناً بين الإسلام والنّصرانيّة. ولا نكون على شطط إن جزمنا بأنّ ما في الإسلام منها نسخةٌ عمّا في النصرانيّة. والقرآن العربي يعتمد على الكتب النصرانيّة وتقاليدها اعتماداً صريحاً. فهو يقرّرها، ويحدّدها، ويلتزم ممارساتها؛ لكأنّه قصد أن ينقلها إلى العرب نقلاً. هذه الأركان موزّعة في تعاليم التّوراة والتلمود والأناجيل النصرانيّة المنحولة سواء بسواء. وحقيقة ذلك واضحة في الموضوعات التالية:

١ – **الختان** مثلاً، وهو «العلامة» التي تُذكّر بعهد اللّه مع البشر، وتذكّر الانسان بانتمائه العضوي إلى شعب اللّه المختار، يُعتَبر سُنَّةً إلهيّةً شَرَّعتْ لها التوراةُ والأنبياء[٥٢]. وقد يكون الختان سنّة شائعة بين الأمم، مارسها السوريّون والمصريّون والعرب وكهّان الأصنام[٥٣]... ولشيوعها لم يذكرها القرآن العربي ولم يشرّع لها. وهذا معنى الحديث النبويّ القائل: «ألختان من خصال الفطرة»[٥٤]، و«الختان سنّةٌ للرِّجال ومكرمة للنساء»[٥٥]...

---

(٥٢) أنظر: تك ١٧/ ١٠ ؛ ٣٤/ ١٧ ؛ خر ٤/ ٢٦ ؛ ١٢/ ٤٤؛ أح ١٢/ ٣ ؛ يش ٥/ ٢–٨ ؛ ١ مك ١/ ٦١ ؛ يو ٧/ ٢٢ ؛ رسل ٧/ ٨.

(٥٣) J.. Chaine, Le livre de genèse, 1945, p. 229.

(٥٤) صحيح البخاري، ٧٧/ ١٣ ؛ ٧٩/ ٥١ ؛ صحيح مسلم ٢/ ٤١ و٥٠.

(٥٥) مسند ابن حنبل ٥/ ٧٥.

ومارس النّصارى على مختلف فرقهم هذه السنّة، واعتبروها شرطاً أساسيّاً للإيمان بالمسيح وللخلاص[٥٦]. إلاّ أنّ المسيحيين، المؤمنين بيسوع المسيح على أنّه آدم الجديد، ورأس البشريّة الجديدة المخلّصة بفدائه، لم يخضعوا لهذه الشريعة، بل رفضوها رفضاً قاطعاً؛ وعلى رأسهم القديس بولس[٥٧].

هذا وقد عُرِف النّبيّ محمّد، كما جاء في صحيح البخاري، على لسان هرقل، يقول لأحد منجّميه، عندما سأله: «إنّي رأيتُ الليلةَ، حين نظرتُ في النجوم، **مَلِكَ الختان قد ظهر**»[٥٨]، وهو يقصد النبيّ محمداً لحظة مولده. فمحمدٌ، إذاً، بنظر هرقل، هو «مَلِكُ الخِتان»... والمعلوم أنَّ أساقفة النصرانيّة كان يُطلق عليهم هذا اللقب. وقد سمّاهم أوسابيوس المؤرِّخ، «**أساقفة الخِتان**»، وعدّد أسماءهم منذ زمن المسيح حتى زمن تراجان (+ ١٨٧م)، وهم خمسة عشر أسقفاً. ثم قال عنهم: «هؤلاء هم أساقفة أورشليم الذين عاشوا بين عصر الرّسل والعصر المشار إليه. وكلّهم كانوا من أهل الختان»[٥٩]. وكنيسة النّصارى، أيضاً، عُرِفت بـ «**كنيسة الختان**»[٦٠].

فلينظر إلى هذا التقارب بين «**أسقف الختان**»، أسقف أورشليم النّصرانيّ، و«**ملك الختان**» محمّد، سيّد مكّة.

---

(٥٦) رسل ١٥/١-٣٥؛ رَاجع : غل ٢/١١-٢١ ؛ رو ٣/١.

(٥٧) ١ قور ٧/١٩ ؛ قو ٢/١١ ؛ رو ٢/٢٥-٢٩؛ غل ٥/٦ ؛ ٦/١٥.

(٥٨) صحيح البخاري ١/٧.

(٥٩) Eusèbe de Césarée, Hist. Eccl., IV, 5, 3-4

(٦٠) أنظر عنواناً لكتاب شهير إسمه: L'Eglise de la circoncision، لـ Bagatti، طبع في أورشليم سنة ١٩٦٥، ونُقل إلى لغات عديدة، وأعيدت طباعته مراراً.

٢ - **الغسل والوضوء والتطهير** فروض واجبة عند اليهود والنصارى والمسلمين. شرّع لها موسى في التوراة، ومارسها اليهود قبل الصلاة والأكل وكلّ احتفالٍ مقدّس. فغسْلُ اليدين والرِّجلين واجب عليهم «لئلا يموتوا. وذلك لهم رسم الدهر»[(٦١)]؛ وغسل الجسم بكامله في حال الرجل الذي يكون «بجسدِهِ سيلان»، أو «يكون جسده يقطر الزرع»، أو الذي «أكل نبيلة أو فريسة»، أو مَن «لمس العظم أو القتيل أو الميت أو القبر»، أو «الأبرص المتبرأ»؛ أو حال المرأة التي «يسيل دمٌ من جسدها»، و«المرأة المستحاضة في طمثها»، و«المرأة التي حبلت فولدت...»[(٦٢)]. كل هذه الحالات واجبة من قبل السنّة اليهوديّة.

وكذلك هو الأمر بالنسبة إلى النصارى عامّة والإبيونيّين خاصّة. يقول أبيفان عن هؤلاء: «عندهم وضوء شامل كلّ يومٍ للتطهير»[(٦٣)]. والغسل عندهم واجب يوميّ «قبل الأكل والصلاة وبعد كلِّ جماع جنسي»[(٦٤)]، وعند لسعة أفعى، أو في المرض[(٦٥)]

ويأخذ المسلمون بهذه الحالات، ولكنّهم يميّزون بين الغسل الكبير وهو غسل الجسم بكامله، والغسل الصغير وهو الوضوء. ويقول القرآن قولاً شبيهاً بتعاليم اليهود والنصارى، فهو يأمر

---

(٦١) أح ٣٠/١٧-٢١؛ ٤٠/٣٠-٣٢؛ ١٥/١١؛ مز ٢٧/٦؛ ٧٤/١٣.

(٦٢) أح ١٥/٣ و١٦ و٣٣؛ ١٧/١٥؛ عد ١٩/١٨-١٩؛ أح ١٤/٨؛ ١٥/١٩ و٢٣؛ ١٢/١-٥؛ ٢ مل ٥/١-١٤؛ متى ٨/٤؛ مر ١/٤٤..

(٦٣) Epiphane, Panarion, 30, 2.

(٦٤) المرجع نفسه.

(٦٥) المرجع نفسه، ١٧، ٣٠.

جماعته: «يا أيُّها الّذِينَ آمَنُوا! لا تقربُوا الصلاةَ... حتّى تغتسلوا» (٤/ ٤٧)، «يا أيُّها الّذيـنَ آمَنُوا! إذا قمتُمْ إلى الصّـلاة فاغْسِـلُوا وجُوهَكم وَأيديكُم إلى المرافق، وامسحـوا برؤوسكم وأرجُلِكم إلى الكعبَين، وإنْ كنتم جنباً فـاطّهروا» (٥/٦). وأباح القـرآن للمسلمين احتـراساً من إهمال هذا الاستعـداد الضروري أن يتيمّموا صَعِـيداً طيّباً من رمل أو تراب[٦٦]، كالبعض من النصارى الذين استـعاضـوا عن معمودية الماء بالرمل، حيث لم يجدوا ماءً.

٣ – **تحريم الخمرة** خاصّ بالنّصارى الإبيـونيّين دون اليهود والمسـيحـيّين. يحرّم الإبْيـونيّون الخـمرة حـتّى في القربان، يقـول إيريناوس عنهم: «إنّ الإبيونيّين يحرّمون مزْج الخمر السماوي بالماء، ويريدون فقط ماء هذا الدهر»[٦٧]. ويقول كتاب «أعمال توما» المنحول عنهم أيضـاً: «إنّ القربـان عندهم من خبـز ومـاء، لا خمـر فيـه»[٦٨]. ويقول كليمنضوس الإسكندري: «إنّ بعض الخـوارج يستعملون في القـربان الخـبـز والماء بدل الخـبـز والخـمـر، على خـلاف سنّة الكنيسة»[٦٩]...

ولكنْ، هذه الخـمـرة المحرّمـة على الأرض سـتكون في الجنّة حـلالاً، على مـا ذكـر عنهم أوريجـينوس[٧٠] وأفـرام السـرياني[٧١]،

---

(٦٦) سورة النساء ٤/٤٣؛ المائدة ٥/٦.

(٦٧) Irénée, Ad. Haer. 5, 1, 3.

(٦٨) Actes de Thomas, de Pierre, (Apocryphes)

(٦٩) Clément d'Alexandreie, Stromates, I, 19.

(٧٠) Origène, Comm. sur lév. 7, 2.

مستوحين بذلك ما ورد في أنجيل متى على لسان المسيح: «أقولُ لكم: لا أشربُ بعدَ اليوم من عصير الكرمة هذا حتى يأتي يوم فيه أشربه معكم خمرة جديدة في ملكوت أبي»[٧٢].

وهذا هو الحال في القرآن العربي حيث الخمرة «رجس من عمل الشيطان» (٥/ ٩٠)، وسبب «إثم كبير» (٢/ ٢١٩) ؛ تُوقع بين الناس «العداوة والبغضاء» (٥/ ٩١) ...

ولكنّها في الجنّة حلالٌ حيث «أنهارٌ من خمرٍ لذة للشاربين» (٤٧/ ١٥)، وحيث الناس فيها «يتنازعون كأساً لا لَغْوٌ فيها ولا تأثيم» (٥٢/ ٢٣)، وفيها «يطوف عليهم وُلدانٌ مخَلَّدون بأكوابٍ وأباريقَ وكأسٍ من مَعين»، أي من معينِ خمرةٍ جاريةٍ لا ينقطع أبداً[٧٣]! هناك حيث المخلّصون «يُسقَون من رحيقٍ محتوم» (٨٣/ ٢٥)، من خمرةٍ معتّقةٍ عمرُها من عمر اليوم السادس للخليقة...

٤ – **لحم الخنزير** هو في اليهوديّة والنصرانيّة والإسلام محرّم. فاليهود في التوراة يعتبرون الخنزير حيواناً نجساً: «لا تأكلوا شيئاً من لحمها، وميتتها لا تمسّوا فإنها نجسة لكم»[٧٤]. والنّصارى، منذ البدء وفي مختلف شيعهم، ساروا بموجب شريعة موسى[٧٥]، وقالوا، بسبب خطايا الإنسان، بتحريم بعض الأطعمة. واستبقت الكنيسة المسيحيّة السريانيّة أيضاً مثل هذا التعليم، فقال

---

(٧١) مار افرام، منظومة الفردوس ٧/ ١٨.

(٧٢) إنجيل متى ١٦/ ٢٩ ؛ ٨/ ١١.

(٧٣) سورة الواقعة ٥٦/ ١٧–١٨ ؛ سورة النبأ ٧٨/ ٣٤.

(٧٤) أح ١١/ ٧؛ تث ١٤/ ٨.

أَفْـرَهَات: «إنّه بسبب خـطاياك أعطاكَ اللّه الذبائحَ وحـرّم عليك بعضَ الطعام»[٧٦]. في حين أنّ المسيحـيّين ألغَوا كلَّ فارقة بين الأطعـمة، فلا طعـام مقـدّس ولا طعام نجس بذاتـه، إنما الإنسان هو الذي يُضـفي عليها قداسةً ونجاسة[٧٧]...

أمّا القرآن فعاد إلى الشريعة الموسـويّة واتّبع التقاليد اليهوديّة والنّصـرانيّة، وجعـل بين الأطعمـة فوارق، فنجّس بعـضَهـا وقدّس بعضها الآخر. وأعلن: «إنّمـا حرّم عليكم الميتة، والدم، ولحم الخنزير، وما أهلّ به لغير اللّه» (٢/١٧٣)، وردّد ذلك مرارًا[٧٨].

٥ – **الزواج** هو فرضٌ واجبٌ في اليـهوديّة والنصـرانيّة. في البدء كـانت البتوليّـة محتـرمة عند الإبيونـيّين، على ما يقول أبيـفان عنهم: «وَاليوم يحرّمون البتوليّـة والإمساك عن الزواج كما في سائر الشيع التي تشـبههم، ويفرضـونه على الشباب فرضـاً، ولكن قديماً كانوا يحترمون التبتل»[٧٩]، ومن يمتنع عن الزواج تقع عليه مسؤوليّة إجتماعيّة ودينيّة كبيرة[٨٠]...

وموقف القـرآن من البتوليّة لم يـكن رفضاً مطلقاً، كـما يُظَنُّ. فهـو لم يحـرّم الرهبانيّـةَ تحريماً مطلقـاً، إنما يقف ضد رهبـان لم يرعَوها حقَّ رعايتها (٥٧/٢٧)، أي لم يعيشوا بموجب ما عاهدوا به

---

(٧٥) أنظر: رسل ١٥/٢٠ و٢٨–٢٩؛ ٢١/٢٥.

(٧٦) أفرهات، البيّنات ١٥/٧؛ أنظر تعاليم الرسل «ديدسكالي».

(٧٧) متى ١٥/١١ و١٧–٢٠؛ مر ٧/١٥–٢٣.

(٧٨) سورة المائدة ٥/٣؛ الأنعام ٦/١٤٥؛ النحل ١٦/١١٥.

(٧٩) Epiphane, Panarion, 30, 18.

نفوسهم؛ لذلك فهو يعظّم تارةً شأنَ بعض الرهبان الذين «لا يستكبرون» (٥/ ٨٢)، وطوراً يتّهم بعضهم الآخر بأكل أموال الناس وبالكبرياء: «إنّ كَثِيراً مِنَ الأحْبَارِ وَالرّهْبَانِ لَيَأكُلُونَ أمْوَالَ النَّاسِ بالبَاطل» (٩/ ٣٤). وسبب تهمة محمّد لهذا البعض يعود إلى سيرتهم العاطلة التي لم تكن «ابتغاء رضوان اللّه» (٥٧/ ٢٧) أكثر ممّا تعود إلى الحياة الرّهبانيّة نفسها... إلاّ أن التحريض على الزواج، هو، في القرآن، أكثر وضوحاً وأوجب مسلكاً: «وَإنْ خِفْتُمْ ألاَّ تُقْسِطُوا فِي اليَتَامَى، فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاء، مَثْنَى وَثُلاثَ وَرُبَاعَ. فإنْ خِفْتُمْ ألاَّ تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً، أوْ مَا مَلَكَتْ أيْمَانُكُمْ. ذَلِكَ أدْنَى ألاَّ تَعُولُوا» (٤/ ٣)[٨١].

٦ - **الصيام** سنّة عامّة في الأديان. إلاّ أنّ أحكامه في القرآن تشبه إلى حدٍّ بعيد أحكامه في اليهوديّة والنصرانيّة، بل هي نفسها. جاء في التلمود وفي المشنا: «إنّ أوّل نهارِ الصيام هو الوقت الذي يَقدر المرء فيه أن يتبيّن الخيط الأبيض من الخيط الأزرق»[٨٢]، وجاء في القرآن: «كُلُوا وَاشْرَبُوا حتّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الخَيطُ الأبيضُ مِنَ الخَيطِ الأسودِ مِنَ الفَجْرِ، ثُمّ أتِمُّوا الصِّيَامَ إلَى اللَّيلِ» (٢/ ١٨٧).

ومن أحكام الصيام أيضاً في التقاليد النّصرانيّة ألاّ يجتمع الرَّجل بامرأته كما كان في البدء[٨٣]. وقد بقي له إلى اليوم أثر في شريعة الامتناع عن الزواج في زمن الصوم المقدس. ولكنّ هذه

(٨٠) Kérygme de St. Pierre, 19, 22.

(٨١) أنظر كتاب نبي الرّحمة وقرآن المسلمين، رقم ٢ من سلسلة الحقيقة الصعبة.

(٨٢) التلمود، ١/ ٥؛ المشنا، ١/ ٢.

الأحكام أُلغيتْ فيما بعـد، وقد وصلتْ إلى القرآن العربي مُلْغاة، بدليل تحليله لَها: «أُحِلَّ لَكُمْ لَيـلَةَ الصِّيامِ الرَّفَثُ (أي الجُمـاع) إلى نِسَائِكُمْ» (٢/١٨٧)؛ واستبقى منعَها في خَلْوَةِ المساجد: «وَلا تُباشِرُوهُنَّ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي المَسَاجِدِ» (٢/١٨٧).

٧ – **الصلاة**، هي نفسها في النصرانيّة والإسلام: ثلاث مرّات في اليوم: عند الصبح والظهـر والغروب، وما سوى ذلك من النّوافل. في تعـاليم الرسل: «عَـلينا أنْ نصلّي ثـلاثَ مـرّات في اليـوم»[٨٤]، والقـرآن كذلك حـدّد: « ثلاثَ مَرّاتٍ: صـلاة الفجـر، وحين تضعـون ثيابكم من الظهيرة، ومن بعـد صلاة العِشَاء» (٢٤/٥٨). وفي مكان آخر، يُسـمّي صلاةَ الظهيرة «صـلاة الوسطى» (٢/٢٣٨). وجاء في تعليم الرّسل أيضاً: إنّ صـلاة اللّيل إنّما هي نافلةٌ، لا تجبـر أحداً[٨٥]؛ وفي القرآن أيـضاً: «وَمِنَ اللَّيلِ فَـتَهَجَّـدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ» (١٧/ ٧٩)، أي: هي «خالصة لك دون أمّتك»[٨٦]. أمّا قِبلة الصـلاة، في النّصرانيّة[٨٧]، كمـا في القرآن فبيـتُ المقدس، إلاّ أنّها تحوّلت، بـعد الهجرة، وبعـدما وسـع الشقاق بين محمّد واليهود إلى مكّة (٢/ ١٤٢–١٤٥).

٨ – **المرأة وأحكام الزواج والطلاق**. المشـابهـة في هذه، بين النصرانـيّة والقرآن العـربي، شديدة، وكـذلك في اليهـوديّة. جاء في

---

(٨٣) Cf. St. Augustin, Sermon au peuple... 124, 7.

(٨٤) Didachè, VIII, 3.

(٨٥) Hippolyte de Rome, Tradition Apostolique, 35.

(٨٦) تفسير الطبري على آية ١٧/ ٨٧.

(٨٧) Cf. Irénée. Adv. Haer., I, 26: 2; Const. Apst., II, 57.

التلمود اليهودي: «ولادة الأنثى سببُ غمٍّ للأب»[٨٨]؛ وفي القرآن كذلك: «إذا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالأُنْثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا، وَهُوَ كَظِيمٌ. يَتَوَارَى مِنَ القَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ» (١٦/٥٨).

في النصرانيّة: إنّ «الحياة العامّة للرّجال. ويليق بالنساء أن تبقي في البيت ويعشن محتجبات»[٨٩]. تقول الأم لابنتها: «كنتُ فتاةً عَذراء لا أجتاز عتبة البيت الوالدي»[٩٠].

وكذلك يوجب القرآن على النساء: «وَقَرْنَ (أي واقررنَ) فِي بُيُوتِكُنَّ وَلا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الجَاهِلِيَّةِ الأُولَى» (٣٣/٣٣). ويقول للنساء المؤمنات جميعهنّ: «وَقُلْ لِلمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ، وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ، وَلا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إلاّ مَا ظَهَرَ مِنْهَا. وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ، وَلا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إلاّ لِبُعُولَتِهِنَّ» (٢٤/٣١).

وكذلك شأن المرأة، في النصرانية، «إذا مَا كشفت عن رأسها في الشارع، وأسرعت في السّير مجدّةً، وحادثتِ المارّة، ولعنتْ أولادَ زوجها، وصاحتْ بأعلى صوتها... تطلّق»[٩١].

والطلاق حقّ للرجل وحده[٩٢]، ومع هذا فهو مكروه «وهو (أي اللّه) يبغض الطلاق»[٩٣]. ولا يحقّ للرجل أكثر من أربع نساء[٩٤].

---

(٨٨) A. Cohen, le Talmud, p. 211.

(٨٩) Philon, Les Lois, III, 169.

(٩٠) IV Maccabiens, XVIII, 7.

(٩١) Le Talmud, v. Fiançaille, p. 211..

(٩٢) Le Talmud, v. Fiançaille, VII, 7.

(٩٣) نبوءة ملاخي ٢/١٦.

والطلاق، في القرآن، هو أيضاً، حقّ للرجل وحده[٩٥]، ومع هذا فهو مبغوض: «أبغض الحلال الى الله الطلاق»[٩٦].

٩ – ألقربان والكهنوت: إنّ موضوع تقدمة القرابين، في النصرانيّة، مختلَف فيه: بعض النصوص تشير إلى وجوب إقامة القربان[٩٧]، وبعضها غير واضح المقصود منه. ينقل أبيفان عن الإبيونيّين أنهم كانوا يحتفلون بالخبز الفطير وبالماءِ بدلَ الخمر. وكان يُقام مع الفصح اليهودي مرّة واحدة في السنة، وللذكرى فقط لا للتجديد[٩٨]. ومع هذا، لا شيء يدلّ على أنّهم كانوا يعتبرون ذلك إفخارستيّا، إنّما هي «مائدة» روحيّة يجتمعون حولها.

وفي القرآن أيضاً، لا شيء واضح: لا هو يُنكرها، ولا هو يقرُّها. فهو، من جهةٍ، يعتبرها معجزةً كإحدى معجزات عيسى؛ ومن جهةٍ، يشير إليها ببالغ الأهميّة: إنّها «مائدة من السماء» (٥/ ١١٤)، طلبها الحواريّون من عيسى (١١٢)، لتطمئنّ بها قلوبُهم (١١٣). فطلبها عيسى من الله (١١٤) لتكون «عيداً للأوّلين والآخِرين» (١١٤). ونزّلها اللّهُ بناء لطلبه (١١٥). وراح عيسى يهدّد منَ يكفرُ بها بعذابٍ لم يعذّبْ مثلَه أحداً من العالمين (١١٥). و«هو إعلان

---

(٩٤) Le Talmud, Yebamot, 1,44; Shem'uni, I, 82...

(٩٥) أنظر سورة البقرة ٢/٢٢٦–٢٣٢ و٢٣٦–٢٣٧ و٢٤١؛ ألنساء ٤/١٢٨–١٣٠؛ ألأحزاب ٣٣/ ٤ و٤٩.

(٩٦) سنن أبي داوود ١٣/٣، سنن ابن ماجة ١٠/١، وغيرها من أحاديث نبوية.

(٩٧) Kérygme de St. Pierre Reconn. I, 63...

(٩٨) Epiphane, Panarion, XXX, 13.

جهوري لا يوجد له في مثل هذه الصيغة، مثيل في القرآن. ثم هو اللّهُ نفسه الذي يتولّى إعلانه»(٩٩).

هذا الموقف المبهم من موضوع القربان أدّى أيضاً، في النّصرانيّة والإسلام، إلى موقف مماثلٍ من الكهنوت. يقول النصارى إنّ المسيح أتى ليُلغي ذبائح العهد القديم إستناداً إلى تعاليم التوراة نفسِها(١٠٠). وقد عبّر المزمور الخمسون عن ذلك بقوله: «إنّك لا تبتغي ذبيحة.. ولا ترتضي بمحرقة»(١٠١). وبنظر الإبْيونيّين، إنّ المسيح، أطفأ، بصبغة المعموديّة النّار التي يُشعلها الكاهن للخطايا»(١٠٢)، فألغى، بالتالي، وظيفة الكاهن، لأنّ إلغاء الذبيحة والمحرقة، كفداء للخطايا، تلغي، لا محالة، الكاهن والكهنوت. وقد كان يومٌ عندهم كانتْ فيه الذبيحة ضروريةً لذلك، وكذلك الكهنوت(١٠٣)...

والقرآن العربي هو أيضاً كذلك، لا يقول شيئاً عن الكهنوت ولا عن الذبيحة. فهو لا يؤمن بالذبيحة كفداء للخطايا، ولا بالكهنوت لإقامة الذبيحة، ولا محلّ لهما فيه. وقد يكونُ مُقرّاً بهما سابقاً بدليل استبدالِهما بـ «صِبْغَةَ اللّهِ. وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللّهِ صِبْغَةً» (٢/١٣٨)...

---

(٩٩) D. Masson: “Il convient de remarquer que cette formule particulièrement solonnelle ne paraît que cette seule fois dans le Coran; c’est Dieu lui-même qui la prononce”. (Le Coran, Sour. V, 115, n°.1 p.826).

(١٠٠) انظر الغاء الذبيحة في عاموس ٥/٢١؛ ٤/٤ –٥؛ ١ ملوك ١٥/٢٢؛ أشعيا١/١٠–١٦؛ ٢٩/١٣–٢٤؛ ٥٨/١–٨؛ هوشع ٦/٦؛ ملاخي ٦/٥–٨؛ إرميا ٦/٢٠؛ يوئيل٢/١٣؛ زكريا ٧/٤–٦؛ مزمور ٣٩/٧...

(١٠١) المزمور ٥٠/١٨.

(١٠٢) Kérygme de St. Pierre, Reconn. I, 48; 36, 37, 39, 55...

(١٠٣) Kérygme de St. Pierre, Reconn. I, 36; 48...

ومَن يدري ما هي «صبغة اللّه» هذه؟ وهي لا ترد في القرآن إلاّ مرّة واحدة! ويختلف المفسِّرون في معناها: فتارة هي دين اللّه، وطوراً، فطرة اللّه، وآخر الدين الحنيف المسلم، أي النّصرانيّة. وقد تكون هي المعموديّة نفسها، كما يصفها القديس بولس بأنّها غسْل[١٠٤]، وخَتْم مطبوع[١٠٥]، وتنوير[١٠٦]، وختان جديد[١٠٧]، ولِبس للمسيح[١٠٨].

١٠ – **الكعبة والبيت المعمور.** في تقاليد المسلمين إنّ «البيت المعمور» هو «كعبة» الملائكة في السماء. وكعبة مكّة هي البيت الذي بناه الملائكة على الأرض على مثال كعبتهم السماوية.

جاء عند الأزرقي، أحد أكبر جامعي أخبار الكعبة وآثارها: «إنّ اللّه بعث ملائكة فقال لهم: أبنوا لي بيتاً في الأرض بمثاله وقدره (أي بمثال البيت المعمور الكائن في الجَنّة). فأمر اللّه مَن في الأرض مِنْ خَلقه أن يطوفوا بهذا البيت كما يطوف أهل السماء بالبيت المعمور»[١٠٩].

وفي التقليد اليهودي–النصراني إنّ «هيكل أورشليم» هو نسخة عن «الهيكل الحقيقي الموجود في السماء»، هذاما جاء في

---

(١٠٤) ألرسالة إلى تيطس ٣/ ٥.

(١٠٥) ٢ قورنتس ١/ ٢٢؛ أفسس ١/ ١٣؛ ٤/ ٣٠.

(١٠٦) أفسس ٥/ ٨–١٤؛ عبرانيّين ٦/ ٤.

(١٠٧) كولوسّي ٢/ ١١؛ أفسس ٢/ ١١–٢٢.

(١٠٨) غلاطية ٣/ ٢٧؛ أنظر: كولوسّي ٢/ ١٢؛ روما ٦/ ٣–٤؛ أفسس ٤/ ٢٤..

(١٠٩) الازرقي، أخبار مكّة ١/ ٣٣–٣٤. أنظر أيضاً تفاسير سورة الطور ٥٢/ ٤.

التلمود(١١٠). وعند فيلون أيضاً: «إنّ الهيكل المنظور هو صورة لهيكل اللّه غير المنظور... سدنته ملائكة هم كهنة خدمته»(١١١).

١١ - **الحجر الأسود.** كثرت حوله الأساطير في الأخبار الإسلاميّة. فاعتبره بعضهم حجراً سماوياً، أو من بعض النجوم، أو من بقايا الجَنّة على الأرض. كان ناصع البياض «لكنّ اللّهَ غيّره بمعصية العاصين»(١١٢). وقيل: «مَن قام عنده فدعا، استُجِيبَ له، وخرج مِن ذنوبه كيومٍ ولدتْه أمُّه»(١١٣). أو أيضاً «مَن لمسه جعل اللّهُ فيه شفاء»(١١٤). وجاء في الأزرقي: «إنّ اللّهَ تعالى جعل الركن عيدَ أهلِ هذه القِبلة، كما كانتِ المَائِدَةُ عيداً لبني إسرائيل. وإنّكم لن تزالوا بخيرٍ ما دام بين ظهرانيكم»(١١٥).

وفي الآثارات النصرانيّة ثمّة حجَرٌ يُسمّى «الحجَر الأسود»؛ وهو كناية عن «حجر» كان أبيض، يُوضع في «جرن العماد» ويمثّل المسيح، بحسب ما جاء: «هذه الصخرة هي المسيح»(١١٦)، ويوصف أيضاً بـ «الحجر المنير». منه تنبع الماء لإرواء العطاش، وشفاء المرضى، والتطهير من الذنوب(١١٧) ...

---

(١١٠) Voir Hagiga 12b; Ta'anit 5a; Yoma 77 a; Hullin 40 a.

(١١١) Philon,Spec, Leg., I, 66.

(١١٢) الأزرقي، أخبار مكّة، ١/٣٢٣.

(١١٣) الأزرقي، ١/٣١٨.

(١١٤) الأزرقي، ١/٣٢٦-٣٢٧؛ ٣٢٨.

(١١٥) الأزرقي، ١/٣٤٣.

(١١٦) ١ قور ١٠/٤؛ انظر مز ١٧/٣ «الرب صخرتي»؛ خر ١٧/٦؛ مز ٧٧/١٦.

(١١٧) Justin, PG. 6,739-740. Bagatti, L' Eglise de la Circoncision, p. 201.

هل يكون «الحجر الأسود» في مكة هو «المسيح الصخرة»، الموجود في جرن العماد عند النّصارى؟ إنّ الآثار تدلّ على تقاربٍ في الحجم والشكل بين الإثنين. ثمّ ليس مَن يعجب مِن اسوداد الحجر في ماءٍ آسنة، استُعملتْ مراراً للتطهير والوضوء، جرياً على عادةٍ نصرانيّة، عبّر عنها كتاب راعي هرماس بقوله: «إنّ حياتك خلصت بالماء»[١١٨].

ثم بعد التبرّك «بالماء» واستلام «الحجر»، كان المعمَّدون الأطهار «يدوسون بأرجلهم الشيطان، ويرجمونه بالحصى». ومن بعد ذلك كانت تجري مراسم الطواف سبعَ مرّاتٍ حول بيت الكعبة، كما حول بيت العماد[١١٩]...

١٢ – **آثار الكعبة.** تشبه آثار الكعبة، بما تحتوي عن إبراهيم الخليل، والملائكة، والمسيح في حضن أمه مريم[١٢٠]، الآثارَ النصرانية الكثيرة الموجودة في «بيوت العماد»، في النّاصرة وبيتَ لحمٍ وأورشليم وبللاّ وبترا... في وسط «بيت العماد» حوض ماء يعلو ٨٤ سم. على جدران الحوض آثار أنبياء وملائكة، ودعاءات وصلوات... يشهد Arculfe الذي زار الأراضي المقدسة، سنة ٦٧٠، على أنّ هذه الأمكنة جميعها كانت تشابه بعضها بعضاً... وكان معظمها على اسمِ أحدِ «أنبياء العبور»، أي الذين عبروا الأردنّ، أو الصحراء، أو البحر... كإيليا، وموسى، وإبراهيم ويحيى المعمدان... ولا يُستبعد، والحال

---

(١١٨) Pasteur d'Hermas, Vision III, 3, 5...

(١١٩) أنظر: Bagatti, L'Eglise de la Circoncision, p. 202.

(١٢٠) أنظر الأزرقي، أخبار مكّة، ١/ ١٦٥.

هذه، أن تكون «كعـبة مكة»، مع ما وُجِـد فيها، يومَ الفـتـح، من صُوَرٍ لإبراهيم، وعيسى في حضن أمّه مريم، على علاقة ببيوت العماد.

ولا يُستبعـدُ أيضاً أن يكون ما في سورة النُّور (٢٤/ ٣٥) من ألفـاظٍ مثل: «النار» و«النور» و«المـصـبـاح» و«المشكاة» و«الزجاجـة» و«الأغصان» و«الزيتون»... هي نفسها ألفاظٌ يستعملها النّصارى في صور العماد ورموزه(١٢١).

---

(١٢١) أنظر: Begatti, L'Eglise de Circoncision, pp. 203- 206. وما فيه من صور أثرية ورموز...

ثالثاً – في الحسناتِ والصَدَقات وأعمال البرّ

إنّ تعاليم القرآن العربي في موضوع الحسنات والصدقات وأعمال البرّ هي تعاليم نصرانيّة إبيونيّة في كلّ شيء. وأولى السّور القرآنيّة، بحسب تسلسلها الزمني، هي التي دعتْ إلى الاهتمام بالفقراء والمساكين، وإطعام الجياع، ومساعدة اليتامى والأرامل والضعفاء، وسدّ عوز المحتاجين، واستضافة الغرباء وأبناء السبيل، والعناية بأصحاب الفاقه، وفرض الصدقة والحسنة، وعمل الصالحات...

ومن لم يأخذ بهذه التعاليم فهو من عداد أصحاب الهلاك لا محالة. ومن يحبس أحشاءه عن إغاثة المحتاجين يحرم نفسه من جنّة النّعيم. والذين لا يعملون الصالحات، كـ «الّذينَ كَذَّبُوا بآيَاتِنَا، وَاسْتَكْبَرُوا عَنْها، لا تُفَتَّحُ لَهُمْ أبْوابُ السَّمَاءِ، ولا يَدْخُلُونَ الجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الجَمَلُ فِي سَمِّ الخِيَاطِ» (٧/ ٤٠)، تماماً كما يعلّم الإنجيل العبراني في قوله: «لأن يدخل الجمل في سَمِّ الإبرة أيسر من أن يدخل الغني ملكوت السماوات»[١٢٢].

هذه التعاليم في وجوب صنع الحسنات والصدقات تؤلّف لبّ عقيدة الإبيونيّين. ومنها كان إسمهم، من قول المسيح: «طوبى للإبْيونيّين»، أي «طوبى للفقراء»[١٢٣]. وعنهم قال إبيفان: «إنّ

---

(١٢٢) إنجيل متّى ١٩/ ٢٤؛ إنظر أيضاً: Origène, Comm. sur Mt. 15, 14

الأبيـونيّين كانوا يفـتـخرون بفـقرهم، ويـتراءون أمـام الناس فيـه، ويتبـاهون ببيع أملاكهم وخـيراتهم وتوزيعهـا على المساكين، وعلى بعضهم بعضاً»(١٢٤). وقال فيهم كتاب «الكرازة» المنسوب الى القديس بطرس: «إنّهم كانوا يمدحون الفـقر ويذمّون الملكيّة»(١٢٥)، و«يشدّدون على اقتلاع شهوات الغنى من النفس أكثر منه من اليد»(١٢٦).

واستنار الإبيـونيّون في تعاليمـهم هذه باليهود والمسيـحيين على السواء، وبالتوراة والإنجيل معـاً. فاليهود علّموا في توراتهم بـ «أنْ تَكْسرَ للجـائع خبزَكَ، وأنْ تُدخل البـائسين المطرودين بيتَك. وإذا رأيت العريان أن تكسوه... حـينئذ يسير برّك أمامك... وحـينئذ تدعو فيستجيب الرب... إذا أبرزتَ نفسك للجائع، وأشبعتَ النفسَ المعنّاة... يَهـديك الربُّ في كلِّ حين، ويُشبع نفـسَك»(١٢٧). وأمرت الحكمة بأنْ «أبسطْ يدك لِلفقير»(١٢٨). ويعلّم التلمود بـ «أنَّ العالَمَ يُبنى على ثلاثة أشياء: التّوراة، وعبادة اللّه، وأعمال البرّ»(١٢٩).

والمسيـحيـون، هم أيضاً، أناطوا الخلاص بـــ «الإيمان العامل بالمحبة»(١٣٠)، أي بإطعام الجـائع، وإرواء ظمأ العطشان، واستـضافة

---

(١٢٣) متى ٥/٣.

(١٢٤) Epiphane, Panarion, XXX, 17.

(١٢٥) Kérygme de St. Pierre, Hom. XV, 7.9...

(١٢٦) Kérygme de St. Pierre, Hom. XV, 10...

(١٢٧) أشعيا ٥٨/٧-١١، أنظر أيوب ٢٢/٦-٨.

(١٢٨) سفر يشوع بن سيراخ ٧/٣٦.

(١٢٩) Le Talmud, Pirké Aboth, 1, 2; Cohen, p. 176..

(١٣٠) أنظر غلاطية ٥/٦؛ ١ تسا ١/٣؛ ٢ تسا ١/١١... وغيرها

الغـرباء، وإلبـاس العريان، وزيـارة السجين، وعـيـادة المريض[١٣١]. ويولي يعقـوب الرّسول عمَـلَ الصالحات أهمـيّةً قصـوى، لدرجة أنّ «الإيمان بدون الأعمال ميت»[١٣٢].

ويشـدّد آباء الكنيسـة، على مخـتلف ألوانهم، على ممارسـة أعمال البرّ. فكان باخوميوس يقول: «ليس من رجاء للإنسان في هذا العالم إنْ لم يَصنعِ الخير قبل أن يتركَ جسده»[١٣٣]. وأفرام السرياني يعلّم: «طوبى للّذين يسهرون في الصدقات»[١٣٤]، وأيضاً «إنّنا نُرسلُ، قبلَ ذهابِنا إلى القضاء، أعمالَنا الصالحـة لتستقبلَنا عند وصولنا إلى مدينة القدس»[١٣٥]، «بالدموع والصـدقات نستطيع محو الشكاوى المكتـوبة علينا»[١٣٦]. واكليـمنضـوس الإسكندري كـان يقـول: «ما أحسنها تجارة! وما أجمله سوق إلهي! إنّنا نبتاع الأبديّةَ بأشياء زائلة من هذا العالَم»[١٣٧].

وعادة ما كـانَ يستعمل آباء الكنيسـة السريان تعبـير «تجارة مع اللّه»[١٣٨]، للدلالة على الرّبح الذي ينـاله المتصـدّقون بأمـوالهم... وفي القـرآن أيضـاً دعوة إلى «تجـارة مع اللّه»، لا تكسـد ولا تبـور،

---

(١٣١) أنظر إنجيل متى ٢٥/٣٧-٤٦؛ ١ قور ١٣/٢؛ ١ يوحنا ٣/١٧.

(١٣٢) رسالة يعقوب ٢/١٤-٢٦.

(١٣٣) حياة باخوميوس ١٧/٣٨١.

(١٣٤) Op. Gr. , II, 22...

(١٣٥) Op. Gr., II, 152...

(١٣٦) Op. Gr., II, 215...

(١٣٧) Cl.ément D'Alexandrie. Stromates 32.

(١٣٨) Syn. Or., Canon XIX...

وتنجّيهم من عذابات النّار. قال: «يا أيُّها الّذينَ آمَنوا! هل أدُلُّكُمْ علَى تِجَارَةٍ تنجِّكُمْ مِنْ عَذابٍ أَليمٍ؟ تُؤْمِنُونَ باللّهِ وَرَسُولِه، وَتُجاهِدُوا فِي سَبِيلِ اللّهِ بأمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ. ذَلِكُمْ خَيرٌ لَكُمْ إنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ» (٦١/ ١٠)[١٣٩].

بين القرآن العربي وأنجيل العبرانيّين أكثر من وفاق في هذا الموضوع، بل نقلٌ صريح و«تفصيل» واضح. والنصوص المسيحيّة والنّصارى، وبنوع خاصّ متّى ولوقا، تشدّد على العناية الفائقة بالفقراء. فمتّى ولوقا، كما يقول الأب بِنْوَا إستاذ العلوم البيبليّة، ومترجم إنجيل متّى، هما كالإنجيل العبراني، يعتمدان على «إنجيل متّى الأرامي»، أصلِ كلِّ الأناجيل بعده[١٤٠]. لهذا، فإنّ المقارنة بينهما وبين القرآن العربي، تصحّ وتفيد وتؤدّي المطلوب.

جاء في القرآن العربي: «الّذينَ يُنْفِقُونَ أمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ، ثُمّ لا يُتْبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنًّا وَلا أذَى لَهُمْ أجْرُهُمْ عِنْدَ رَبّهم، ولا خَوفٌ عَلَيهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ. قَولٌ مَعروفٌ وَمَغفِرةٌ خَيرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أذًى» (٢/ ٢٦٢). وقال: «يَا أيُّها الّذينَ آمَنُوا! لا تُبطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالمَنِّ وَالأذَى كَالّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النّاسِ» (٢/ ٢٦٤)[١٤١]. وقال: «وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ، أو نَذَرْتُمْ مِنْ نَذْرٍ فإنَّ اللّهَ يَعْلَمُه.. إنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمّا هِيَ، وَإنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيرٌ لَكُمْ، وَيُكَفِّرُ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ. وَاللّهُ بِما تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ» (٢/ ٢٧٠-٢٧١).

---

(١٣٩) أنظر: سورة التوبة ٩/ ٢٤؛ سورة فاطر ٣٥/ ٢٩...

(١٤٠) Introduction à l'Evangile selon St. Mt, P. Benoit, Edit. du Cerf, p. 12-29

(١٤١) أنظر سورة النساء ٤/ ٣٨.

وجاء في المصادر الإنجيليّة: «متى صنعتَ صدقة، فلا تبوّق بها قدّامك كما يفعل المراءون في المجامع وفي الشوارع لكي يمجدّهم الناس»[١٤٢]. وجاء أيضاً: «إيّاكم أن تعملوا برّكم بمرأى من الناس لكي ينظروا إليكم فلا يكون لكم أجر عند أبيكم»[١٤٣]. وأيضاً: «أنتم تزكّون أنفسكم عند النّاس»[١٤٤].

وجاء في القرآن: إنّ اللّهَ «لا يُضِيعُ أَجْرَ المُحْسِنِينَ» (٩/ ١٢٠)[١٤٥]. وقال: «مَن جَاءَ بِالحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا» (٦/ ١٦٠). وقال أيضاً: «إِنّ المُصَّدِّقِينَ وَالمُصَّدِّقَات وَأَقْرَضُوا اللّهَ قَرْضاً حَسَناً يُضَاعِفُ لَهُمْ. وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ» (٥٧/ ١٨)[١٤٦].

وفي المصادر الإنجيليّة: «مَن يسقي... كأس ماء بارد فأجرُه لن يضيع»[١٤٧]. ويقول بطرس للمسيح: «قد تركنا كلَّ شَيء... فماذا يكون جزاؤنا؟ قال يسوع ينال مائة ضعف»[١٤٨].

***

إنّ أصحاب الجنّة في متّى هم الذين ناداهم المسيح قائلاً: «تعالوا يا مباركي أبي رثوا الملكوت المعدّ لكم: لأنّي جعتُ

---

(١٤٢) متى ٦/ ٢-٨

(١٤٣) متى ٦/ ١.

(١٤٤) لوقا ١٦/ ١٥.

(١٤٥) أنظر أيضاً: سورة هود ١١/ ١١٥؛ سورة يوسف ١٢/ ٥٦..

(١٤٦) أنظر أيضاً: سورة البقرة ٢/ ٢٤٥؛ التغابن ٦٤/ ١٧؛ المزمّل ٧٣/ ٢٠...

(١٤٧) متى ١٠/ ٤٢.

(١٤٨) متى ١٩/ ٢٩.

فأطعمتموني، وعطشت فسقيتموني، وكنت غريباً فآويتموني، وعرياناً فكسوتموني، ومريضاً وسجيناً فزرتموني»[(١٤٩)].

وفي القرآن: إنّ أصحابَ الجنّة هم أيضاً الذين يعملون على تحرير الأسير، وإطعام الجائع، ومحبّة المسكين، وتقريب اليتيم. قال: «فَكُّ رَقَبَةٍ، أو إِطْعَامٌ فِي يومٍ ذِي مَسْغَبَةٍ، يَتِيماً ذَا مَقْرَبَةٍ، أو مِسْكِيناً ذَا مَتْرَبَةٍ» (٧٠/١٢-١٦).

وصاحب الهلاك، في متّى، هو الذي لم يُطعم جائعاً، ولم يأوِ غريباً، ولم يفتقدْ مريضاً... هذا سوف يسمع صوت الديّان يقول له: «خذوه وألقوه في الظلمة البرانيّة»[(١٥٠)].

وفي القرآن أيضاً، إنّ الّذي لا يحضّ على طعام المسكين، سوف يسمع اللّهَ يقول للملائكة خزنةِ جهنّم في شأنه: «خُذُوهُ فَغُلُّوهُ، ثُمَّ الجَحِيمَ صَلُّوهُ.. إنّه كَانَ لا يُؤْمِنُ باللّهِ العَظِيمِ، وَلا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ المِسْكِينِ. فَلَيسَ لَهُ هَهُنَا حَمِيمٌ (أي قريبٌ يدفع عنه)، وَلا طَعَامٌ إلاّ مِنْ غِسْلِينٍ (قيح وصديد)» (٦٩/ ٣٠-٣٦).

فالخلاص، إذاً، في القرآن وفي متى، منوط بعمل الصالحات وفعل البرّ. فمَن عمل صالحاً لا خوف عليه، على حسب ما يقول القرآن، وله جزاء الضّعف، يكفّر اللّهُ عنه سيّئاته ويغفر له، ويؤتيه أجرَه مرّتين، ويكون من المفلحين[(١٥١)]. إنّ اللّهَ يوفي المحسنين

---

(١٤٩) متى ٢٥/ ٣٤-٤٠.

(١٥٠) متى ٢٥/ ٤١-٤٦؛ ٥/ ٣٠.

(١٥١) ألمائدة ٥/ ٦٩؛ سبأ ٣٤/ ٣٧؛ ألتغابن ٦٤/ ٩؛ طه ٢٠/ ٨٢؛ ألأحزاب ٣٣/ ٣١؛ القصص ٢٨/ ٦٧.

أجورهم، ويهديهم بإيمانهم، ويجزيهم من فـضله، ويُدخلهم رحمتَه، ويُخرجهم من الظلمات إلى النور، ويرزقهم بغـير حساب. لا يخافون ظلماً ولا هضماً. لهم الدرجاتُ العليـا، والجَنّات التي تجري من تحتها الأنهار[١٥٢]. فـ «الّذِينَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَى لَهُمْ وَحُسْنُ مَآب» لأنّ «البِـرَّ مَنْ آمَنَ... وآتى المالَ عَلى حُـبِّـه ذَوِي القُـربَى وَاليَـتَـامَى وَالمَسَاكِين»[١٥٣].

لقد علّم القرآن «إنّ اللّهَ مع المحـسنين»، و«قريب من المحسنين»، و«يحبّ المحسنين»[١٥٤]. وجاء مـحمّـد لأمر إلهيّ يقول: «بَـشِّرِ الّذينَ عَـمِلُوا الصَّالِحَـات» (٢/ ٢٥)، فـ «لهم مـا يشـاؤون عند ربّهم. ذلك جزاء المحـسنين» (٣٩/ ٣٤). في حين أن صـانـعي السيّئـات والظالمين وأصـحاب النـار «الذين يأكلون أموال اليتامى ظلمـاً، انّما يأكلون في بطونهم ناراً. وسيصلون سعيراً» (٤/ ١٠).

تعاليم القرآن العربي هذه هي إيّاها تعـاليم إنجيلَي متّى ولوقا الرّسميَّين، بعد إنجيل متّى الأرامي وإنجيل العـبرانيّين، وعليها يعتمد الإبيـونيّـون، ومنهـا يأخـذون تـعـاليـمـهم في وجـوب الحـسنات والصـدقـات للإيمـان الحقّ وللخـلاص. وهي تخـتـصـر بما يلي: «تَصَـدَّقـوا بما لديكم يكنْ كـلُّ شيء لكم طاهراً»[١٥٥]، و«إذا أردت أن

---

(١٥٢) آل عمران ٣/ ٥٧؛ يونس ١٠/ ٩؛ ألروم ٣٠/ ٤٥؛ ألجاثية ٤٥/ ٣٠؛ ألواقعة ٦٥/ ١١؛ غافر ٤٠/ ٤٠؛ طه ٢٠/ ١١٢؛ محمّد ٤٧/ ١٢.

(١٥٣) سورة الرعد ١٣/ ٢٩؛ ألبقرة ٢/ ١٧٧.

(١٥٤) سورة النحل ١٦/ ١٢٨؛ ألعنكبوت ٢٩/ ٦٩؛ ألأعراف ٧/ ٥٦؛ ألبقرة ٢/ ١٩٥؛ آل عمران ٣/ ١٣٤ و١٤٨؛ ألمائدة ٥/ ١٣ و٩٣.

(١٥٥) لوقا ١١/ ٤٠، أنظر متّى في تفسير أوريجينوس: Comm. sur Mt., 15, 14.

تكون كاملاً فاذهب وبعْ ما تملكه وتصدّق بثمنه على الفقراء، فيكون لك كنز في السماء»[١٥٦]. «بيعوا أملاككم وتصدّقوا بثمنها»[١٥٧]، «إذا أقمت مأدبة فادع الفقراء والزمنى والكسحان والعميان، فطوبى لك اذ ذاك لأنّهم ليس بوسعهم أن يكافئوك فتكافأ في قيامة الأبرار»[١٥٨]. « لا تكنزوا لكم كنوزاً في الأرض»[١٥٩]. «من كان لديه ثوبان فليقسمهما بينه وبين مَن لا ثوب له. ومَن كان لديه طعام فليفعل كذلك»[١٦٠].

لقد بشّر المسيح زكّا الذي قال: «أتصدّق على الفقراء بنصف أموالي... قال له يسوع: أليوم نال الخلاص هذا البيت»[١٦١]. وأقام بطرس من الموت «تلميذةً اسمها طابيثة لأنّها كانت غنيّة بالأعمال الصالحة والصدقات التي تعطيها»[١٦٢]. وكلّم ملاك اللّه كرنيليوس لأنّه «كان يتصدّق على الشعب صدقاتٍ كثيرة... قال له: صعدتْ صدقاتُك إلى اللّه»[١٦٣]. من أجل هذا أرسَل اللّهُ المسيح: «أرسلني لأبشّر الفقراء»[١٦٤]. وعندما باشر رسالتَه قال: و«الفقراء يُبشَّرون»[١٦٥]، و«طوبى للفقراء فإنّ لهم ملكوت السماء»[١٦٦].

---

(١٥٦) متى ١٩/ ٢١.

(١٥٧) لوقا ١٢/ ٣٣.

(١٥٨) لوقا ١٤/ ١٣-١٤.

(١٥٩) متى ٦/ ١٩.

(١٦٠) لوقا ٣/ ١١.

(١٦١) لوقا ١٩/ ٨.

(١٦٢) أعمال الرسل ٩/ ٣٦.

(١٦٣) أعمال الرسل ١٠/ ٢-٤.

(١٦٤) لو ٤/ ١٨ = أشعيا ٦١/ ٢.

أضف إلى هذه التعاليم الإبيونيّة في فعل الحسنات، ما تحقّق فعلاً في حياة محمّد: وهو أنّ جميع الذين اتّبعوه واستجابوا لرسالته هم من فقراء مكّة، من طبقة «الأرذلين» «المستضعفين»[(١٦٧)]، ومن «الأذلّة»[(١٦٨)]؛ في حين أنّ طبقة الأثرياء «المترَفين» (٣٤/ ٣٤)، و«الأعزّة»[(١٦٩)] اضطهدوه وشنّوا عليه حرباً ضروساً، واتّهموه، وسخروا منه، واحتقروا كلامه، وأعرضوا عن تعاليمه بحجّة أنّ الذين دخلوا في دعوته هم «أذلّة» معدومون وفقراء ضعفاء. قالوا له، كما قال قومُ نوحٍ لنوح: «أَنُؤْمِنُ بِكَ وَاتَّبَعَكَ الأَرْذَلُون؟» (٢٦/ ١١١)، أو «مَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إلاّ الّذينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا» (١١/ ٢٧). وقد اعترف محمّدٌ يوماً بأنّ الذين استجابوا دعوته هم بالفعل كذلك. وقالها مرّة لأصحابه بعد معركة بَدْر: «لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أذِلّة» (٣/ ١٢٣).

إلاّ أنّ النصر ومغانم الغزوات التي وعد بها النبيُّ أصحابَه سيفوزون بها بإذن اللّه. قال: «وَعَدَكُمُ اللّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأخُذُونَهَا»[(١٧٠)]. ووعدهم أيضاً بنقل أموالِ اليهود والمشركين إلى الفقراء منهم، وبالقضاء التام على أصحاب الثروة والمال. قال: «ما أَفَاءَ اللّهُ علَى رَسُولِه مِنْ أهلِ القُرَى فَلِلّه وَللرَّسولِ وَلِذي القُرْبَى

---

(١٦٥) متى ١١/ ٥؛ لوقا٧/ ٢٣.

(١٦٦) متى ٥/ ٣؛ لوقا ٦/ ٢٠.

(١٦٧) سورة الشعراء ٢٦/ ١١١؛ سورة الأنبياء ٢١/ ٢٧.

(١٦٨) سورة آل عمران ٣/ ١٢٣؛ المائدة ٥/ ٥٤؛ النمل ٢٧/ ٣٤...

(١٦٩) المائدة ٥/ ٥٤؛ النمل ٢٧/ ٣٤؛ المنافقون ٦٣/ ٨...

(١٧٠) سورة الفتح ٤٨/ ٢٠ و١٩؛ سورة النساء ٤/ ٩٤.

واليَتَامَى والمَسَاكِينِ وابنِ السَّبيلِ، كَي لا يَكُونَ دُولَةً (أي متداوَلاً) بَينَ الأَغْنِيَاءِ» (٥٩/٧).

ونفّـذ محـمّد مـا وعد به فـخرج بالمهـاجرين إلى يثـرب الّتي «تسـيطر على طرق تجـارة مكّة مع الشام من جـهـة الشمـال. وهذا يعطي فرصة لتـسديد ضربة قاتلة إلى مكّة الّتي تعتمـد على التجارة وقوافلهـا... وفي نفس الوقت فإنّ موقع يثـرب يتيح فرصاً واسـعة لشنّ الغـارات في اتّجاهات متـعدّدة، ويتـيـح فرصـاً واسعة بـالتالي للسيطرة على القبائل المجاورة لها»[١٧١].

من يثرب انطلق مـحمّد، على مـا تقول كتب السِّـير، إلى وَدّان «يُريد عِيـراً لقريش»[١٧٢]، ثمّ إلى بَواط «يعترض عـيراً لقريش»[١٧٣]. وفي غزوة «بَدْر» جمع الرسول أصحابه ودعا لهم قائلاً: «أللّهمّ! إنّهم حفاة فاحملْهم، وعراة فاكسِهم، وجياع فأشبعهم. وما منهم رجلٌ إلاّ رجع بجَمَلٍ أو جَـمَلَين. واكتسـوا. وشبعـوا بما أصابوا»[١٧٤]. وقبل الزحف على «مُـؤتة»، دعـا النبـي لأصحـابه قـائلاً: «دفـع اللّهُ عنكم ورَدّكم غانمين»[١٧٥]. وفيـما الحرب في «حُنَـين» تستعـر، جاء رجلٌ رسـولَ اللّهِ يُخـبرُه ويقـول: «فَـإذا أنا بِـ «هَوازِن» عَن بكرةِ أبيـهم،

---

(١٧١) حسين كروم، نظرية الثورة والتنظيم في كتاب «محمد نظرة عصرية جديدة»، ص ١٧١.

(١٧٢) طبقات ابن سـعد ٢/٦؛ سيرة ابن هشـام ٢/ ١٧٠؛ ألمغازي للواقدي ١/ ٢ و٩؛ ألسيرة الحلبية ٢/٣٤٧...

(١٧٣) ابن هشام ٢/١٧٦؛ الواقدي ١/٢و١٢؛ الطبري ٢/٤٠٧؛ الحلبية ٣٤٨.

(١٧٤) طبقات ٢/١١؛ الواقدي ١/ ١٥ ؛ ابن الأثير ١١٦؛ ابن هشام ٢/١٨٢...

(١٧٥) تاريخ اليعقوبي ٧٠-٧١؛ الحلبية ٣/٦٨-٧١.

بظَعْنِهم ونِعَمِهم وشَبَابِهم اجتمعوا إلى حُنين. فتبسّم محمّد وقال: " تلك غنيمةُ المسلمين غداً إن شاء الله " . فأَجْمَعَ أمرَ السير إلى هَوازن، وخرج أهلُ مكّة رُكباناً ومشاةً حتّى النساء يمشِينَ على غيرِ وَهَن يَرجُونَ الغنائم. وأمرَ رسولُ اللّهِ بالسبي والغنائم أن تُجْمع. فكان السبيُ ستةَ آلاف رأس، والإبل أربعة وعشرين ألفاً، والغنم أكثر من أربعين ألفاً، وأربعة آلاف أوقية فضة»[١٧٦]. ومن غزوة «تّبوك»، «ظفر المسلمون بالغنائم والسبايا»[١٧٧]...

تلك هي تعاليم الرسول في الحسنات والصدقات. وهذه هي غزواته وسيرته. في بادئ الأمر علّم فعل الخير والإحسان، ووعد فاعليه بالجنّة. أمّا فيما بعد فقد ظفر بما وعد، وقضى على طبقة «الأعزّة» الميسورين ورفع شأن «الاذلّة» المحرومين. وهكذا تغيّرتِ تعاليم الإبيونيّين السّمحة، وتعاليم القسّ ورقة والكتاب العبراني، من دعوة «طوبى للفقراء» في متى[١٧٨]، ودعوة «الّذينَ آمَنُوا وعَمِلُوا الصَّالحَات طُوبَى لَهُم وحُسنُ مَآب»، في القرآن المكّي (١٣/٢٩)، إلى دعوة «عند اللّهِ مغانم كثيرة» في القرآن المدني (٤/٩٤).

لهذا السبب قال بعض الباحثين في نشأة الاسلام: لـ «قد أصبح اليوم من المقرّر أنّ الإسلامَ، كغيره من الأديان الكبيرة، ليس فقط فكرةً دينيّةً، بل مسألة اقتصاديّة واجتماعية أيضاً؛ أو بالأحرى، هو مسألة اقتصاديّة واجتماعيّة أكثر منه فكرة دينيّة»[١٧٩]. وبالمعنى

---

(١٧٦) الحلبية ٣/١٣١-١٤٧.

(١٧٧) المرجع نفسه. أنظر كتابنا «نبي الرحمة، قرآن المسلمين» ص ١٣٧-١٤٣.

(١٧٨) متى ٥/٣.

نفسه قال الأمير كايتاني: «إنّ الإسلام لم يكن حركةً دينيّةً، إذ لم يكن فيه دينياً إلاّ الظاهر، أمّا الجوهر فإنّه كان سياسيّاً واقتصادياً»(١٨٠).

***

وتجدر الإشارة أخيراً إلى أنّ أُولَى تعاليم القرآن المكّي جَاءتْ، في معظمها، في الحضّ على عمل البرّ والإحسان مع الفقراء والمساكين. ونزلت في حقّ الأغنياء والطعن بثرائهم غير المشروع.

فسورة العَلَق، وهي الأولى في تاريخ النزول، نزلت في أبي جهل صاحب المال الكثير، الذي عاند محمّداً لوفرة غناه. موضوعها: إنّ الرسول أوعد أبا جهل، وندّد به، ووصف حاله بأنْ «طَغَى» (آية ٦) عليه مالُه، وكثرةُ «غناه» (آية ٧)؛ ونسي لما يملك من أموال وأرزاق، أنَّ إلى اللّهِ «الرجعى» (أية ٨).

وسورة المدَّثِّر، وهي الثانية، نزلتْ في الوليد بن المغيرة، صاحب «المال الممدود» (آية ١٢)، والطامع منه بالمزيد (آية ١٥)، وقد عاند الرسول في رسالته (آية ٢٣) بسبب جشعه وطمعه... فتوعّده النبيّ بالعذاب (آية ١٧)، كما توعّد أمثاله من الأغنياء بنار خالدة، بسبب بخلهم وقلّة إيمانهم. وهم يعرفون سبب هلاكهم، إذ قالوا: «لَمْ نَكُ مِنَ المُصلِّين، وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ المِسْكِينَ، وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الخَائِضِينَ (في الباطل وجمع الثروة). وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَومِ الدِّينِ» (آية ٤٢–٤٦).

وهكذا هو الحال في السّور المتتالية.

---

(١٧٩) بندلي جوزي، من تاريخ الحركات الفكرية في الاسلام، صفحة ١٧...

(١٨٠) ألمرجع السابق نفسه؛ ص ١٧–١٩.

ويجب ألاّ ننسى أيضاً أنّ من أسباب تعاليم محمّد في الحسنات والصدقات، وضعه كيتيم وفقير. وقد كان القرآن يذكّره دائماً بعسر حاله: «أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فآوَى! ووجَدَكَ ضالاً فَهَدَى! ووجَدَكَ عائلاً فَأَغْنَى!» (٩٣/٦-٨)؛ ثمّ ينصحه بأن يكون رحيماً باليتامَى والمحتاجين، وهو منهم، فقال: «فأمّا اليَتيمَ فَلا تَقْهَرْ. وأمّا السّائلَ فلا تَنْهَرْ» (٩٣/٨-٩). وعاش محمد هاجس الفقر واليتم هذا كلَّ حياته... ولشدّته عليه أصبحت الجنّة، عنده، تعني خيراتِ الأرض كلّها، وجهنّم تعني الحرمانَ منها.

رابعاً – في الجنّة والنّار والحساب وأحوال المَعاد

بين القرآن العربي والتـقاليد النصرانيّـة، في ما يخصّ أحوال المَعَاد[١٨١]، اتّفاقٌ تامّ. فأوصاف اليـوم الأخير، وأحوال الجنّة والنار، والإيمان بالقيامة العامّة، والاعتقـاد بالحساب والعقاب، ، هي نفسُها في كلا المصدرين. حتّى الصورُ والتعابير والأمثال والرموز والألفاظ تكاد تكون واحـدة. لكأنّ القـرآنَ العربي ينقل مـبـاشرةً عن التـوراة والأناجيل والتـقاليد النصرانيّـة. وحسبنا أن نقابل في المـوضوعات التالية:

١ – في اليوم الآخير

١. يعلّم القـرآن العربي أنّ «السّاعـة» الأخيرة مـن هذا العالم «سَتَأتِي بَـغْتَةً»[١٨٢]، وأنّها «آتِيَـةٌ لاَ رَيبَ فيـهَا»[١٨٣]، و«تَجِيءُ كلَمْحِ البَصَرِ»[١٨٤]، وقد تكون قريبة: «لعلَّ السَّاعةَ تكونُ قريباً» (٣٣/٦٣).

وفي النصـرانيّـة ، إنّ المسـيـح يجيء بغـتـة «في سـاعـة لا تتوقّعـونها»[١٨٥]، في «ساعة لا يعلمـها أحد»[١٨٦]. سيـأتي «كاللّص

---

(١٨١) أعني بـ«المعاد»: Eschatologie

(١٨٢) أنظر: ٦/٣١ ؛ ٧/١٨٧؛ ١٢/١٠٧ ؛ ٢١/٤٠ ، ٢٢/٥٥ ؛ ٢٩/٥٣.

(١٨٣) أنظر: ٦/٤٠ ؛ ١٥/٨٥؛ ١٨/٢١ ؛ ٢٠/١٥؛ ٤٠/٥٩ ؛ ٤٥/٣٢.

(١٨٤) ٤٣/٦٦؛ ٤٧/١٨.

(١٨٥) متى ٢٤/٤٤.

ليلاً»[١٨٧]. ويكون مجيئه «قريباً على الأبواب»[١٨٨] وفي «لحظة وطرفة عين»[١٨٩].

٢. يصرّ القرآن على أنّ اللّهَ وحدَه «عندَه علْمُ السَّاعة» (٤٣/ ٨٥)، ويردّد بأنّ «علْمَها عنْدَ ربّي» (٧/ ١٨٧)، و«علمها عند اللّه» (٣٣/ ٦٣)، ومحمّد، على قربه من اللّه لا يعلم «متى هذا الوعد» (١٠/ ٤٨)، لأنّ اللّه «لا يظهر على غيبه أحداً» (٧٢/ ٢٦).

وكذلك الأمر في النصرانيّة: «ذلك اليوم وتلك الساعة فلا يعلمهما أحد، لا الملائكة ولا الابن، إلاّ الآب»[١٩٠].

٣. أمّا أوصاف ذلك اليوم فرهيبة في القرآن: مظاهر الكون كلّها تتبدّل: فيه «تنشق السماء»[١٩١]، وتنفطر (٨٢/ ١)، وتنكشط (٨١/ ١١)، وتكون كالمُهْلِ، أي كالفضّة الذائبة (٧٠/ ٨)، وتمور موراً (٥٢/ ٩)، وتصبح كالدخان (٥٥/ ٣٧)، وتشقق بالغمام (٢٥/ ٢٥)، وتُطوى كطيِّ السجلِّ للكتب (٢١/ ١٠٤).

يومئذ تتكوّر الشمس (٨١/ ١)، ويُخسف القمر (٧٥/ ٨)، وينشق (٥٤/ ١)، ويُجمع بينه وبين الشمس (٧٥/ ٩)، بعد أنْ كانا لا يجتمعان ولا يلتقيان (٣٦/ ٤٠). وتنكدر النجوم (٨١/ ٢)، وتنتثر

---

(١٨٦) متى ٢٤/ ٥٠.

(١٨٧) متى ٢٤/ ٤٣.

(١٨٨) متى ٢٤/ ٣٤.

(١٨٩) ١ قور ١٥/ ٥٢.

(١٩٠) متى ٢٤/ ٣٦.

(١٩١) أنظر: ٨٤/ ١؛ ٢٥/ ٢٥؛ ٥٥/ ٣٧؛ ٦٩/ ١٦.

الكواكب (٢/٨٢)، وتُفجّر البحار وتسجّر[١٩٢].

وتستفـيض الأناجيل والتقاليد النصـرانيّة بوصف ذلك اليوم الذي فيه «تظلم الشـمس، ويفقد القمر ضوءه، وتتسـاقط النجوم من السماء، وتتزعزع كواكب السماوات»[١٩٣]، و«يطوي اللّهُ السماءَ كمَن يطوي رداء»[١٩٤]، و«تُفـتّح أبواب السـمـاء وتُهـدّم وتتـمـزّق أحجبـتها»[١٩٥]، و«يحمرّ القمر»[١٩٦]، ويتحوّل إلى لون الدماء»[١٩٧]، و«يُجمع فيما بين النّيرين: الشمس والقمر»[١٩٨]...

٤. في ذلك اليوم ترتجفُ الارض (١٤/٧٣)، وتزلزِل زلزالَها (١/٩٩)، وتحـدث زلزلـة عظيـمـة (١/٢٢) وشـديدة (١٤/٧٣)، وتُبدّل الأرض غيـر الأرض (٤٨/١٤)، وتمتدّ جبالُهـا سهولاً (٨٤/٣)، وتدك دكّـةً واحـدة (١٤/٦٩)، وتشـقق سـراعـاً (٤٤/٥٠)، وترتجف (١٤/٧٤)، وتكون كـالعهن[١٩٩]، أي: كالصـوف المنفوش، وتسـير سـيـراً (١٠/٥٢)، وتنسف نسـفاً (١٠/٧٧)، وتبسّ بسّـاً (٥/٥٦)، وتخِرّ هدّاً (٩٠/١٩)، فتصبح هباءً منثوراً (٢٣/٢٥).

---

(١٩٢) ٨١/٦؛ ٥٢/٦؛ ٨٢/٣.

(١٩٣) متى ٢٤/٢٩.

(١٩٤) أشعيا ٣٤/٤؛ رؤيا ٦/١٤.

(١٩٥) IV Esdras, VI, 14-26...

(١٩٦) أشعيا ٢٤/٢٣.

(١٩٧) يوئيل ٣/٤؛ أعمال الرسل ٢/٢٠.

(١٩٨) Livres Sibyllins, II.

(١٩٩) سورة المعارج ٧٠/٩؛ سورة القارعة ١٠١/٥.

وفي المصــادر النّصرانيّــة، تحدث، في ذاك اليــوم «زلازل هنا وهناك»[٢٠٠]، و«تذوب الصخور وتصير رَماداً منثوراً»[٢٠١]، و«تذوب السماوات كالرّصاص في النار»[٢٠٢]...

وفي ذلك اليوم أيضــاً، يتابع القــرآن: تنزل الملائكة على الناس (٢٥/٢٥)، وتلقــاهم (٢١/١٠٣)، وتقــابلــهم (١٧/٩٢)، ويدخلون عليــهم من كلّ باب (١٣/٢٣)، ويــأتي اللّهُ في ظلل من الغــمــام (٢/٢١٠)، ويجتمع الملائكة صفّاً صفّاً (٨٩/٢٢).

وفي المصــادر النّصــرانيّة، يــحضــر الملائكة، في ذاك اليــوم، كشهداء على أعمال البشر، وكــمشتكين على سيّئاتهم: «هوذا الربّ قد أتى في ألوف قدّيســيه، ليجري القــضــاء على جمــيع الخلق، ويخزي المنافقين جــميعــاً في كلّ نفاق اقتــرفوه، وكلّ كلمــة سوء قالهــا عليه الخاطئون المنافقون»[٢٠٣].

في ذلك اليــوم، يقــول القرآن: يحــدث برق ورعــد ومخــاوف عظيمة[٢٠٤]. ويكون جوع عظيم (٨٨/٧). فيه يُنقر في الناقور (٧٤/٨)، ويُنفخ في الصور (٦/٧٣). وتســمــع صيحة في كلّ مكان تــهتزّ لها الأرضُ وترتجف فرائص البشــر وتخشــع لها أبصارهم[٢٠٥]. فيه

(٢٠٠) متى ٢٤/٧.

(٢٠١) Apocal. de Jean, (apocryphe) 81.

(٢٠٢) II Clément, XVI, 3

(٢٠٣) رسالة يهوذا ١٤–١٥.

(٢٠٤) سورة النور ٢٤/٤٣؛ البقرة ٢/٢٠؛ الروم ٣٠/٢٤.

(٢٠٥) أنظر: ٥٠/٤٢؛ ١١/٦٧ و٩٤؛ ١٥/٧٣ و٨٣؛ ٢٣/٤١؛ ٢٩/٤٠؛ ٣٦/٢٩ و٤٩

«تذهل كلّ مرضعة عمّا أرضعتْ، وتضع كلُّ ذات حمل حملها» (٢٢/ ٢)، و«يجعل الولدان شيباً (٧٣/١٧).

وفي المصادر النصرانيّة، تحدث، في ذلك اليوم، مجاعات هنا وهناك[٢٠٦]. يرسل اللّهُ ملائكته بالصُّور[٢٠٧]، ويُنفخ في البوق[٢٠٨]، وتُسمع صيحة[٢٠٩] تنتحبُ لها جميع قبائل الأرض[٢١٠]. فـ«ويل للحبالى والمرضعات»[٢١١]. ثمّ «يُرى على رؤوس الشبّان شعر أبيض»[٢١٢].

في ذلك اليوم، يقول القرآن: «يفرّ المرء من أخيه وأُمّه وأبيه وصاحبته وبنيه. لكلِّ امرئ منهم يومئذ شأنٌ يغنيه» (٨٠/٣٤). فيه «لا يَسأل حميم حميماً» (١٠/١٠)، و«لا يُجزى والد عن ولده، ولا مولودٌ هو جاز عن والده شيئاً» (٣١/٣٣). «ولا يغني مولى عن مولى شيئاً» (٤٤/٤١). «ولا تملك نفس لنفس شيئاً» (٨٢/١٩). إنّه يوم «لا تُجزى نفس عن نفس شيئاً ولا يُقبل منها شفاعة» (٢/٤٨).

وفي المصادر النّصرانيّة ألشيء نفسه: فيه «يسلّم الأخ أخاه إلى الموت، والأبُ ابنَه، ويثور الأبناء على والديهم فيقتلونهم»[٢١٣].

و٥٣؛ ٥٤/٣١؛ ٧٩/٦-٩؛ ٧٠/٤٤؛ ٨٢/٤؛ ٥٤/٧...

(٢٠٦) متى ٢٤/٧.

(٢٠٧) متى ٢٤/٣١

(٢٠٨) ١ قور ١٥/٥٢.

(٢٠٩) ١ تسا ٤/١٦.

(٢١٠) متى ٢٤/٣٠.

(٢١١) متى ٢٤/١٩.

(٢١٢) Apoc. de Thomas (apocryphe); Sibylliens, 2.

(٢١٣) متى ١٠/٢١.

و«على كلّ واحد أن يحـمل حمله»[٢١٤]، إذ «لا أحد يشـفع لأحد: لا أب ولا أم ولا أخ ولا صـديق ولا قـريب. لا يحـمل أحـدٌ حـمل آخـر. كلٌّ مسؤول عن أعماله»[٢١٥]. فهو يوم لا تنفع فيـه شفاعة: «الحق أقول لكن إنّي لا أعرفكنّ»[٢١٦]

في ذلك اليوم، بـحسب القرآن، لا شيء يفـيد الإنسـان سوى أعماله الخيّرة: «للّذينَ استجَابوا لربِّهم الحُسنَى، والّذينَ لم يَستَجيبوا لَه لَو أنَّ لهم مَا في الأرضِ جمـيعاً، وَمِثْلَه مَعَـهُ لافْتَدَوا بهِ. أولئكَ لهم سوءُ الحِساب وَمَـأواهم جهنّمُ. وبِئسَ المِهَادُ» (١٣/١٨). هو «يوم لا ينفع مـال ولا بنون» (٢٦/٨٨). ومنهم من اعـتـبـر كثـرة الأمـوال والأولاد تنجّيهم فافتخروا (٣٤/٣٥).

وفي التقاليد اليهودية والنصـرانيّة: «لا تقدر فضّتهم وذهبهم على انقـاذهم في يوم غـضب الربّ. ولا يُشـبـعون نفـوسـهم، ولا يملأون أجوافهم بهما، لأنّهـما كانا معثرة لهم»[٢١٧]. وكذلك «لا ينفع المال في يوم الغـضب»[٢١٨]. فـ«الويل لكم أيّهـا الأغنياء لأنّكم تِقْـتُم بغناكم. سـتُـحرَمـون منهـا لأنّكم لم تذكـروا العليَّ يوم غناكم. لقـد نضـجتم ليوم الدّين العظيم»[٢١٩].

---

(٢١٤) رسالة إلى الغلاطيين ٦/ ٥.

(٢١٥) IV Esdras, X, 104-105; II Hénoch, LII, 1.

(٢١٦) متى ٢٥/ ١٢.

(٢١٧) حزقيال ٧/ ١٩؛ صفنيا ١/ ١٨.

(٢١٨) أمثال ١١/ ٤.

(٢١٩) I Hénoch, XLIV, 8-9.

٥. في نهاية ذلك اليوم المشهود تحدث **القيامة العامة** ويبتدئ الحساب العسير، ويحضر الناس أمام اللّه الديّان العادل، كلٌّ يحمل أعماله في كتاب، وتوزَن بميزان العدل، فيذهب الأبرارُ إلى اليمين والأشرارُ إلى الشمال...

فيه، كما يقول القرآن العربي: يحضر الناس أمام اللّه «أشتاتاً» (٩٤/٦). ويكون الفصل بين الأبرار أصحاب اليمين (٥٦/٨و٣٨) والأشرار أصحاب الشمال (٥٦/٩و١٠)، ويخيّم على الجميع صمتٌ رهيب (٢/١٠٧)، ويبتدئ الحساب (٨٤/٨)، وتُكشف الأعمال والخفيّات[٢٢٠]، بحسب كتابِ الأعمال، لأنّ لكلٍّ إنسان كتاباً خاصّاً تدوّن فيه أعماله[٢٢١].

وفي المصادر النصرانيّة: «وتحشر لديه جميع الأمم... فيفصل (الناس) بعضَهم عن بعض. فيُقيم النعاجَ (الأبرار) عن يمينه والكباش (الأشرار) عن شماله»[٢٢٢].. «ويجازي يومئذ كلَّ امرئ على قدر أعماله[٢٢٣]، «كلّ واحد سيؤدّي عن نفسه حساباً للّه»[٢٢٤]... ثم تفتح الكتب... ومَن لم يوجد مكتوباً في سفر الحياة يطرح في مستنقع النار»[٢٢٥].

---

(٢٢٠) سورة الحاقة ٦٩/١٨؛ سورة الكهف ١٨/٤٦.

(٢٢١) ٧٨/٢٩؛ ٨٢/١٠-١٢؛ ٣٦/١١؛ ٢١/٩٤...

(٢٢٢) متى ٢٥/٣٢.

(٢٢٣) متى ١٦/٢٧.

(٢٢٤) رومانيين ١٤/١٢.

(٢٢٥) رؤيا ٢٠/١٢-١٥؛ ٣/٥؛ دانيال ٧/١٠.

وفي القرآن العربي: «تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون» (٢٤/ ٢٤). «ويشهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم»[٢٢٦].

وتوزن الأعمال: «فمن ثقلتْ موازينُه فهو في عيشةٍ راضية. وأمّا مَن خفّتْ موازينه فأمّه هاوية ... نار حاميّة» (١٠١/٦-١١).

وفي المصادر النّصرانيّة: «كلّ أعضائكم تشهد عليكم في البيت الأزلي»[٢٢٧]. واللهُ يزن أعمال الإنسان في ميزان العدل: يقول أيّوب: «ليزنّي (اللّهُ) في ميزان العدل: إنْ كانت خطواتي قد جارت عن الصراط المستقيم»[٢٢٨].

٢ - في أحوال الجنّة

في القرآن العربي كما في التقاليد النصرانيّة جنّة واحدة في أوصافها وأحوالها ومحتوياتها. وأوّل ما يتوقف عنده الباحث في الجنّة تلك الماديّة المفرطة من شهوات حسيّة متطرفة، ومآكل متنوعّة، وملذّات جسديّة صاخبة.

١. في القرآن العربي، **الجنّة مرتفعةٌ** عن الأرض في مكانٍ عالٍ حيث يتّكئ الصدّيقون «في جَنّةٍ عَاليةٍ»[٢٢٩]، ويرى الأبرارُ الهالكين تحتَهم وهم فوق على قمم الجبال (٧/ ٤٤-٥٠)[٢٣٠].

---

(٢٢٦) سورة فصّلت ٤١/ ٢٠؛ سورة يس ٣٦/ ٦٥.

(٢٢٧) Talmud, sur Ecclés. 4,5; Voir Cohen, p. 454.

(٢٢٨) أيوب ٣١/ ٦.

(٢٢٩) أنظر: ٦٩/ ٢٢؛ ٨٨/ ١٠.

(٢٣٠) يدور الكلام على حديث رجال الأعراف حيث هم في أعلى الجنّة مع أصحاب

ومار أفرام السرياني (ت ٣٧٩م) يحدّد مكان فردوسه في قوله: «إنّ قِمم الجبال كلّها تحت شرفة قِمّته...يقبّل قدمَي الفردوس، ويطأ الرؤوسَ كافّة»[٢٣١].

٢. ومساحة الجنّة القرآنية لا تحدّ. «عرضها كعرض السماء والأرض»[٢٣٢]. لها طبقات ودرجات بحسب درجات الأبرار وطبقاتهم: «المُؤمِنُون حقّاً لهم دَرَجَاتٌ عند ربّهم» (٨/ ٤)؛ وقد تكون هذه الدرجات، بحسب تصنيفٍ اعتمده القرآن، إبتداءًا بـ «النبيّين والصدّيقين والشُّهَداء والصَّالحين» (٤/ ٦٩).

غير أنّ التلمود يحدّد درجات الجنّة فإذا هي سبع[٢٣٣]؛ وعند مار أفرام ثلاث. يقول: «أرضه (الفردوس) للتّائبين، ووسطُه للصدّيقين، وقِمّتُه للمنتصرين (الشهداء)، وقبّتُه سكنى الله»[٢٣٤]؛ وعند القديس بولس ثلاث سماوات أيضاً[٢٣٥].

وفي كلّ درجة غرفٌ ومنازل كثيرة لكلّ أصناف المختارين. يقول القرآن: «الّذينَ اتَّقوا ربَّهم لهُم غرَفٌ مِن فَوقِها، وغرفٌ مبنيّةٌ تجري مِن تَحتها الأنهار» (٣٩/ ٢٠).

وفي الانجيل ما يشبه ذلك: «في بيت أبي منازل كثيرة»[٢٣٦].

النّار في قعر الجحيم.

(٢٣١) منظومة الفردوس لمار افرام السرياني النشيد الأول، ٤.

(٢٣٢) أنظر: ٥٧/ ٢١؛ ٣/ ١٣٣.

(٢٣٣) A. Cohen, Le Talmud, Chap. Jardin D'Eden..

(٢٣٤) منظومة الفردوس، النشيد الثاني ١١.

(٢٣٥) رسالة القديس بولس الأولى الى أهل قورنتس ١٢/ ٢.

(٢٣٦) إنجيل القديس يوحنا ١٤/ ٢.

٣. وللجنّة **أبواب** يدخلها المتّقون المؤمنون: فهي «جنّات مفتّحة لهم الأبواب» (٣٨/ ٥٠). والدّاخلون فيها يُساقون إليها «زمراً. حتّى إذا جاؤوها فتّحت أبوابها» (٣٩/ ٧٣). وكذلك «الملائكة يدخلون عليهم من كلٍّ باب» (١٣/ ٢٣).

وفي سفر الرؤيا، لأورشليم السماويّة «سور شامخ له اثنا عشر باباً، عليها أثنا عشر ملاكاً»[٢٣٧]. وفي التلمود للفردوس بابان فقط[٢٣٨]. أمّا عهد لاوي فلا يحدّد العدد[٢٣٩]. ومار أفرام يؤكّد وجود باب في قوله: «لأنّ الباب قد فُتح، فيا طوبى لمن يقدم»[٢٤٠]، وفي قوله أيضاً: «منذ الآن صغ لك، خذ مفتاح الفردوس لأنّ الباب لمبادِر إليك. يتألّقُ ويضحكُ لك الباب الفهّامة يقيس الداخلين»[٢٤١].

٤. و**السعادة** القصوى في جنّة القرآن، كما في فردوس النصارى، تقوم على رؤية الله ومعرفته ورضوانه على المؤمنين الأبرار. ذلك هو الفوز العظيم: يقول القرآن العربي: «لهم جنّات رضي اللّهُ عنهم ورضوا عنه. ذلك الفوز العظيم»[٢٤٢]. وسعادة الدنيا، بمقابل سعادة الآخرة، ليست سوى بهجة عابرة وخادعة: «وما الحياة الدنيا إلاّ متاع الغرور» (٥٧/ ٢٠).

---

(٢٣٧) رؤيا ٢١/ ١٢، حز ٤٨/ ٣٠.

(٢٣٨) Le Talmud, p. 456-457.

(٢٣٩) Test. de Lévi, 18/10.

(٢٤٠) منظومة الفردوس ١٣/ ١٣؛ أنظر ١٥/ ٢؛ ٨/ ١١.

(٢٤١) الفردوس ٢/ ١؛ انظر ٣/ ١٣.

(٢٤٢) القرآن ٣/ ١٥؛ ٩/ ٢١ و ٧٢؛ و ١٠٠؛ ٥٨/ ٢٢؛ ٩٨/ ٨؛ ٥/ ١١٩.

وفي المصـادر النّصـرانيّـة، فـإنّ كنوز الأرض، حـيث يرعى السوس والعـثّ، وينقب اللصوص، لا تقـابل بكنوز السمـاء، حيث لا يرعى السوس والعثّ، ولا ينقب السارقون[٢٤٣].

٥. هذه السعـادة تقوم على **الفرح والسلام** الدائمَين، إذ الجنّة هي «دار السلام»[٢٤٤]: «أدخلوها بسلام آمِنين» (١٥/٤٦)، حيث «لا خوف عليكم ولا أنتم تحزنون» (٧/٤٩).

ألسمـاء، كمـا تقول الرسـالة الى العبرانـيّين، هي «دار راحة اللّه»[٢٤٥]. وهكذا هو فـردوس مـار أفرام «حـيث لا عناء فـيـه»[٢٤٦]، «يسكنه الجَمَال لا عيب فيه، والأمان لا قلق»[٢٤٧].

لا يسمع الأبرار في الجنّة القرآنيّة أية كلمة كاذبة أو باطلة، بل سلامـاً وأمانـاً: «لا يسمـعون فيهـا لغواً ولا تأثيمـاً، إلاّ قيلاً: سـلاماً سلاماً» (٥٦/٢٥). ويفسّـر ابن عبّاس «كل صغير وكبـير مستطر» (٥٤/٥٣)، أي: «كل ضحكة صغيرة أو كبيرة تجرّ الويل والتعاسة». لهذا، فالضحك لا وجود له في الجنّة.

وكذلك يصف مار أفرام فـردوسه في قوله: «الويل لمن يضيع في الضحك والثـرثرة هذا اليوم الصـالح للتوبة»[٢٤٨]، «لأن التعاسة

---

(٢٤٣) متى ٦/١٩-٢١.

(٢٤٤) القرآن ٦/١٢٧؛ ١٠/٢٥.

(٢٤٥) عبرانيين ٣/١١ و١٨؛ ٤/١ و٣ و٥ و٨ و١١.

(٢٤٦) منظومة الفردوس ١/٥.

(٢٤٧) المرجع نفسه ٥/١٢.

(٢٤٨) S. Ephrem, Op. Gr.2.

ستكون مجازاة الضاحكين»[٢٤٩].

٦. **لا شمس** حارقة ولا برد قارس، في الجنّة القرآنية، بل «وجوه يومئذ ناعمة» (٨/٨٨)، و«وجوه ناضرة» (٢٣/٧٥)، «مُسْفرة ضاحكة مستبشرة» (٣٨/٨٠)، «تعرف في وجوههم نضرة النعيم» (٢٤/٨٣). وسبب ذلك أنّهم «لا يرون فيها شمساً ولا زمهريراً» (١٣/٧٦)...

وهو حال أصحاب فردوس مار أفرام، حيث «قوارس البرد ولواهب الحرّ لا وجود لها في ذلك الموضع المبارك الشهيّ»[٢٥٠]. وكذلك جاء في أشعيا: «لا يقرعهم الحرّ ولا الشمس»[٢٥١]، وفي سفر الرؤيا: «لن تلفحهم الشمس ولا السموم»[٢٥٢]، وفي زكريّا: إنّ القرّ والجليد من مميّزات الجحيم:«في ذلك اليوم لا يكون نور، بل قرّ وجليد»[٢٥٣].

أن أصحاب الجنّة يصرخون ليل نهار بحمد اللّه: فـ «دعواهم فيها: سُبحَانَكَ اللّهمّ. وتحيّتُهم فيها سلام. وآخر دعواهم أنِ الحمدُ للّه ربِّ العالمين»[٢٥٤].

وكذلك أصحاب الفردوس «يصيحون بصوت جهير : النصر

---

(٢٤٩) المرجع نفسه، ٣.

(٢٥٠) منظومة الفردوس ٢/١١.

(٢٥١) أشعيا ١٠/٤٩.

(٢٥٢) الرؤيا ١٦/٧.

(٢٥٣) زكريا ٦/١٤.

(٢٥٤) القرآن ١٠/١٠؛ ٣٤/٣٥.

لألهنا... الحمد والمجد والحكمـة والشكر والإكرام والقوّة والقدرة أبد الدهور»[٢٥٥].

٧. وصْفُ الجنّة القرآنيّـة وما فيـها من **خيـرات دنيويّة** كما يلي: إنّ للأبرار «جنّات تجـري من تحـتـها الأنهـار»[٢٥٦]، و«عيـون ماء»[٢٥٧]. والأنهار أربعـة: واحد من مـاء، وثاني من لبن، وثالث من خمر، ورابع من عسل مـصفّى. يقول: «فيها أنهـارٌ من ماءٍ غيرِ آسِن. وأنهار من لبن لم يتغيّر طعمُـه، وأنهار من خمر لذّة للشاربين، وأنهار من عسل مـصفّى» (٤٧/ ١٥). وهي تعطي أحسن ما تنتـجه الأرض (١٦/ ٦٥–٦٩).

هذه الأنهار الأربعة تذكّرنا بأنهـار سفر التكوين الأربعة[٢٥٨]، وهي تعطي، كما هو حـال أرض ميعاد العبرانيين حـيث يغزر العسل واللّبن والمـيـاه والزيـت والحنطة والـشـعـيـر والكـرم والتين والرمان[٢٥٩]... وقد تختلف خيرات الأنهار هذه بحسب المصادر. ففي التلمـود: لبن وعطر وعسل وخـمر[٢٦٠]. وفي رؤيا بولس: الزيت بدل

---

(٢٥٥) سفر الرؤيا ٧/ ٩–١٢

(٢٥٦) ترد هذه الصيغة حوالي الخمسين مرّة، أنظر مثلاً : ٢/ ٢٥؛ ٣/ ١٥ ؛ ١٣٦ ؛ ١٩٥ ؛ ١٩٨؛ ٤/ ٣ ؛ ٥٧ ؛ ١٢٢ ؛ ٥/ ١٢ ؛ ٨٥؛ ١١٩ ؛ ٧/ ٤٣ ؛ ٩/ ٧٢ ؛ ٨٩ ؛ ١٠٠؛ ١٠/ ٩؛ ١٣/ ٣٥ ؛ ١٤/ ٢٣ ؛ ١٦/ ٣١ ؛ ١٨/ ٣١؛ ٢٠/ ٧٦؛ ٢٢/ ١٤ ؛ ٢٣ ؛ ٢٥/ ١٠ ؛ ٢٩/ ٥٨ ؛ ٤٧/ ١٢ ؛ ٤٨/ ٥ ؛ ١٧ ؛ ٥٧/ ٢٣ ؛ ٥٨/ ٢٢ ؛ ٦١/ ١٢ ؛ ٦٤/ ٩؛ ٦٥/ ١١ ؛ ٦٦/ ٨ ؛ ٨٥/ ١١ ٩٨/ ٧...

(٢٥٧) ترد هذه العيون حوالي العشر مرات : ١٥/ ٤٥؛ ٤٤/ ٥٢ ؛ ٥١/ ١٥...

(٢٥٨) سفر التكوين ٢/ ١٠–١٤.

(٢٥٩) تثنية ٨/ ٧–١١ ؛ ٦/ ٣ ؛ ١١/ ٩ ؛ خروج ٣/ ٨ ؛ ٢٧؛ ١٣/ ٥...

(٢٦٠) Cohen, Le Talmud, p. 420.

الماء. وفي إسراء موسى: العطر بدل الماء. وفي رؤيا يشوع بن لاوي: الزيت والعطور بدل الماء واللبن. وفي فردوس مار أفرام: الخمر واللّبن والعسل والزبد[٢٦١].

٨. وتقوم سعادة الجنّة القرآنية على ما فيها من خيرات ومآكل شهيّة: فـ «أكلها دائم» (١٣/ ٣٥)، من «فواكه كثيرة» يشتهونها[٢٦٢]. يتخيّرون منها ما يطيب لهم (٥٦/ ٢٠). فيها من كل الثمرات (٤٧/ ١٥)، يدنيها اللّهُ من أيدي الأبرار ليسهل عليهم قطافها وأكلها: «قطوفها دانية» (٦٩/ ٢٣)، «ذلّلت قطوفها تذليلاً» (٧٦/ ١٤)، أي «ينالها القائم والقاعد والمضطجع» (تفسير الجلالين). وقال ابن عبّاس: «إذا همَّ أن يتناول من ثمارها، تدلّتْ له أغصانها حتّى يتناول منها ما يريد»...

هكذا حال فردوس مار أفرام حيث «الثمار من كلِّ طعم في مطال اليد»[٢٦٣].

والجنّة القرآنيّة وليمة مبسوطة أمام الأبرار، حيث الأكل الدائم (١٣/ ٣٥)، من لحم الطير[٢٦٤] وفواكه وغيرها.

ويصف مار أفرام فردوسه بقوله: إنّ «الأبرار... وَجَدوا الفردوس مائدة الملكوت مبسوطةً أمامهم»[٢٦٥]، أو هو «وليمة الملكوت

---

(٢٦١) منظومة الفردوس ١٠/ ٦.

(٢٦٢) ٤٣/ ٧٣؛ ٣٨/ ٥١؛ ٧٧/ ٤٢؛ ٥٢/ ٢٢.

(٢٦٣) منظومة الفردوس ٩/ ٤

(٢٦٤) ٥٦/ ٢١؛ ٥٢/ ٢٢.

(٢٦٥) منظومة الفردوس ٢/ ٥.

طوبى لمن استحقّها»[٢٦٦].

٩. **مشروب** الجنّة القرآنيّة المفضّل ألخمرة. إنّها تُشرب في «أكواب» و«كؤوس» و«أباريق» و«صحاف من ذهب» و«آنية من فضّة»[٢٦٧]. يشربها الأبرارُ كأساً من معين بيضاء لذّة للشاربين، لا تغتال عقلاً، ولا تُنتج إثماً، كخمرة الدنيا. يقول: «يطاف عليهم بكأس من معين بيضاء لذة للشاربين. لا فيها غول ولا هم عنها ينزفون»[٢٦٨]. ويقول أيضاً: «يتنازعون فيها كأساً لا لَغوٌ فيها ولا تأثيم» (٥٢/ ٢٣). إنّها خمرة طيّبة من «رحيق محتوم» (٨٣/ ٢٥)، أي من قدم الدنيا. إنّها شراب طهور (٧٦/ ٢١)، مزاجه الزنجبيل والكافور (٧٦/ ١٧). إنّها طيّبة حلال، بعدما كانت على الأرض سببَ كلِّ إثمٍ محرَّمةً على المؤمنين.

وخمرة الفردوس الأفرامي لا تقلّ جودة عن خمرة الجنّة القرآنية. ومَن يمتنع عن شربها هنا نالها هناك بكثرة وسخاء: «من صام عن الخمر زاهداً، هفّت إليه دوالي الفردوس واحدةً فواحدة تنيله عنقودها»[٢٦٩]. وهي كخمرة التلمود التي «احتفظ بها اللّه منذ اليوم السادس للخليقة»[٢٧٠].

١٠. يستريح الأبرار في جنّة القرآن على «سرر مرفوعة»

---

(٢٦٦) ٧/ ٢٤؛ انظر: ٧/ ٢٦؛ ٩/ ٧ و٨؛ ١١/ ١٥...

(٢٦٧) سورة ٤٣/ ٧١؛ ٧٦/ ١٥؛ ٧٨/ ٣٤؛ ٧٦/ ١٧...

(٢٦٨) ٣٧/ ٤٥-٤٧؛ ٥٦/ ١٨.

(٢٦٩) منظومة الفردوس ٧/ ١٨.

(٢٧٠) Cohen, Le Talmud, p. 455; Ber

و«مصفوفة»[٢٧١] متقابلين بعضهم تجاه بعض (٣٧/ ٤٤). لكل منهم غرفة يَلقَون فيها تحية وسلاماً (٢٥/ ٧٥)، وغرف مبنيّة تجري من تحتها الأنهار (٣٩/ ٢٠). هم فيها آمنون (٣٤/ ٧٤)، يجلسون على الأرائك (١٨/ ٣١)، مع أزواجهم (٣٦/ ٥٦). وهم ينظرون منها نضرة النعيم (٨٣/ ٢٣). ينبسطون على «فرش مرفوعة» (٥٦/ ٣٤) بطانتها من استبرق (٥٥/ ٥٤). يلبسون ثياباً نضرة خضراء من سندس واستبرق وحرير. ويحلّون بأساور من ذهب ولؤلؤ[٢٧٢]، ويتّكِئون على «رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ» (٥٥/ ٧٦) أي «أوسدة خضراء وطنافس جميلة» (تفسير الجلالين)...

وهو أيضاً حال الأبرار في فردوس مار أفرام. يتنعّمون بمآكل وألبسة ولذّات لا حدود لها ولا نهاية. وهم، بعد آدم وحواء «اللّذَين أضاعا ثيابهما، قد استردّاها جديدةً بيضاء»[٢٧٣]، يستحقّون الطوبى والحللَ الزاهية البيضاء: «طوبى لمن استحقّ أن يرى حلّتهم»[٢٧٤]، «ذكور وأناث يشتملون بلباس من نور، يحجب ألَقُه ملامحَ السوءة». وكلّ واحد منهم «التحف الضياء»[٢٧٥]، «ولبس النور». هؤلاء «يولمون في الأشجار خللَ الهواء الطلق. تحتَهم الأزاهير، وفوقَهم الأثمار. فسماؤهم ثمَرٌ، وأرضُهم زَهَرٌ... غمامةٌ فوق الرؤوس مظلّة من ثَمَر،

---

(٢٧١) القرآن ٨٨/ ١٣؛ ٥٢/ ٢٠.

(٢٧٢) ١٨/ ٣١؛ ٤٤/ ٥٣؛ ٧٦/ ٢١؛ ٢٢/ ٢٣؛ ٣٥/ ٣٣.

(٢٧٣) منظومة الفردوس ٦/ ٩.

(٢٧٤) المرجع نفسه ٦/ ١٨.

(٢٧٥) المرجع نفسه ٦/ ٢٣.

وبساطاً تحت الأقدام منبسطاً من زَهَر»(٢٧٦). ثمّ يوجز مار أفرام نعيم الفردوس قائلاً: «أثمار قدسيّة، حلل نوريّة، أكاليل مشعّة، مراقٍ عليّة، مناعم ولا عناء، لذّاتٌ ولا رعب، عرسٌ أبدي، ولا نهاية»(٢٧٧).

١١. وما يزيد في بهجة الجنّة القرآنية وجمالها الفتّان وملذّاتها العارمة **حوريّات** خلقهنّ الله خصيصاً للأبرار: «أَنْشَأْنَاهُنَّ إِنْشَاءً. فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَاراً، عُرُبًا (أي متودِّداتٍ عاشقاتٍ أزواجهنّ)، أَتْرَاباً (أي: مستويات على سنٍّ واحدة: ثلاث وثلاثين سنة، لا يكبرن عن ذلك أبداً)» (٥٦/ ٣٥-٣٧).

إلى هذا العمر يشير كتاب رؤيا يوحنا المنحول حيث يقول: «لهنّ من العمر ثلاثون. وكلّ البشر سيقوم يومَ القيامةالعامّة بهذا العمر»(٢٧٨).

١٢. «يَطُوفُ عَلَيهِمْ (أي على أبرار الجنّة) وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ (أي على سنٍّ واحدة، لا يتغيّرون ولا يموتون)، إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤاً مَنْثُوراً (أي تحسبهم في حسنهم وكثرتهم وبياض وجوههم كاللؤلؤ المبدَّد، المنتشر هنا وهناك)» (٧٦/ ١٩). ويقول أيضاً: «وَيَطُوفُ عَلَيهِمْ غِلْمَانٌ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَكْنُونٌ (أي مصون في الصَّدَف)» (٥٢/ ٢٤)(٢٧٩)...

---

(٢٧٦) المرجع نفسه ٩/ ٥.

(٢٧٧) المرجع نفسه ١٤/ ٨.

(٢٧٨) Apocalypse de S. Jean (apocr.), 10

(٢٧٩) أنظر كتابَنا: «رغبات النّفس والجسد»، رقم ١٣ من السلسلة؛ ص ٢٧٠-٢٧٦ حيث الكلام المستفيض على متع الأبرار بولدان الجنّة وغلمانها.

أمّا الخدمة، في فردوس مار أفرام، فلا تناط بالغلمان، بل بـ «نُسَيمَاتٍ طَيِّبَات «تهبّ من كل لون. يحملن الأطباق... والمدعوّون المولون لا يبرحون... حيث الخدّام يخدمون لا يتعبون... النّسيماتُ في الفردوس يتنقّلْنَ أمام الأبرار، تخفّ الواحدة بالطعام، والأخرى تصبّ الشراب. هبوب تلك سمن، ومهبّ هذه رواء: مَن رأى قط نسمات يأتين بنفحات تؤكل، وأخرى بنفحات تشرب. واحدة تنفح بندى، وأخرى بطيب... نفحة ترويه، ونفحة تشبعه... نسيم يرفّهك، ونفح يلذّذك. واحد يسمّنك، وآخر ينعّمك»[٢٨٠].

لا أقول أن القرآن العربي نقل مباشرة عن مار افرام السرياني أو عن سواه، ولا أقول ان محمّداً كان مطلعاً على شوارد الجنّة النصرانيّة وأوصافها كلها...بل ان أفكار مار افرام كانت شائعة في الكنيسة السريانية النصرانيّة ومعروفة لدى جميع آبائها وكتّابها. والصلة بين القرآن ومؤلّفات الكنيسة السريانيّة لم تكن فقط نتيجة جوّ عام عاش فيه محمّد وأخذ عنه، بل كانت بواسطة تعاليم ونصوص عرفها شفهياً وكتابة على السواء، وعرفها بواسطة معارفه الشخصية واحتكاكه المباشر ببعض مؤلّفات السريان...

وكان الكلام على الجنّة وأحوالها من أبرز ما اهتمّت به الكنيسة السريانيّة في كرازتها وتقواها وكانت «تقوى القرآن المَعَاديّة (Eschatologique) قريبة الصلة بالمفاهيم الدينيّة التي كانت مسيطرة في الكنيسة السريانيّة في زمن محمّد وقبله»[٢٨١].

---

(٢٨٠) منظومة الفردوس ٩/٦ و٧ و٨ و٩ و١١.

(٢٨١) Tor Andrae, Les Origines de l'Islam et le Christianisme, p. 145.

٣ - في جهنم النّار

١. لجهنّم في التوراة والتلمود والأناجـيل الرّسميّة والمنحولة وتراث الكنائس والقرآن العربي، **أسماء** عديدة واستعارات كثيرة تدلّ عليـها. فلفظة «جَـهَنَّم» تعني لغـةً «وَادي ابن هنّوم»[٢٨٢] حيث هيكل الإله «مولك»، وحـيث يحرق الوثنيّون ضـحاياهم البشريّة، فـأصبح بذلك «وادي ابن هنّوم وادي القـتل الذي فـيه تصـيـر جثث الشـعب مـأكلاً لطير السـماء ولبهائم الأرض»[٢٨٣]، وحيث «جثث الناس الذين عـصوني، لأنّ دودهم لا يموت ونارهم لا تطفـأ»[٢٨٤]... ثمّ أصبـحتْ «جهنم» تعني مقرّ الأموات في مـكانٍ ما تحت الأرض، فيه ظلمة ونار وعذاب وقـهر لا يوصف، بحسب ما جـاء في التقاليد اليـهودية[٢٨٥]. ويضعـها التلمود اليهـودي في منتصف الأرض[٢٨٦]، ويقسمـها إلى سبعـة أقسام[٢٨٧]. سِعَـتُها لا حـدّ لها[٢٨٨]. تلفّها ظـلمة شديدة[٢٨٩]. نارها أعظم من نار الأرض بستين مرّة[٢٩٠]... أمّا العهد الجديد فتكثر فيه لفظة جهنّم، ولها نفس ما لها في التقاليد اليهوديّة[٢٩١]

---

(٢٨٢) يشوع بن نون ١٨/١٦؛ ٤ ملوك ٢٣/ ١٠-١٢؛ أرميا ٣٢/ ٣٥...

(٢٨٣) أرميا ٧/ ٣١-٣٣.

(٢٨٤) أشعيا ٦٦/ ٢٤.

(٢٨٥) IV Esd. VII, 36; II Bar. 85, 13: I Hén. 54, 1-3; 56, 3...

(٢٨٦) Talmud Babylonien, Sanhedrin, 110b..

(٢٨٧) Ibid. Sotah, 10b...

(٢٨٨) Ibid. Pesahim, 94b...

(٢٨٩) Ibid. Yebamot, 109b...

(٢٩٠) Ibid. Berakot. 57b...

(٢٩١) متى ٥/ ٢٢ و٢٩-٣٠؛ ١٠/ ٢٨، ١٨/ ٩؛ ٢٣/ ١٥ و٣٣؛ لوقـا ١٢/ ٥؛ مرقس

ترد لفظ «جهنّم» نحواً من ٧٧ مرّة في القرآن. وكذلك ألفاظ أخرى تعنيها، مثل: «الجحيم»: ٢٦ مرّة، و«سعير»: ١٦ مرّة، و«نار»: ما يقارب ١٢٠ مرّة، و«سقر»: ٤ مرّات...

وكذلك يشبّه القرآن جهنّم بـ «الحطمة» (١٠٤/ ٤-٥)، و«اللّظى» (٧٠/ ١٥)، و«عذاب الحريق» (٨٥/ ١٠)، و«الهاوية» (١٠١/ ٩)، و«الحفرة» (٣/ ١٠٣)... وهي ألفاظ تشبه، إلى حدّ بعيد، ما ورد فيها في التّوراة والتلمود، حيث جهنم تعني «الجبّ»، و«الحفرة»، و«التهوم» أي «هيجان البحر» الذي خرج منه الطوفان على الأرض[٢٩٢]، و«التوفت» أي «الحفرة العميقة المملوءة ناراً وحطباً. ونسمة الرب كسيل من كبريت تضرمها»[٢٩٣].

وفي تشبيه القرآن لجهنّم بـ «دار القرار»[٢٩٤]، و«المستقرّ» (٢٥/ ٦٦)، و«المقام»[٢٩٥]، و«دار البوار» (١٤/ ٢٨)، و«دار الخلود» (٤١/ ٢٨)... ما يحدونا إلى المقارنة بينها وبين «شِوُوْل» التّوراة الذي يعني هو أيضاً: «مقاماً لا رجوع للانسان منه»[٢٩٦]. وهو كذلك تفسير آباء الكنيسة، أمثال هيبوليت الرّوماني[٢٩٧]، وأغناطيوس الإنطاكي[٢٩٨]، وكيرِلّس الأورشليمي[٢٩٩]، وغيرهم...

٩/ ٤٣ و٤٧؛ ٢بطرس ٢/ ٤؛ رؤيا ١٩/ ٢٠؛ ٢٠/ ١٠و١٤-١٥...

(٢٩٢) تكوين ١/ ٢؛ ٨/ ٢؛ رؤ ٩/ ١-٢؛ ٢٠/ ٣.

(٢٩٣) أشعيا ٣٠/ ٣٣.

(٢٩٤) سورة إبراهيم ١٤/ ٢٩، سورة ص ٣٨/ ٦٠.

(٢٩٥) سورة الفرقان ٢٥/ ٧٦، سورة مريم ١٩/ ٧٣.

(٢٩٦) ٢ ملوك ١٢/ ٢٣، أيوب ٧/ ٩-١٠، ١٤/ ١٤، ابن سيراخ ٣٨/ ٢٢.

(٢٩٧) Hippolyte de Rome, Homélie, P.B.10...

٢. أمّا **وصف جهنّم** فيتّفق فيه التوراة والإنجيل والقرآن: لجهنّم القرآنيّة «سبع درجات» بدليل قوله بـ «سبعة أبواب» (١٥/ ٤٤)، ويفسّرها «الجلالان» بـ «طبقات سبع»، كما تعني «الأبواب». والملائكة يحرسون هذه الأبواب ويُدخِلون فيها الهالكين قائلين: «ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا» (١٦/ ٢٩)، «حتّى إذا جَاؤُوها فُتِّحَتْ أَبْوَابُهَا. وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا... أُدْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ» (٣٩/ ٧١-٧٢).

ولجهنّم اليهود أيضاً سَبْعُ درجات[٣٠٠]، ولكن بثلاثة أبواب: «واحد من جهة الصحراء ، والثاني من جهة البحر، والثالث من جهة أورشليم»[٣٠١]. ويشير أيوب إلى «أبواب ظلال الموت»[٣٠٢]، وأشعيا أيضاً يتكلّم على «أبواب الجحيم»[٣٠٣].

٣. إنّ **الذنوب**، التي يعدّدها القرآن العربي، والتي تؤدّي بالهالكين الى جهنم النّار، كثيرة. نقف عند بعضها: «إنّ الّذِينَ يَكتمُونَ مَا أنْزلْنا مِن البيّنات والهدى ... أولئك يلعنهم اللّه» (٢/ ١٥٩)؛ و«الّذِينَ يَنْقضُونَ عَهْدَ اللّه بَعْدَ ميثاقِه.. أولئكَ هُمُ الخَاسِرُون» (٢/ ٢٧)؛ من يحرّف كلام اللّه، أو يبدّل في الكتب المنزلة، يستحق لعنة اللّه: «ويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم... فويل لهم ممّا كتبت

(٢٩٨) Ignace d'Antioche, Ep. aux Ephésiens, P.G. 5.

(٢٩٩) Cyrille de Jérusalem, Catéchèse, 18; P.G. 33.

(٣٠٠) A. Cohen. Le Talmud, Ed. Payot, Paris, p. 448.

(٣٠١) Talmud Babylonien. Erubin 19 a. A. Cohen, Le Talmud, p. 449.

(٣٠٢) أيوب ٣٨/ ١٧.

(٣٠٣) أشعيا ٣٨/ ١٠.

أيديهم»(٢ / ٧٩)؛ و«من الذين هادوا يحرّفون الكَلِمَ من مواضعه لعنهم اللّه» (٤/ ٤٦)؛ لأنّهم «يحرّفون الكلم عن مواضعه»(٥/ ١٣).

وفي المصادر النصرانيّة أيضاً: «كلّ من يسمع الأقوال النبويّة في هذا الكتاب، فإنْ زاد أحد عليها شيئاً زاده اللّهُ من النكبات... وإذا أسقط أحد شيئاً من أقوال الكتاب النبويّ، أسقط اللّهُ نصيبَه من شجرة الحياة ومن المدينة المقدسة»[٣٠٤].

في القرآن أيضاً: «الّذين يؤذون اللّهَ ورسولَه لعنهم اللّهُ في الدنيا والآخرة» (٣٣/ ٥٧). و«الذين كذبوا على ربّهم ألا لعنةُ اللّهِ على الظالمين. الّذين يصدّون عن سبيل اللّه... هم كافرون» (١١/ ١٨). و«الذين ينقضون عهد اللّه... ويفسدون في الأرض... أولئك لهم اللعنة ولهم سوء الدار» (١٣/ ٢٥). و«مَن يقتل مؤمناً متعمّداً فجزاؤه جهنّم خالداً فيها» (٤/ ٩٣). وغير ذلك من ذنوب، مثل: الشرك، والكفر، والقتل، والزّنى، والتخلّف عن الجهاد، وقذف المحْصَنات... وهي هي في اليهوديّة والنّصرانيّة.

٤. يشير القرآن إلى **كثرة الهالكين** في جهنّم، وإلى دخول الناس إليها أفواجاً أفواجاً: «ونسوق المجرمين إلى جهنم وِرْداً» (١٩/ ٨٦)، أو «وَسِيقَ الّذين كَفَروا إلى جَهَنّمَ زُمَراً» (٣٩/ ٧١). وجهنم مليئة بالنّاس والجنّ سواء بسواء: «لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ»[٣٠٥]. وجهنّمٌ لا تشبع على رحابتها من كثرة الواردين

---

(٣٠٤) سفر الرؤيا ٢٢/ ١٨-١٩.

(٣٠٥) سورة السجدة ٣٢/ ١٣؛ أنظر: هود ١١/ ١١٩؛ الأعراف ٧/ ١٨.

إليها: «يَومَ نَقُولُ لجَهَنَّم: هَـلِ امْتَلأْتِ؟ وَتَقُولُ: هَلْ مِنْ مَزِيدٍ؟» (٥٠/ ٣٠).

إلى مثل هذا أشارت التّوراة والأناجيل: يقـول أشعيا: «وسّعتِ الجحيـم نفسَها وفغـرتْ فاها بلا حدّ. فـينحدر فيهـا وجهاءُ الأرض وعامّـتها وجـمهورهـا وكل مرح فيـها»[٣٠٦]. ويقول سفـر الأمثال: «ثلاث لا يشبـعن: ألجحيم، والرَّحِمِ العقـيمة، والأرض»[٣٠٧]. ويشير الإنجيل إلى رحابة طـريق جهنّم وسهولة الانحدار فـيه: «إنّ الطريق المؤدّي إلى الهلاك رَحْبٌ واسع. وما أكثر الذين يسلكونه. في حين أنّ الباب ضيّق، والطريق المؤدّي إلى الحياة حرج. وما أقلّ الذين يهتدون إليه»[٣٠٨].

٥. ويُخـشَى، لكثـرة الواردين إلى جهنـم القرآن العـربي، أن يكونَ **كلُّ البشـــرِ يَرِدُهَا،** ولو لِلَحْـظَةٍ وجـيـزة. يقـــول: «فَـوَرَبِّكَ! لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ، ثُمَّ لَنُحْضِـرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًا. ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَـةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِتِـيًا. ثُمّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالّذِينَ هُمْ أَولَى بِهَا صِلِيًا. وَإِنْ مِنْكُمْ إلاّ وَارِدُهَا. كَانَ علَى رَبِّكَ حَتْـماً مَقْضِيًا. ثُمّ نُنَجِّي الّذين اتَّقَوا، وَنَذَرُ الظّالِمِينَ فِيها جِثِيًا» (١٩/ ٦٨-٧٢).

٦. ولكن، يخـتلف الرأي عمّـا إذا كانتْ عـذابات جهنّم الـقرآن **أبديّة أم لهـا نهاية؟** ونرى في ذلك رأيَين مـتناقضَين: من جـهة إنّهـا عذابات أبديّة لا تنتهي، ومن جهة ثانية إنّها منتهية ومحدودة.

---

(٣٠٦) أشعيا ٥/ ١٤.

(٣٠٧) الأمثال ٣٠/ ١٥-١٦.

(٣٠٨) متى ٧/ ١٣-١٤. أنظر أيضاً: ١٩/ ٢٤؛ لوقا ١٣/ ٢٤؛ يوحنا ١٠/ ٩-١٠.

يؤيّد الرأيَ الأوّلَ قولُـه: «مَن يَعصى اللّهَ ورسولَـه فإنّ له نارَ جهنّم خَـالِدِينَ فِيـهَا أَبَداً» (٧٢/٢٣)، و«إنّ اللّه لَعن الكافـرينَ، وأعدّ لهم سَعِيراً خَـالِدِينَ فِيهَا أَبَداً» (٣٣/٦٥)، و«أصحابُ النّـار هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ»(٣٠٩).

وهو رأي المسـيحـيّـة حيث جـهنّم «نارٌ لا تطفـأ»(٣١٠)، و«نار أبدية»(٣١١)، و«عذاب أبدي»(٣١٢)...

ويؤيد الرأيَ الثـاني أقوالٌ أخـرى تُنيطُ الهلاكَ بمشـيئـةِ اللّه، مثل: «فَأمّـا الذين شقوا ففي النار، لهم فـيها زفير وشـهيق، خالدين فيـها ما دامتِ السمـوات والأرض، إلاَّ مَا شَاءَ رَبُّكَ. إنَّ رَبَّكَ فَـعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ» (١١/١٠٦–١٠٧)، وقال: «ألنّار مـثواكم خَالدين فيـها، إلاَّ مَا شَاءَ الـلّه. إنَّ ربَّك حَكِيمٌ» (٦/١٢٨). كلّ شيء إذاً، حتّى أبدية جـهنم أو نهايتهـا، متعلّق بحكم اللّه ومشـيئته الحرّة، وتـصرّفه المطلق، لأنّ اللّه «يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ» (٢٢/١٤)، و«يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ» (٥/١)، و«فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ»(٣١٣).

فكرة نهاية جهنّم غـير بعيدة عن المسيحيّـة أيضاً، حيث بعض الآباء قال بخـلاص اللّه الشامل، أو «التـجديد الشامل» على مـا يقول

---

(٣٠٩) سورة البقرة ٢/ ٣٩، أنظر: ٢/ ٨١ و٢١٧ ؛ آل عمران ٣/ ١٦٦ ؛ الأعراف ٧/ ٣٦؛ يونس ١٠/ ٢٧ ؛ الرعد١٣/ ٥؛ المجادلة ٥٨/ ١٧...

(٣١٠) متى ٣/ ١٢، مرقس ٩/ ٤٤ و٤٨...

(٣١١) متى ١٨/ ٨؛ ٢٥/ ٤١...

(٣١٢) متى ٢٥/ ٤٦...

(٣١٣) سورة البروج ٨٥/ ١٦ ؛ س. هوود ١١/ ١٠٧.

أوريجينوس[٣١٤]، وذلك نقلاً عن بعض نصوص الأناجيل وأعمال الرّسل[٣١٥]، وبعض اللاّهوتيّين الّذين يرفضون مثلَ هذا الظلم الأبديّ الناتج عن اللّه الرّحمن الرّحيم. وإذا كان من حالةٍ يعيشها غيرُ مستحقّي مشاهدةَ وجه اللّه، فهي حالة بُعدٍ عن اللّهِ أكثر ممّا هو عذاب بالشكل الذي تتصوّره التقاليد القديمة.

٧. ثمّ، إذا كان القرآن العربي يعترف فعلاً بنهاية عذابات جهنّم فيكون معنى ذلك أنّه يعترف، بطريقة ما، بما يُسمَّى في التقاليد المسيحيّة والنصرانيّة بـ «المطهر». هذا المطهر يقوم على أنْ يكفّر الإنسان، أو يكمّل كفّارته عن خطاياه قبل أن يدخل الجَنّة، في مكان ما بعد الموت... ويبدو أنّ المتأخِّرين من المسلمين فهموا ذلك فهماً صريحاً، وأسند بعضُ المحدِّثين إلى النبي حديثاً يقول فيه: «يَدْخُلُ أهْلُ الجنّةِ الجَنَّةَ، وأهْلُ النَّارِ النَّارَ. ثم يقول: أَخْرِجُوا مَنْ كَانَ في قلبه مِثقالُ حَبّةٍ مِن خَرْدَلٍ مِن إيمان. فَيَخْرُجُونَ منها، وقد اسْوَدُّوا، فَيُلْقَونَ في نهرِ الحياة»[٣١٦]. وعن أَنَس بن مالك عن النبيّ قال: «يَخرُجُ من النارِ مَن قال لا إلَه إلاّ اللّه، وفي قلبه وَزنُ شُعَيرةٍ مِن خير. ويَخرُجُ من النّارِ مَن قال لا إلَه إلاّ اللّه، وفي قلبه وزنُ بُرَّةٍ مِن خير. ويَخرُجُ من النّار مَن قال لا إلَه إلاّ اللّه، وفي قلبه وزنُ ذَرَّةٍ من خير»[٣١٧].

---

(٣١٤) استعمَلَ أوريجين لفظة يونانيّة شهيرة على لسانه "Apocatastase". ورد حرم هذا القول في Denz, nª 211.

(٣١٥) هناك إشارات إلى تجديد السماوات والأرض في سفر الرؤيا ٢١/١–٥؛ ٢ بطرس ٣/١٣؛ أعمال الرسل ١٣/٢١؛ متى ١٩/٢٨؛ ٢ قور ٥/١٧.

(٣١٦) صحيح البخاري في الإيمان ص ١٢.

و«حجاب الأعـراف»، الذي يتكلّم عليه القرآن العربـي، مختلَف فـيـه هو أيضـاً. يقول الـقرآن: «وَبَيْنَـهُمَـا (أي بين أصـحـاب الجنّة وأصحاب النّار) حِجَابٌ. وَعَلى الأعْرَاف رِجَالٌ يُعرَفُون كُلاً بِسِيمَاهُم. وَنَادَوا أصـحـابَ الجَنّة: أنْ سَـلامٌ عليكُمْ. لَمْ يَدْخُـلُوهَا (أي لم يدخل أصحاب الأعـراف الجنّةَ) وَهُمْ يَطْمَعُونَ (في دخولـها). وَإِذَا صُرِفَتْ أبْصَارُهُم (أي أصـحاب الأعـراف) تَلْقَاءَ (أي جـهة) أصْحَـابِ النَّارِ، قَالُوا: رَبَّنَا! لا تَجْـعَلْنَا (في النّار) مَعَ القَومِ الظّالِمِين. وَنَادَى أصْـحَابُ الأعْرَافِ رِجَـالاً (من أصحاب النّار) يَعْرِفُـونَهُمْ بِسِيمَاهُمْ. قَـالُوا: مَا أغْنَى عَنْكُمْ (من الـنار) جَمْـعُكُم (المال)، وَمَـا كُنتُمْ تَسْـتَكْبِـرُونَ (أي استكباركم عن الإيمان» (٧/ ٤٦-٤٨).

«حـجـاب الأعـراف» هذا هو سُـورٌ يفصـلُ بين الجنّة والنار؛ و«رجال الأعراف» يسيـرون على هذا السّور الذي هو أيضـاً «صِرَاطُ الجَحِيمِ» (٣٧/ ٢٣)، أي جسر العبـور الذي عليه يعبر هؤلاء الرجال بعد الموت. ويُسـمّى عند المزديين «سنفات» Cinvat، وهو جسـر فوقَ جهنّم. وقد أشارت إليـه بعض التقاليد اليهوديّة والنصـرانيّة بقولها: إنّه طريق ضيّق فـوق الهّوة: نارٌ على يمينه، ومياهٌ على شـماله. ومَن سار عليه مُثَقَّلاً بأعباء الخطايا، خاف الوقوع، و يقع لا محالة[٣١٨]...

و«رجـال الأعراف» هؤلاء، لا نعـرف علامـتـهم، فلا نعـرف، بالتّالي، إذا كـانوا من «أصحاب الجنّة» أم من «أصحـاب النار». يبدو أنّهم بَين بَين، وأنّهم ما زالوا على الجسر يعبرون، لم يصلوا بعد، ولم

---

(٣١٧) المرجع نفسه، عن الإيمان ص ١٧-١٨.

(٣١٨) IV Esdras, VII, 6-8.

تتحدّد هوّيتُهم، لكنّهم يعرفون بعضَـهم بعضاً، أي يعرفون «أصحاب الجنّة» كمـا يعرفون «أصـحاب النار»، ويحذّرون الناس بألاّ يعـبروا دون نور: «يَومَ يَقُـولُ المنَافـقُـونَ وَالمنَافـقَـاتُ للّذيـن آمَنوا: أُنْظُرُونَا نَقْتَـبِسُ مِن نورِكم. قِيل: ارْجِـعُوا وراءَكم، فَالتـمِسُوا نُوراً. فَـضُرِبَ بَينَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ» (١٣/٥٧).

في القرآن: إنّ الهـالكين في جهنم «لا يذوقـون فيـها الموتَ إلاّ الموتة الأولى» (٥٦/٤٤). «إنّ هي إلاّ مـوتتنا الأولى» (٣٥/٤٤). «أفمـا نحن بميِّتِـين إلاّ موتتنا الأولى، وما نحـن بمعذّبين» (٣٧/٥٨-٥٩). ولكأنّ ثمّـة «موتة ثانية» قـال بها القـرآن أيضاً: «ربّنا! أمَـتّنا اثنتَين، وأحـييـتَنا اثنتَين. فاعـترفنا بـذنوبِنا، فهل إلى خـروج من سبـيل؟» (١١/٤٠). أمّا النّاجون فلا يعرِفون إلاّ موتة واحدة.

هاتان الموتتان نتبيّنهما في سفر الرؤيا حيثُ الهالكون يموتون موتة ثانيـة والنّاجون موتـة واحدة. قال: «مَن غَلَبَ فـلا يضرُّه الموتُ الثـاني»[٣١٩]. «وبحـيـرة النار هي الموت الثـاني»[٣٢٠]. «أمّا الجـبناء والكفرة... فإنّ نصيبهم في البـحيرة المتَّقِدة بالنّار والكبريت. هذا هو الموت الثاني»[٣٢١].

٨. **عذابات جهنّم** شديدة ومتنوّعة: فـهي تحيط بالكافرين من كلّ جهّة: «إنّ جَـهنّم لَمحِيطَةٌ بِالكَافِرِينَ... يَغْشَاهُمُ العَـذابُ مِن فَوقِهِم

---

(٣١٩) سفر الرؤيا ٢/١١.

(٣٢٠) ألرؤيا ٢٠/١٤.

(٣٢١) ألرؤيا ٢١/٨؛ أنظر أغوسطينوس، مدينة الله، ١٠٣/٢: ٨؛ ٢٠/٦... أفرهات، ٨/١٩.

ومِن تحتِ أرْجُلِهِم» (٢/ ٥٤-٥٥)؛ وتطلع النّار على أفـئدتهم وتطبق عليهم: «نار اللّهِ المـوقدة الّتي تَطّلع على الأفئـدة. إنّها عليهم مـؤصَدَة (مطبـقــة) في عَـمَـدٍ مُـمَـدَّدة» (١٠٤/ ٦-٩)؛ ينامــون على النّار ويلتحفونها: «لَهم مِن جَهنّمَ مِـهَادٌ، ومِن فوقِهم غَواشٍ (أغطية)» (٧/ ٤١). إنّهم «فِي سَـمُـومٍ (ريح حـارّة)، وَحَمِـيمٍ، وَظِلٍّ مِن يَحْـمُـومٍ» (دخـان شديد أسـود) (٥٦/ ٤٢-٤٣). و«النّار الّتي وُقُـودُهَا النّاسُ وَالحِجَارَةُ أُعِدَّتْ للكَافِرِين» (٢/ ٢٤).

«وأمّا الّذينَ فَسقُوا فَمَأوَاهُمُ النَّارُ. كُلَّمَا أرَادوا أنْ يخرُجوا منها أُعيـدُوا فِيـها. وقيلَ لهم: ذُوقُـوا عذابَ النّار» (٣٢/ ٢٠)، «ثُمّ صُـبُّوا فَوقَ رَأسِـه مِن عذابِ الحَميم» (٤٤/ ٤٨)؛ «وَتَغشَى وُجُوهَهُمُ النَّارُ» (١٤/ ٥٠)، وتصـبح سـوداءَ حالكـة فـ «تَرَى الّذين كـذَّبُوا على اللّهِ وجوهَهمْ مُسـوَدَّة» (٣٩/ ٦٠)، كأنّها قطعاً من اللّيل: «كَأنّمـا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعـاً مِنَ اللّيلِ مُظْلِماً. أولئكَ أصحـابُ النّارِ فيهـا خالِدون» (١٠/ ٢٧)، «وُجُـوهٌ يَومَئذٍ عَلَيـها غَـبَرَةٌ (أي غـبـار)، تَرْهَقُهَـا (أي تغشـاها) قَتَـرَةٌ (أي ظلمة حـالكة)» (٨٠/ ٤٠-٤١)، «وُجُوهٌ يَومَئِذٍ بَاسِرَة (كالحة شديدة العبوس)» (٧٥/ ٢٤)...

وفي التقاليد الـيهوديّة والمسيحيّة والنصـرانيّة فيضٌ من هذه الصور الجهنميّة. ففي كـتاب أحنوخ المنحول نقرأ: «الظلمة مسكنهم، والدود مـهادهم، وليس لهم أمل بالنهـوض من مرقـدهم»[٣٢٢]. وفي الأنبياء حيث جهنّم هي «أرض دجية حالكة كالدّيجور وظلال الموت لا

---

(٣٢٢) I Hénoch, LXIII, 6; XCII, 5, XLVI,6.

نظام فيها، ونهارها كالدّيجور»[٣٢٣]. وعند مار أفرام السرياني «ألهالكون يقعدون في بحيرةٍ من نار، يتألّمون بدون أملٍ في الرجوع عن الألم، تلفُّهم لهبُ النار من كلّ جَنب. أفواههم تتقيّأ ناراً»[٣٢٤]. ويقول أيضاً: «إنّ المنافقين في جهنّم مأكلٌ للنار»[٣٢٥]. وفي الأناجيل والعهد الجديد عامّة، ألمنافقون قابعون في جهنم، حيث ظلمة قاتمة، تلفّهم من فوقِهم ومن تحتهم، ويملأ الدخان عيونهم وقلوبهم، وتسودّ كلُّ المناظر أمام وجوههم[٣٢٦].

٩. أمّا **حالات الهالكين النفسيّة** فلا توصف لكثرة ما هي عليه من «الذلّ»، و«الخزي»، و«التأسّف». ويسمع منهم «زفير»، و«شهيق»، و«عويل»: «ذلك الخزي العظيم»[٣٢٧]، وترى الهالكين «خَاشِعة أبصارُهم ترهقهم ذلّة»[٣٢٨]، و «تراهم... خاشعين من الذلّ» (٤٢/ ٤٥). و«لهم فيها (جهنم) زفيرٌ، وهم فيها لا يُسمعون» (٢٧١/ ١٠٠)، و«لهم فيها زفير وشهيق» (١١/ ١٠٦).

وهالكو الإنجيل ليسوا أحسن حالاً من هالكي القرآن. فلهم أيضاً في جهنّم بكاء، وصراخ، وعويل، وصريف أسنان[٣٢٩]؛ ولا

---

(٣٢٣) أيوب ١٠/ ٢٢.

(٣٢٤) St. Ephrem, Sermo alter de Reprehensione, II, 368 Traduction Lamy.

(٣٢٥) St. Ephrem, Le Baptême du feu, cité par C. M. Edsman, p. 131

(٣٢٦) متى ٨/ ١٢؛ ٢٢/ ١٣؛ ٢٥/ ٣٠؛ يهوذا ٦.

(٣٢٧) سورة التوبة ٩/ ٦٣؛ س. فصّلت ٤١/ ١٦؛ س. الزّمر ٣٩/ ٤٠...

(٣٢٨) سورة القلم ٦٨/ ٤٣؛ س. المعارج ٧٠/ ٤٤؛ س. يونس ١٠/ ٢٧...

(٣٢٩) متى ٨/ ١٢؛ ١٣/ ٤٢ و٥٠؛ ٢٢/ ١٣؛ ٢٤/ ٥١؛ ٢٥/ ٣٠؛ لوقا ١٣/ ٢٨...

يُسمع منهم ندمهم، ولا تُقبل توبتهم، كما هي حال الغني الذي يتعذّب في الدرك الأسفل، مستنجداً بإبراهيم، وإبراهيم لا يفيدُه شيئاً[٣٣٠].

١٠. وتتصف عذابات جهنم بما يكون على أعناق الهالكين من **قيود وسلاسل وأغلال**. يقول القرآن: «إنّا جَعلْنا في أعناقِهم أغْلالاً فهي إلى الأذقان فهم مقحَمُون» (٣٦/٨)، و«إذِ الأغلالُ في أعنَاقِهم وَالسَّلاسِلُ يُسْحَبُون في الحَميمِ ثمّ في النّار يُسْجَرُونَ (يوقَدون)» (٤٠/ ٧١-٧٢)، و«إنَّا اعْتَدْنا للكافرينَ سَلاسلَ وأغْلالاً وسَعيراً» (٧٦/ ٤)، و«إنّ لدينا أنْكالاً (قيوداً ثِقالا) وجحيماً» (٧٣/ ١٢). ويُكلِّفُ اللّهُ الملائكة بتعذيب الهالكين قائلاً لهم: «خُذُوهُ فغُلُّوهُ، ثمّ الجَحِيمَ صَلُّوهُ. ثمّ في سلسلةٍ ذَرْعُها سبعونَ ذِراعاً فاسْلُكُوهُ» (٦٩/ ٣٠-٣٢)...

وفي كتاب أحنوخ المنحول كلامٌ أيضاً على «سلسلة من حديد ومقارع، يحملها ملائكة التعذيب»[٣٣١]، وفي الإنجيل يقول الملك: «أمسكوه وغلّوه في يديه ورجليه واطرحوه في الظلمة البرانيّة»[٣٣٢]، وفي كتب نصرانيّة أخرى نرى «غضب اللّه يقيّد الهالكين في عمود. ينزل الملائكة وفي أيديهم مقارع مشرقة وسلاسل من نار»[٣٣٣].

١١. ولهالكي القرآن **مأكلٌ خاصٌ** بهم، مرّ المذاق، لا ينفع، وهو من شجرةٍ خاصّة بجهنّم إسمها «الزَّقُّوم»، وهي من أخبث الشجر

---

(٣٣٠) مثل الغني ولعازر في لوقا ١٦/ ١٩-٢٦.

(٣٣١) I Hénach, LVI, 1; Cf. LIV.

(٣٣٢) متى ٢٢/ ١٣.

(٣٣٣) Oracles Sibylliens II; S.Ephrem, Sermo... 5; Apoc de Paul,, p. 554.

المرّ بتهامة. يقول: «إنّ شجرةَ الزَّقُّومِ طعامُ الأثيمِ، كَالمُهْلِ يَغْلي في البُطُونِ كَغَلْي الحَميم» (٤٤/٤٣-٤٦)؛ «إنّها شجرة تخرج في أصل الجحيم. طَلْعُهَا كأنّهُ رؤوس الشّياطين»[٣٣٤]؛ إنّها «الشجرة الملعونة» (١٧/٦٠) التي تذكّرنا بشجرة الفردوس التي نهى اللّهُ عن أكلها، فلعن الأرضَ بسببها.

ومن مآكل الجحيم أيضاً الشوك الذي لا ينفع في سَدّ حاجة: «ليسَ لهم طعامٌ إلاّ من ضَريع (نوع من الشوك) لا يُسْمِنُ ولا يُغنِي مِن جُوع» (٨٨/٦-٧)، «طعَاماً ذا غُصّة» (٧٣/١٣). ومن أشدّ العذابات أنّ النار تأكلُهم وهم يأكلونها: إنّهم «لا يأكلُونَ في بطونِهم إلاّ النّار» (٢/١٧٤).

أمّا **الشراب** فهو من «حَميم»، أي ماء يحرق الأمعاء ويقطّعها تقطيعاً: «الّذين كَفَرُوا لهم (في جهنّم) شرابٌ من حميم»[٣٣٥]، ولقد «سُقوا ماء حميماً فتقطّع أمعاءهم»[٣٣٦]. ويشربون أيضاً غَسّاقاً، وهو القيح والدم: «لا يذوقون فيها برداً ولا شَراباً، إلاّ حَميماً وَغَسَّاقاً»[٣٣٧]؛ ويشربون «الصديد» أيضاً جرعةً جرعة، فيضرّ حتّى يميت، ولكنّه لا يميت: «مِن وَرائِه جهنّم، وَيُسْقَى مِن مَاءٍ صَدِيد، يَتَجَرَّعُهُ وَلا يكادُ يُسيغُهُ (يزدرده)، ويَأتيهِ الموتُ من كلِّ مكان، وَمَا هو بمَيِّتٍ. ومِنْ وَرائه عذَابٌ غليظٌ» (١٤/١٦-١٧).

---

(٣٣٤) سورة الصافّات ٣٧/٦٤-٦٥؛ س. الواقعة ٥٦/٥٢-٥٥.

(٣٣٥) سورة يونس ١٠/٤؛ س. الأنعام ٦/٧٠.

(٣٣٦) سورة محمّد ٤٧/١٥؛ سورة الواقعة ٥٦/٥٤.

(٣٣٧) سورة النّبأ ٧٨/٢٤؛ سورة ص ٣٨/٥٧.

وتختصر سورة الغاشية مأكل الهالكين ومشربهم بقولها: «وجوهٌ يومئذٍ خاشعةٌ (ذليلة) عاملةٌ ناصبة (ذات نصب وتعب بالسلاسل والأغلال)، تَصلَى ناراً حَامية، تُسْقَى من عَينٍ آنِيَةٍ (شديدة الحرارة)، ليسَ لهَا طعَامٌ إلاّ من ضَريعٍ (نوع من الشوك)، لا يُسْمِنُ ولا يُغْنِي مِن جوعٍ» (٨٨/٢-٧).

لا يُستبعد أن يكون في النّصرانيّة ما يشير إلى أنّ الهالكين في جهنّم يأكلون ويشربون، ولكنّهم لا يشبعون ولا يرتوون. وقد يكون مأكلهم ومشربهم لازدياد عذابهم، أكثر ممّا هو لاستمراريّة الحياة؛ لأنّه لا موت في الجحيم، بل عذابات لا حدّ لها ولا نهاية.

١٢. أمّا **الملائكة** الذين يَلعبون دوراً في موت الإنسان وهلاكه فللقرآن فيهم نظرة النّصارى. يقول في «ملاك الموت»: «يتوفّاكم مَلاكُ المَوتِ الذي وُكّل بكم. ثمّ إلى ربِّكم ترجعون» (٣٢/١١). واسمُه «مَالِك» (٤٣/٧٧)، وهو خازن النّار.

وهو، في التقليد النّصراني والإسلامي، «عزرائيل» و«عزازيل» الذي يقبض نفوس البشر عند دنو أجَلِها.

«مَلاكُ الموت» هذا، بحسب دانيال، يشقّ الإنسان شطرَين[٣٣٨]. ولكن، ليس له على المؤمنين من اليهود حافظي التوراة أيّ سلطان[٣٣٩]. وتتمّ عمليّته كالآتي: «عندما يتركُ الإنسانُ هذا العالَم، يَظهر عليه ملاك الموت لينزع منه نفسَه: فإنْ كان بارّاً تُنزع بلُطفٍ،

---

(٣٣٨) دانيال ١٢/٥٥ و٥٩.

(٣٣٩) Le Talmud, ‘Abodah zarah 20 b, 5 a; Beresit 6,7.

كما تُسحَب الشعرة من اللّبن؛ وإنْ كـان شرِّيراً تُنزع كما تخرج المياهُ الدافقة من مخرج ضيّق»(٣٤٠). ويعبّر القرآن عن هذه الصورة بقوله: «النَّازِعاتُ نَزْعـاً، والنَّاشِطاتُ نَشْطاً» (٧٩/ ١-٢)، أي: «أَلملائكة تنزِع أرواحَ الكفار نَزعـاً بشدّة. والملائكةُ تنشط أرواح المؤمنـين، أي تسلّها برفق»(٣٤١)

وعندما تنتـهي مهمّـة «ملاك الموت»، يحضـر إلى جانب الميت مـلاكان آخـران: «هاروت ومـاروت» (٢/ ١٠٢): واحدٌ عـن شمـاله وآخَـر عن يمينه. ويسـير كلٌّ واحـدٍ منهـما بـالميت في الطريق الذي يسـتحقّ: «إذ يَتَلَـقّى المُتَلَقِّيَـانِ عنِ اليَـمينِ وعن الشِّـمَال قَـعِيـدٌ (أي قـاعِدان)» (٥٠/ ١٧). وإذا مـا تقـرّر مصـيره وكـان من الهـالكين، يحضـر لديه بأمرِ اللّهِ مَـلاكان آخران: «سَـائِقٌ وَشَـهِـيدٌ» (٥٠/ ٢١) ليُلقيانِه في جهنّم: «أَلْقِيَا في جـهنَّمَ كُلَّ كَفّارٍ عَنيدٍ... أَلْقِيَاهُ فِي العَذابِ الشَّديدِ» (٥٠/ ٢٤و٢٦). وعندما يوصِـلاه إلى أبواب الجحيم تتكفّلُ به ملائكـةٌ أشرار «يَضربون وُجـوهَهُم وأَدْبَارَهم» (٤٧/ ٢٧). هؤلاء يبلغ عددهم، بحـسب القرآن، تسعـةَ عشر، يسمّـون «زبانية» (٩٦/ ١٨)، وهم «مـلائكة غِلاظٌ شـداد» (٦٦/ ٦)، «أصحـاب النّار» (٧٤/ ٣١)، و«خَزَنَة» الجـحيم: «كلَّمَا أُلْقِيَ فـيها فـوجٌ سَألَهم خَزَنَتُـها: أَلَمْ يأتِكُمْ نذير؟» (٦٧/ ٨).

في التقـاليد اليـهوديّة والنصـرانية كـلام كثيـر على الملائكة: فمنهم الصـالحون يقـودون الأبرار الى الجنّة، ومنهم المهلِكون الذين

---

(٣٤٠) Midras Tehillim 52 a; Ps. XL, 7; 51, B..

(٣٤١) تفسير الجلالين على سورة النّازعات ٧٩/ ١-٢.

يتكفّلون بعـذاب الأشرار. يذكر سفـر المزامير أنّ الـلّه «أرسل عليهم (على الناس الاشرار) وغرَ غضبِه السخط والخنق والضيق، بإرسال ملائكة مهلكين»[٣٤٢]. والمزامير ترجع بنا إلـى ملاكَي لوط اللّذَين قالا له : «إنّا مُـهلِكَانِ هذا الموضـع... وقـد بعَـثَنا الربّ لـنهلك المدينة»[٣٤٣]. وعلى ذلك يعتمـد كتاب أحنوخ المنحول في قوله: «لقـد رأيتُ صفوف ملائكة الهلاك يمشـون وفي أيديهم مقارع وسـلاسل من حديدٍ محمّى ونحـاسٍ، يُعِـدُّونَهـا للهـالكين»[٣٤٤]... هؤلاء الملائكة المـهلكون، هم بحسب باخوميوس غلاظٌ، لا يرحمـون: «خلقهم اللّهُ بدون شفقة لئلاّ يكون لهم عـلى الأشـرار عطف»[٣٤٥]. ويبـدو الاسم الـذي سـمّـاهم القـرآن به «زبانية» قـريبـاً من «شبـايا» عند مـار أفرام السـرياني، «الذين، بحسب رأيه، يدفعون الناس إلى الهلاك».

---

(٣٤٢) مزمور ٧٧/ ٤٩.

(٣٤٣) تكوين ٩/ ١٣ ؛ يذكرها القرآن في س. هود ١١/ ٧٤ و٧٧-٨٣؛ وس. العنكبوت ٢٩/ ٣١-٣٥.

(٣٤٤) I Hénoch, LVI,1; LXII, 11; LXIII,1

(٣٤٥) Vie de Pachôme (copte)Ann, du Musée Guimet 17.

خامساً – في أمثال الإنجيل الواردة في القرآن

بين القرآن العربي والمصادر النّصرانيّة صُور وتعابير وتشابيه وأمثال وألفاظ مشتركة ومتشابهة. إنْ وضعنا بعضها إزاء بعض نتأكّد، لا من معرفة محمّد بالأجواء النصرانيّة وحسب، بل من اعتماده إنجيلاً مكتوباً كان «بين يديه». هذا الاعتماد يقوم، لا على النقل الحرفي، كما هو معروف اليوم، بل على حريّة تامّة في التصرّف. لكأنّ القرآن، في نقله، يعلّق على الإنجيل، ويفسّر لسامعيه، ويُذكِّرهم بما يعرفون: «ذَكِّرْ إنّما أنْتَ مُذَكِّر» (٨٨/ ٢١).

وأكثرُ ما نرى المقارنةَ بين المصادر النّصرانيّة والقرآن العربي في «الأمثال» الإنجيليّة التي نجدها في القرآن. وقد يشمل مثَلٌ قرآنيٌّ واحد أمثالاً عديدة من الإنجيل؛ أو نجد مَثلاً إنجيليّاً واحداً في مواضع عديدة من القرآن. وقد يستلهم محمّد، في شرحه وتفسيره، أخباراً وأمثالاً وقَصصاً من بيئته المكّيّة، من أخبار عربيّة، وقَصص وروايات نصرانيّة متداولة في مجتمعه، كقصة أبناء الكهف، والإسكندر المكدوني، وأخبار عاد وثمود، وروايات العهد القديم، كرواية الخلق والتكوين، وسقطة آدم وحواء وغواية إبليس لهما، وأخبار الأسباط والنّبيّين، وقصّة يوسف، وما إلى ذلك...

أمّا أساس بحثنا فقوامه المقارنة بين أمثال القرآن العربي وأمثال الإنجيل العبراني، مع ما في ذلك من طرافةٍ في الأسلوب

والتعبير. ولا يغيب عن القارئ ما نردّده دائماً بأنّنا نعرفُ ما في الإنجيل العبراني من خلال إنجيل متّى الآرامي، أصلِ كلٍّ الأناجيل الرسمية والمنحولة. وقد أشرنا إلى ذلك سابقاً... وها نحن، الآن، نثبتُ في الأمثال ما فيه أكثر من دليلٍ على اعتماد القرآن على مصادر نصرانيّة كانت متوفّرةً لديه و«بين يديه».

١. في الإنجيل، كما في القرآن، إنْ الاعتماد على الأمثال لتعليم النّاس هو من **الأساليب الأدبيّة المألوفة:**

جاء في القرآن العربي: «وَتِلكَ الأَمْثَال نَضْرِبُهَا للنّاسِ» (٢٩/ ٤٣). «ويضرب اللّه الأَمْثَالَ للنّاس» (١٤/ ٢٥).«وضربنا لكم الأَمْثَالَ» (١٤/ ٤٥). و«ضرب اللّهُ مَثَلاً... للّذِين كَفَروا» (٦٦/ ١٠). «وضرب اللّهُ مَثَلاً للّذين آمَنوا» (٦٦/ ١١).

وفي الإنجيل، «أخذ (يسوع) يضرب لهم الأمثال»[٣٤٨]. وقال يسوع: «إنّما أخاطبهم بالأمثال»[٣٤٩]. وقال متّى: «وضربَ لهم مثلاً آخر»[٣٥٠]. وأيضاً: «وضرب لهم مَثَلاً آخر»[٣٥١]. «ثم قال لهم مَثَلاً آخر»[٣٥٢].

٢. في القرآن العربي: «ختَمَ اللّهُ على قلوبِهم وعَلى سَمْعِهم وعلَى أبصارِهِم غشَاوة... يُخادِعون اللّهَ... وما يُخادعون إلاّ أنفسهم

(٣٤٨) متى ١٣/ ٣.
(٣٤٩) متى ١٣/ ١٣.
(٣٥٠) متى ١٣/ ٢٤.
(٣٥١) متى ١٣/ ١٣.
(٣٥٢) متى ١٣/ ٣٣.

ومـا يَشعـرون. في قلوبهم مـرَضٌ فزادهم اللّهُ مـرَضاً ولهم عـذاب أليم... هُمُ المفسِدون ولكنْ لا يَشعرون. هُـمُ السفهاءُ ولكن لا يَعلَمون. اللّهُ يستـهزئُ بهِم، ويَمُدّهم في طغيـانهم يَعمهـون... صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فهم لا يَرجِـعُون. يجعلون أصابعَـهم في آذانِهم.. ولو شاء اللّهُ لَذهبَ بسمْعِهم وأبصارِهم.» (٢/٧-٢٠).

وفي الإنجيل: «يُبْصِرون من غيـر أن يُبصِروا. ويَسمَعون من غير أن يســمعوا ولا يَفهـموا: سماعـاً تسمعون ولا تفهـمون، ونظراً تنظرون ولا تُبـصِـرون.. فـإنّ قلب هذا الشـعب قـد غلُظ. لقـد ثقّلوا آذانَهم، وأغمَـضوا عـيونَهم لكي لا يُبـصِروا بعيـونهم، ولا يَسمـعوا بآذانِهم، ولا يفهموا بقلوبهم، ولا يرجعوا إليّ فأشفيَهم»[٣٥٣].

٣. في القرآن: «وإذا قلنـا ادخلوا هذه القريّةَ فكُلُوا منهـا حيثُ شِـئتُـم رَغَداً. وادخُلُوا الـبابَ سُـجَّـداً، وقُـولوا: حِطَّةٌ (أي: مـغفـرةٌ وسلاماً) نَغْفِـرْ لكُم خطاياكم. وَسَنَزِيدُ المُحْسِنِينَ... كُلُوا واشرَبُوا من رزق اللّه» (٢/٥٨-٦٠).

وفي الإنجيل: «أيّة قريةٍ دخلتموها استـخبروا عن الكريم فيها وأقيـموا هـناك. لأنّ العامل يسـتحق طعـامَه. وحين تدخلون البـيت سلِّموا عليـه... فمَـضَوا يدعون الناسَ إلى التـوبة». و«أي بيتٍ دخلتم قـولوا: السـلام على هذا البـيت. وامـكثـوا في ذلك البـيت تأكلون وتشربون مما لديهم، لأنّ العـامل يستحقّ أجـرته. وأية مدينة دخلتم وقبلوكم فكُلوا مما يُقرَّب إليكم. وقولوا قد اقترب زمن التوبة»[٣٥٤].

---

(٣٥٣) متى ١٣/١٣؛ مرقس ٤/١٠-١٢؛ لوقا ٨/٩-١٠...

٤. في القرآن: «يا أيّها الذين آمَنُوا! لا تَقُولُوا: "رَاعِنَا" (أي: يا أحمق). وَقُولُوا: انْظُرْنَا (أي: انظر إلينا). وَاسْمَعُوا (ما يُقال لكم). وَلِلْكَافِرِينَ (الذين لا يسمعون ما يُقال لهم) عَذَابٌ أَلِيمٌ» (٢/ ١٠٤).

وفي متّى: «مَن قال لأخيه أحمق استوجب نار جهنم»[٣٥٥].

٥. في القرآن: «أتأمرون النّاسَ بالبِّر وتنسون أنفسكم... فاقتلوا أنفسكم. ذلكم خير لكم عند بارئكم» (٢/ ٤٤ و٥٤).

وفي متّى: «تحمّلونَ النّاسَ أحمالاً ثقيلة وأنتم لا تمسّونَها بإحدى أصابعكم»[٣٥٦]. وقوله: «مَن أراد أن يخلّصَ نفسَه يَقتلها»[٣٥٧]...

٦. في القرآن: «وَمَا أَنفَقْتُم مِن نَفَقَةٍ... فإنّ اللّهَ يَعلَمُهُ... إنْ تُبدُوا الصّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ، وإنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيرٌ لكم، وَيُكَفِّرُ عنكُم مِن سَيِّئَاتِكم. واللهُ بما تَعمَلون خبير... وَمَا تُنفقُوا مِن خَيرٍ فَلأنفسِكم، ومَا تُنفِقونَ إلاّ ابتغاءَ وجهِ اللّه. ومَا تُنفقوا مِن خيرٍ يوفَّ إليكُم... وما تُنفِقوا من خيرٍ فإنّ اللّهَ به عليم. ألّذين يُنفقون أموالَهم باللّيل والنهارِ، سِرّاً وعلانيةً، فلَهم أجرُهم عند ربِّهم، ولا خوفٌ عليهم ولا هُمْ يَحزَنُونَ» (٢/ ٢٧٠-٢٧٤). وقوله أيضاً: «لن تَنالُوا البِرَّ حتّى تُنفِقوا ممّا تُحِبُّونَ. ومَا تُنفِقوا مِن شيءٍ فإنّ اللّهَ به عليم» (٣/ ٩٢).

---

(٣٥٤) متى ١٠/ ١٠؛ لوقا ١٠/ ٥.

(٣٥٥) متى ٥/ ٢٢.

(٣٥٦) متى ٢٣/ ٤.

(٣٥٧) متى ١٦/ ٢٥؛ لوقا ٩/ ٢٤؛ مرقس ٨/ ٣٥.

وفي متّى : «أبوك الذي يرى في الخفـية يجازيك»[٣٥٨]، وقال: «إيّاكم أن تعملوا برّكم بمرأى من النّاس لكي يَنظروا إليكم. فلا يكونُ لكم أجر».. وقال أيضـاً: «فإذا تصدّقتَ فلا تفعل كـما يفعل المراؤون ليُعظِّمَهم الناس. إنّهم أخذوا أجـرَهم. وإذا تصدَّقتَ لتكن صدقتُك في الخفية، وأبوك الذي في الخفية يجازيك»[٣٥٩]. وقال كذلك: «إذا أردتَ أن تكون كاملاً فاذهبْ وبِعْ كلَّ شيء»[٣٦٠]

٧. في القرآن: «إنّ الذين كَـذَّبوا بآياتِنا واسـتكبَروا عنهـا لا تُفَتَّحُ لهُم أبوابُ السـماءِ، ولا يَدخُلونَ الجَنّة حـتّى يَلِجَ الجَمَلُ في سَمِّ الخِيَاطِ» (٧/ ٤٠).

وفي متّى: «يـعسر على الغـنيِّ دخولُ ملكوتِ السـموات. لأنْ يَدخل الجـــمَلُ في سَمِّ الإبـرة أيســـرُ مِن أن يدخـلَ الغنيُّ مـلكوتَ السموات»[٣٦١]

٨. في القـرآن ما يُشـبه مـا يسـمَّى في الإنجيل بـ «الصـلاة الربّيّة». يقول: «ربّنا! لا تُـؤَاخِذْنَا إنْ نَسِينا[٣٦٢]، أو أخطَأْنا. رَبَّنَا! وَلا تَحمِلْ عَلَينا إصرًا، كَمَا حَمَلْتَهُ عَلى الّذينَ مِنْ قَبْلِنَا. رَبَّنَا! وَلا تُحَمِّلْنَا مَا لا طَاقَةَ لَنَا بِهِ. وَاعْفُ عَنَّا، وَاغْفِرْ لَنَا، وَارْحَـمْنَا. أنتَ مَولانَا، فانْصُرْنَا

(٣٥٨) متى ٦/ ١٨.
(٣٥٩) متى ٦/ ١-٢.
(٣٦٠) متى ١٩/ ٢١.
(٣٦١) متى ١٩/ ٢٣-٢٤.
(٣٦٢) قد تكون لفظة «نَسِـينَا» تحريفاً للفظة «نِسْـيُونَا» الآراميّة، وتعني «التـجربة». فيكون المعنى القرآني متعلّقاً بالمعنى الإنجيلي مباشرةً.

عَلى القَـومِ الكَافِرِينَ» (٢/ ٢٨٦).. وقـوله أيضاً : «رَبَّنَا! فَـاغْفِـرْ لَنَا ذُنُوبَنَا، وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا» (٣/ ١٩٣).

وفي لوقا : «أبانا... لا تعـرِّضنا للتجربة، أعفُ ممّا علينا، كـما أعفينا نحنُ غيرَنا ممّا لنا عليه»(٣٦٣). «إغفرْ لنا خطايانا لأنّنا نغفرُ لمن أساء إلينا، ولا تعرِّضنا للتجربة»(٣٦٤).

٩. وعن الصلاة إلى اللّه في الخـفية وبعـيداً عن أنظار الناس نجـد في القـرآن: «وإذا قـامـوا إلى الصَّـلاة... يُرَاؤُونَ الناسَ» (٤/ ١٤٢).. «وَيلٌ للمُـصَلِّين ... الّذِينَ يُرَاؤُونَ» (١٠٧/ ٤و٦). وقـوله: «ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً» (٧/ ٥٥).

وفي الإنجـيل: «وإذا صلَّيـتم فلا تـكونوا كالمرائـين، يُحبـون الصَّـلاة في المجامع... ليـراهم الناس»(٣٦٥). بل «صلِّ لأبيكَ الّذي في الخُفية»(٣٦٦).

١٠. في القـرآن : «إنْ كـانَ آباؤُكُم وأبناؤُكُـم وإخـوانُكُم وأزواجُكُم وعشيرتُكُم وأمـوالٌ.. وتِجارةٌ.. ومساكنُ.. أحبَّ إليكُم من اللّهِ ورسولِه.. فَتربَّصوا حتّى يأتي اللّهُ بأمرِهِ» (٩/ ٢٤).

وفي الإنجيل: «مَن كان أبوه وأمُّه أوابنُه أو ابنتُه أحبَّ إليهِ منِّي فليس يستحقُّني»(٣٦٧).

---

(٣٦٣) متى ٦/ ١٢-١٣.

(٣٦٤) لوقا ١١/ ٤.

(٣٦٥) متى ٦/ ٥.

(٣٦٦) متى ٦/ ٦.

١١. في القرآن : إنّ اللّهَ يُضاعفُ الخيرات للّذين يُحبّونه: «مَن ذا الّذي يَقْرِضُ اللّهَ قرضاً حسناً فيضاعفه له أضعافاً كثيرة»[٣٦٨].

وفي الإنجيل: «من كان له شيء يُزاد حتى يفيض»[٣٦٩].

١٢. في القرآن: «ولو نزّلنا إليهم الملائكة وكلَّمَهم الموتى ... ما كانوا ليؤمنوا» (٦/ ١١١). وقوله: «وكيف يحكّمونك وعندهم التَّوراة وفيها حكم اللّه» (٥/ ٤٣).

في الإنجيل: «إنْ لمْ يَستمعوا إلى موسى والأنبياء لا يَقتنعوا لو قام واحدٌ من الموتى»[٣٧٠]. وقوله: «عندهم موسى والأنبياء فليستمِعوا إليهم»[٣٧١].

١٣. في القرآن: «... قالوا آمَنَّا بأَفْوَاهِهِمْ. وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلوبُهُم» (٥/ ٤١).

وفي الإنجيل: «هذا الشعب يكرمُني بشفتَيه وأمّا قلبُه فبعيدٌ منّي»[٣٧٢].

١٤. في القرآن: «وَمِنْهم مَنْ يَقول: ائْذَنْ لِي (في التخلّف عن اتّباع النّبيّ)، وَلا تَفْتِنِّي (بسبب حبِّ النساء). ألاَ فِي الفِتْنَةِ سَقَطُوا (بالتخلّف)» (وهو كلام الذين يستأذنون الرسول حتى يتخلّفوا عن

---

(٣٦٧) متى ١٠/ ٣٧-٣٨.

(٣٦٨) سورة البقرة ٢/ ٢٤٥ ؛ أنظر أيضاً: س. الحديد ٥٧/ ١١ و١٨ ؛ س. التغابن ٦٤/ ١٧؛ س. المزّمّل ٧٣/ ٢٠...

(٣٦٩) متى ١٣/ ١٢؛ لوقا ٨/ ١٨ ؛ ١٩/ ٢٦.

(٣٧٠) لوقا ١٦/ ٣١.

(٣٧١) لوقا ١٦/ ٢٩.

اتّباعه لأجل افتتانهم بالنساء) (٩/ ٤٩ تفسير الجلالين).

وفي الإنجيل قولٌ واضحٌ في مَنْ يتخلّف عن اتّباع المسيح: «قال له رجلٌ: ائْذَنْ لي أن أمضي... وأودّع أهلَ بيتي»[٣٧٣].

١٥. في القرآن: «إنْ تَستغفِرْ لهم سبعينَ مرّة فلن يَغفرَ اللّهُ لهم» (٩/ ٨٠).

وفي الإنجيل: «أغفرْ له... لا سبعَ مرّاتٍ، بل سبعاً وسبعينَ مرّة»[٣٧٤].

١٦. في القرآن:«ما يَكونُ مِن نجوى ثلاثة إلاّ هُو رَابعُهم، ولا خَمسة إلاّ هو سادسُهم، ولا أدنَى من ذلك ولا أكثر إلاّ هُو معهم أينما كانُوا» (٥٨/ ٧).

وفي الإنجيل: «حيثما اجتمع اثنان أو ثلاثة... كنتُ هناكَ بينهم»[٣٧٥].

١٧. في القرآن: «وَإنْ طائفتَان مِن المؤمنين اقتتلُوا فأصلِحُوا بينَهما. فَإنْ بَغَتْ إحداهما على الأُخرى فقَاتِلوا الّتي تَبغِي حتى تَفيء (ترجع) إلى أمر اللّه، فَإنْ فَاءَتْ فَأصلحُوا بينهما بالعَدل... إنّما المؤمِنونَ إخوةٌ فأصْلِحوا بينَ أَخَوَيكُمْ وَاتّقُوا اللّهَ... يا أيُّها الّذينَ آمَنُوا! لا يَسْخَرْ قَومٌ مِن قَومٍ. عَسَى أنْ يكونوا خيراً مِنهم... وَلا تَلْمِزُوا أنفُسكُم (أي لا يعب بعضكم بعضاً) وَلاَ (تَـ) تَنَابَزُوا بالألْقَابِ

---

(٣٧٢) متى ١٥/ ٨.

(٣٧٣) لوقا ٩/ ٥٧-٦١، متى ٨/ ١٩-٢٢.

(٣٧٤) متى ١٨/ ٢١-٢٢.

(أي: المكروهة). بِئْسَ الاسمُ الفُسُوقُ (أي اللّقب المكروه) بَعدَ الأيمانِ» (٤٩/ ٩-١١).

في الإنجيل: «إذا خطئ أخوكَ فاذهب إليه... وإنْ لم يسمع لكَ... فأَخبرِ الكنيسةَ... وإنْ لم يسمع للكنيسةِ فليكنْ عندك كالوثنيّ»[٣٧٦]. «إيّاكم أنْ تحتقروا أحداً»[٣٧٧]. «مَن غضب على أخيه استوجَب القضاء، ومَن قال لأخيه أحمق استوجبَ النّار، ومَن قال له جاهل استوجبَ حُكمَ الجماعة»[٣٧٨].

١٨. وما يدلّ على أنّ محمّداً أخذ أمثالَه من الإنجيل مباشرة، قوله الصريح: «ذَلِكَ مَثَلُهُم في الإِنْجِيلِ» (٤٨/ ٢٩). وسترى حريّة التصرّف والتفسير والمقدرة على مزجِ أمثال الإنْجيل بعضها ببعض. يقول: «ذَلكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوراةِ، وَمَثَلُهُمْ فِي الإنْجِيلِ: كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ (براعمه) فَآزَرَهُ (أعانه)، فَاسْتَغْلَظَ (أي غلظ وكبر)، فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ (أصوله)، يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الكُفَّارَ» (٤٨/ ٢٩).

يشير القرآن هنا، بدون أيّ شكٍّ، إلى مَثَلِ الزارع في لوقا ٨/ ٤-٨، وإلى مَثَلِ حبَّةِ الخردل في لوقا ١٣/ ١٨-١٩، هذه الحبّة «التي نمتْ وارتفعتْ وصارت شجرةً كبيرة»[٣٧٩].

ثمّ يتوقّف القرآن على مَثَلِ الزارع الوارد في الأنجيل، ويؤدّيه

---

(٣٧٦) متى ١٨/ ١٥.

(٣٧٧) متى ١٨/ ١٠.

(٣٧٨) متى ٥/ ٢١.

(٣٧٩) أنظر أيضاً: متى ١٣/ ٣٢، ومرقس ٤/ ٣٠-٣٢.

بتصرفٍ وحرية، ويحمل فيه أمثالاً أخرى من الأناجيل، ويبدّل في مغزاه، وأمثولته الأدبيّة، ويستعرضه كالآتي:

«مَثَلُ الّذين يُنفقون أمْوَالَهم فِي سَبيلِ اللّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أنبتَتْ سبعَ سنابلَ فِي كلِّ سُنْبُلَةٍ مَائَةُ حَبَّةٍ. واللّهُ يُضَاعِفُ... ألذي يُنفِقُ مالَه رِئَاءَ الناسِ... فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ (حجر أملس)، عَليهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ (مطر شديد)، فَتَرَكَهُ صَلْداً (صلباً أملس لا شيء عليه).. وَمَثَلُ الّذينَ يُنْفِقُونَ أمْوالَهمُ ابْتِغاءَ مَرضاةِ اللّهِ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ، أصَابَها وَابِل فَأَتَتْ أُكُلَهَا (ثمرها) ضِعْفَينِ» (٢/ ٢٦٢-٢٦٥).

أنظر في الإنجيل مَثَلَ الزّارع الذي خرج ليزرع، فوقع بعض الحبّ على الصخرة، فيبس، ووقع بعضه على أرض طيّبة فأعطى مائة[٣٨٠]. وأنظر أيضاً قولها عن الذين يُنفقون أموالهم ليراهم الناس[٣٨١]، والذين ينفقون أموالهم في سبيل اللّه[٣٨٢].

١٩. وإليك مَثَلاً آخر في القرآن (٧/ ٤٣-٥١) شبيهاً بما قاله لوقا عن الغني ولعازر (لو ١٦/ ١٩-٢٦). ولكنّه ضُرب للناس بأسلوب جديد، واستخلصت منه تعاليم مختلفة، وزيدت عليه عناصر جديدة، واختلط بمَثَلِ العذارى العشر في متى (٢٥/ ١-١٣)، وبمَثَلِ العبيد الذين ينتظرون سيّدهم متى يأتي من العرس في لوقا (١٢/ ٣٥-٤٨).

---

(٣٨٠) متى ١٣/ ٥-٨: لوقا ٨/ ٦-٨.

(٣٨١) سورة البقرة ٢/ ٢٦٤ = إنجيل متى ٦/ ١.

(٣٨٢) سورة البقرة ٢/ ٢٦١ = إنجيل متى ١٢/ ٨.

جـاء في القرآن: «وَقَـالُوا (أصـحـابُ الجنّـة): ألحمـدُ للّهِ الذي هَدانا لهذا ومَا كُنّا لِنَهـتَدي لولا أنْ هَدانا اللّه... وَنُودُوا: أنْ تِلكُمُ الجَنَّةُ أُورِثْتُمُـوها. ونَادَى أصحـابُ الجنّةِ أصحـابَ النّار: أنْ قد وَجـدْنا مَا وَعَدَنا ربُّنا حَقّاً... وَبينَهُمَـا حِجَابٌ... وَنَادَوا أصحابَ الجنّةِ: أنْ سلامٌ عليكم... ونادى أصحـابُ الأعْرافِ رجالاً (من أصحـاب النار)، قالوا: ما أغنَى عنكم جَمْـعُكُم (المال). (ونادوا أصحابَ الجنّة): ادخلوا الجنّةَ لا خوفٌ علـيكم. ونادى أصحـابُ النّارِ أصحـابَ الجَنّةِ: أنْ أَفيـضُوا عَلينـا مِنِ الماء... قـالوا (أصـحـابُ الجنّة): إنّ اللّـهَ حـرّمَـهـا علَى الكافرِين... الّذين غَرّتهم الحياةُ الدّنيا» (٧/ ٤٣-٥١).

في لوقـا (١٦/ ١٩-٢٦)، نجـد الحـوار بين الغنـي ولعـازر الموجـود عنـد إبراهيم؛ بينمـا هو في القـرآن بين أصـحـاب الجنّة وأصحـاب النار عند «أصحاب الأعـراف»؛ الذين مرّ ذكـرهم معنا في كلامنا على أحوال المَعاد

وفي مَثَلِ القـرآن أيضاً عناصر مـن مَثَلِ العذارى العـشر، عند متى (٢٥/ ١-١٣)، وعناصر من مـثل العبيد المنتظرين سـيّدهم متى يأتي من العرس (١٢/ ٣٥-٤٨).

وهناك أيضاً في لوقـا «الماء» الذي طلبه الغني في الجـحيم من لعازر الفقير في النـعيم بواسطة إبراهيم، يقابل مع «الماء» الذي طلبه أصحاب الـنّار من أصحاب الجنّة بواسطة رجال الأعـراف. ثمّ أيضاً هناك «الهلاك» في لوقـا جزاء الذين لم يعـملوا البرّ في الحيـاة الدنيا فالتـهوا بجـمع المال وكثـرة الأولاد؛ يقابله في القـرآن: «إنّ اللّه حرّم الجنّة على الذين غرّتهم الحياة الدنيا»...

٢٠. ومَـثَلٌ آخر هـو مَثَلُ «البـيت الذي بُني علـى الصخـرة»، وهو، في القرآن وفي الإنجيل، على الوجه التالي:

في القرآن: «أَفَـمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَه عَلى تَقـوَى مِنَ اللّهِ ورِضْوَانٍ خَيرٌ أم مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَه علَى شَـفَا جُرُفٍ هَارٍ (أي طرف مشرف على السقوط)، فَانْهَارَ بِهِ!.» (٩/ ١٠٩).

وفي الإنجـيل: «مَثَلُ رجلٍ عـاقل بنى بيتَـه على الصخـر... لم يسقط لأنّ أسـاسه على الصخـر... ومَثَلُ رجل جاهل بنى بيـتَه على الرمل فانهار، وكان انهيارُه شديداً»[٣٨٣].

٢١. ومَثَل الشجرة الطّيبة والشجرة الخبيثة في القرآن يقابله مَثَلُ حبةِ الخردل في متّى، على الشكل الآتي:

في القرآن: «أَلَمْ ترَ كيفَ ضـرب اللّهُ مَثَلاً: كَلِمَةً طيّبةً كـشجرةٍ طيّبةٍ أصلُهـا ثابتٌ وفرعُها في السّمـاء، تُؤتي أُكُلَهَا (ثمرها) كلَّ حينٍ بإذْنِ ربِّها... وَمَـثَلُ كلمةٍ خـبيـثةٍ كشـجرةٍ خـبيثـةٍ اجْتُـثَّتْ مِن فوقِ الأرضِ. ومَـا لها مِن قَـرارٍ. يُثَبِّتُ اللّهُ الـذين آمَنوا بالقولِ الثـابتِ في الحياة الدنيا وفي الآخِرة» (١٤/ ٢٤-٢٧).

وفي متّى: مَثَلُ حـبّة الخردل، أصغـر الحبوب، إذا زُرعت نمت وارتفعت وصـارت شجرةً كبـيرة[٣٨٤]. ألشجـرة الطيّبة تثمـر ثماراً طيّباً. وكلُّ شجرة لا تثمر ثمراً طيّبا تُجْتَثُّ»[٣٨٥]. «مَا من شجرةٍ طيبة

---

(٣٨٣) متى ٧/ ٢٤-٢٧

(٣٨٤) متى ١٣/ ٣٢.

(٣٨٥) متى ٧/ ١٧.

تُثمر ثَمراً خبيثاً، ومَا من شجرةٍ خبيثة تُثمر ثمَراً طيّباً»، هكذا «الرَّجلُ الطّيبُ مِن كنزِ قلبِه الطّيبِ يُخرِجِ ما هو طيّب»(٣٨٦).

٢٢. وَمَثَلُ العبد الأمين والعبد المملوك يُقابل، في القرآن وفي متّى، على الوجه التالي:

في القرآن: «ضَرَبَ اللّهُ مَثَلاً: عَبداً مملوكاً لا يَقدر على شيء، ومَن رَزَقْنَاه مِنّا (أي عبداً حرّاً) رِزقاً حَسَناً، فهو يُنفِقُ منه سِرّاً وَجَهْراً (أي كيف يشاء).. هل يَسْتَوُون؟» (١٦/ ٧٥).

في متّى: «ألعبد الأمين الذي يقيمه سيّده على جميع أمواله... وعبد السوء الذي يأكل ويشرب... لا يَستَوِيَان»(٣٨٧).

٢٣. وأخيراً مَثَلُ العَذَارَى العَشْر، كما ورد في إنجيل متى، دون غيره من الأناجيل، نجده بوضوح في القرآن العربي. ولكن، بدل أن يكون الحديث بين «العاقلات والجاهلات» فهو في القرآن «بين المنافقين والمنافقات والمؤمنين والمؤمنات». منافقو القرآن ومنافقاتُه، كجاهلات الإنجيل، يطلبون من المؤمنين النورَ، فيجيبهم المؤمنون والمؤمنات، كما أجابت العاقلات: إرجِعوا واطلبوا النور. ولما رجَعوا أُغلق الباب. ووقف المنافقون وراءَ الباب ينادون المؤمنين ليفتحوا لهم، وليس من سميع أو مجيب.

جاء في القرآن: «يومَ ترَى المؤمنينَ والمؤمناتِ يَسْعَى نورُهُم بين أيدِيهِم وبأَيْمَانِهِم بُشْرَاكُمُ اليومَ جنّاتٍ (أي أدخلوها)... يَومَ

---

(٣٨٦) لوقا ٦/ ٤٣.

(٣٨٧) متى ٢٤/ ٤٥-٥١.

يقولُ المنافقون والمنافقاتُ للّذين آمَنوا: انْظُرُونا (أي أمهلونا) نَقْتَبِسْ مِنْ نورِكُم. قِيلَ: ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ، فَالْتَمِسُوا نُوراً (فرجعوا. ولمّا تأخّروا) فَضُرِبَ لَهم بسُورٍ له بَابٌ... يُنَادُونَهُمْ: أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُم؟ قَالُوا: بَلَى. وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أنفسَكُمْ (بالنفاق)، وَتَرَبَّصْتُمْ (بالمؤمنين الدوائر)، وَارْتَبْتُمْ (في إيمانكم)، وَغَرَّتْكُمُ الأَمَانِيُّ (المطامع)، حَتَّى جَاء أَمْرُ اللَّهِ (أي الموت)، وَغَرَّكُمْ بِاللَّهِ الغَرُورُ (أي المجرِّب).. مَأْوَاكُمُ النَّارُ.. وَبِئْسَ المَصِيرُ» (٥٧/ ١٢-١٥).

وجاء في إنجيل متّى: قالت الجاهلات للعاقلات: أعطِينا من زيتكنّ (لإنارة المصابيح)، فأجابت العاقلات: ارجِعْنَ، وابْتَعنَ لكنّ... ثمّ جاء العريس، فدخلتِ الحكيمات... وأُغلقَ الباب. ولما رجعت الجاهلات، ووقفنَ على الباب، ينادين الحكيماتِ ليفتحنَ لهنّ... أجابهنّ العريس قائلاً: ألحقَّ أقول لكنّ إنّي لا أعرفكنّ... وبقيت الجاهلاتُ خارجاً... حيث البكاء وصريف الأسنان»[٣٨٨].

***

هذا قليل من كثير. أوردناه على سبيل الحجّة، ولم نعالجه معالجة درسٍ وتمحيص؛ ولم نتوقّف على كيفيّة اعتماد القرآن على الإنجيل، ولا على نوعيّة العلاقة بينهما... كان جلّ همّنا أن نقدّم الدليل، للمرّة الألف بعد الألف، على أنّ القرآنَ العربي ليس إلاّ قراءة عربيّة ميسّرة ومفصّلة للكتاب الأعجمي

---

(٣٨٨) متى ٢٥/ ١-١٣.

خاتمة الفصل

معظم المسلمين لا يقبلُون، بأيٍّ حالٍ، أن يكونَ القرآن داخلاً في التاريخ، أو خاضعاً للبحث في مصادره، أو أن يكون له أيُّ مصدرٍ غير اللّه مباشرة. فمحمّد نفسه، في رأيهم، ليس له فيه يد. فهو مُنْزَلٌ من «اللَّوحِ المحفوظِ» من عند اللّه.

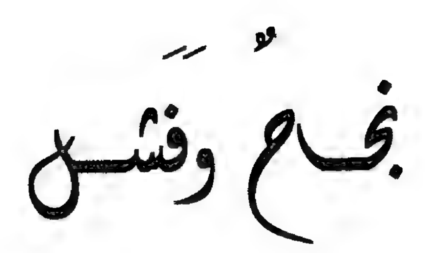
بيد أنّ الوحي، لكي يكون مفيداً لخلاص الإنسان، عليه أن ييكون مُدرَكاً ومفهوماً من البشر، حيث هم وكما هم. ويوم يُنَزِّلُه جبريلُ من دون اعتبارٍ لأحوالِ الزّمان وتطوّرالإنسان، يكون جبريل هذا قد قَضى على اللّهِ والإنسانِ معاً، والإنسانُ، إنْ سلّمَ زمامَ أمرِه لجبريل يكون قد قضى على حرّيتِه وعلى اللّه معاً

وفي مطلق الأحوال، «ليس من الممكن أن نصدّق أن القرآن كان جديداً كلّه على العرب، فلو كان كذلك لما فهموه ولا وعوه ولا آمن به بعضهم ولا ناهضه وجادل فيه بعضهم الآخر»[٣٨٩]. بهذه الخاطرة، يكون الدكتور طه حسين، عميد الأدب العربي، قضى على جبريل من قبْلِنا. ولكنّ العميد، اتُّهم بالكفر والزندقة. وما كان يدري، وهو المؤمن الفخور بإسلامِهِ، أنَّ بعضَ المؤمنين يعرفون اللّهَ كاللّه نفسه، ويدركون المشيئة الإلهيّة بتمامها، ويتكلّمون على اللّه كأنّه في متناول أيديهم.

---

(٣٨٩) د. طه حسين، في الأدب الجاهلي،دار المعارف بمصر، سنة ١٩٤٧، ط٤، ص٧٨.

ألفصل السّادس



أوّلاً – نجاح القسّ والنّبيّ

ثانياً – فشلُ القرآن العربي

ثالثاً – محمّديّون أم قُرآنيّون؟

رابعاً – إسألوا أهلَ الذِّكْر



مقدمة

أللّه مـوجود لأنّه خلقَ الإنســانَ حرّاً. لولا هذه الحرّيّـة لما كان للإنسان أن يكون للّهِ عنده أيّ اعـتبار، أو مكان في حيـاته ومجالات فكره. لهذا، يلحّ عليّ إيماني باللّه بأن يكون الإنـسان حرّاً؛ وتلحّ عليّ حـرّيّةُ الإنسان بأنْ أُفلِتَ اللّهَ من قـيود المـتديّنين لينجـو من أيديهم، ويتـحرّر مـن تصوّراتهم؛ وألـتمس من اللّـه العلي الذي به أؤمن أنْ يساعدني على أنْ لا أدّعي معرفةً أيّ شيء عنه.

على هذا الأساس بنيتُ مـا بنيتُ، وأبني ما أودّ بناءه. وهو إنّي راغبٌ باستمرار نشـدانَ الحريّة للإنسان؛ وعاملٌ، بدون كلل أو ملل، على إبعاد المتـديّنين عن اللّه لئلاّ تتحكم بهم الطمـأنينة. ويقلقني عند هؤلاء المتـديّنين اطمـئنانُهم إلى مـا يتصـوّرون، وارتيـاحُهم إلى مـا يعرفون، واستكفـاؤهم بما يملكون، وتسليمُ أمرهم إلى ذاك الرسول السـماوي الإسـمُه جـبريل، ومـا نزل به إليهم من حـقائق جـاهزة، وشرائع كاملة، ومبادئ لا تتزعزع..

ومـا يميّـزني عن هؤلاء المتـديّنين أنّني، بـسبـب قلقي، أبحث؛ وهم، بسبب طمأنينتهم، يفـرضـون عليّ اللّهَ الذي تصوّروه. أنا أبحث عن اللّه والحـقـيقـة بلا هوادة، وهمـا يفلتـان منّي كـالسـراب؛ وهم يملكون اللّه، والحـقـيقـة، والوحيَ، والشـريعـة، ومفـاتيحَ الغـيب، ومبادئ المنطق والدين، وقواعدَ السلوك كلّها.

إنّ شغفي اللاّمحدود بحريّة الإنسان وضعَني في موقعٍ صعب مع أهل الإيمان والأديان. ومع هذا، دافعتُ وأدافع، في موقعي الصعب هذا، عن كرامة الإنسان وحرّيته، دون همٍّ الدفاع عن اللّه وحقوقه. فاللّه، في علمي، لا يحتاج إنساناً للدفاع عنه؛ بل الإنسان هو الذي يحتاج إلى اللّه لكي يدافع عنه.

في هذا المنطق، ومن هذا المنطلق، رحتُ أبحث في اللّه والوحي والتنزيل والنبوّة، وجلتُ في معارج الأنبياء والأديان والشرائع المنزَلة. وقرعتُ أبواب السماء والأرض، دون وجلٍ من مصيرٍ أراده لي عميانُ اللّه والسماء.

من هذا المنطلق، أيضاً، تأكّدتُ أنّ اللّهَ، إنْ شاءَ الكلامَ مع البشر، يستعمل كلامَ البشر .وعلى جبريل، والحالُ هذه، أن يتخلّى عن مهمّته كوسيطٍ بين الأرض والبشر. لهذا، وجدتُ القسَّ وراء النبيّ، والإنجيلَ وراء القرآن، والنّصرانيّةَ وراء الإسلام، والكتابيِّينَ وراء الأمِّيّين، والّذين يقرأون الكتابَ «مِنْ قَبْلُ» وراء الذين لا يعلمونَه إلاّ أماني.

من هذا المنطلق، أخيراً، عمدتُ إلى البحث في الحقّ الذي قضى عليّ بألاّ أدّعي الحصول عليه إلاّ بعد اعتماد المصادر في السَّير إليه، وتوخّيت الأمانة في تدوين الأخبار، والصدق في نسبة الأقوال، والصراحة في الاستنتاج... وما سوى ذلك لا يُغريني في الدنيا شيء. ألحقيقة ذاتها لا تعنيني بقدر ما يعنيني البحث عنها. وهذا ما يجنّبني مخاطر الطمأنينة والادّعاء.

لقد أدّى بي البحثُ إلى الكلام على مقاصد القسّ، وعلى مهمّته الصعبة التي قام بها، وعلى اختياره محمداً خليفةً له على جماعة مكّة. لقد نجح القسّ في ذلك نجاحاً أوّلاً، ونجاحه الثاني كان من نجاح تلميذه. ونجح التلميذ في ما أدّى من رسالة. فكان نجاحٌ ثالث. ومآثر هذا النجاح يدلُّ عليه ذاك الأثر العظيم الذي تركه كلا القسّ والنبيّ.

بيد أنّ هذا الأثر العظيم لازمه فشلٌ ذريع. والفشل الذريع حدث بالعرض، أي بسبب العصبيّة القبليّة المتأصّلة في نفوسِ التّابعين. وهذه تعود، لا إلى سوء استراتيجيّة القسّ والنبيّ، بل إلى جهل المتديّنين حقيقة الرسالة. هؤلاء التابعون «نسخوا» ما هو روحانيّ وسماويّ بما هو تشريعيّ وأرضيّ؛ «نسخوا» قرآنَ مكّة بقرآن المدينة، فبدّلوا في الدعوة، وبدّلوا في الكتاب. وأخذوا ما كان موقّتاً في المدينة على أنّه أبديّاً؛ وما كان روحانيّاً في مكّة على أنّه «نُسخ».

وساء، بهذا، كلّ شيء. وحدث الفشل. وسبب الفشل كلّه جهلٌ مطبق بحقيقة «اللّوح المحفوظ» الذي أناطه المتديّنون باللّه مباشرة، وتخطّوا بذلك التاريخ ومعطياته وأفعاله في العالم.

ولنا، اليومَ وكلّ يومٍ، أن نسألَ عن أصلِ كلِّ شيء، لئلاّ يبقى كلُّ شيء معلّقاً بالهواء، ومرتبطاً بعمد السماء. فإذا وجدنا هذا الأصل نكون قد وجدنا ما نبحث عنه. ومَن لا يعلم فليعلم أنّ الأصولَ المتجذِّرةَ في التاريخ إنّما هي أثبتُ من تلك الإلهامات والإيحاءات والنبوّات والكتب والأديان الساقطة علينا من فوق.

أوّلاً - نجاحُ القسّ والنّبيّ

أوّل نجاح حقّـقه قسٌّ مكّة، كمـا قلنا ونردّد، كان في اختـياره محمـداً، وفي تزويجه ايّاه من «سيّدة نســاء قريش»، وتدريبه له في غـار حِراء على الخـلوة والتأمل والتـفكّر باللّه، وتـثقـيـفه بالتّـوراة والإنجيل، وتفقـيهه بناموسَي مـوسَى وعيسَى، وتعليمـه ما لم يكن يعلم، ومناصـرته ومؤازرته في مـهمّـاته الصّـعبة، وأخـيراً إعـلانه مسؤولاً وقائداً، وتـعيينه خليفة له من بعده على جـماعة مكّة... فكان محمّد «أوّلَ المسلمين»، كما كان وَرَقة «رئيس النصارى».

وراح محـمّد، بعد الإسـتعداد التّـام على يدي «خبـير حكيم»، ينطلق في مـهـمّتـه الجديدة، ويهـتمّ بهـا، وينصـرف إليهـا. فكانتْ مسؤوليّتُه، كمسؤوليّة أيِّ مسؤولٍ، تقوم على ما يلي :

تعليم الناس الكتـاب والحكمة[١]، وتزكيـتهم من خطاياهم[٢]، وتلاوة آيات اللّه عليهم[٣]، وتذكيـرهم بقَصص الأنبيـاء الأقدمين[٤]، وتبـشيـر المحسنين بالجنّـة، وإنذار المنافقين بعـذاب النار[٥]، وتأليف

---

(١) البقرة ٢/١٥١ و١٢٩؛ آل عمران ٣/١٦٤؛ الجمعة ٦٢/٢ ؛ الأنعام ٦/٩١

(٢) يضاف الى المراجع السابقة: س. الرعـد ١٣/٣٠ ؛ القصص ٢٨/٤٥ ؛ آل عـمران ٣/١٠٨ ؛ الطلاق ٦٥/١١.

(٣) المائدة ٥/٢٧ ؛ الأعـراف ٧/١٧٥ ؛ يونس ١٠/٧١ ؛ الكهف ١٨/٢٧ ؛ الشـعـراء ٢٦/٦٩ ؛ الأنفال ٨/٣١...

(٤) ذكر مثلاً قصص الأنبياء نوح وابراهيم وموسي وادريس وأيوب وأليشع...

القلوب بين الناس[٦]، وتوحيد الشيع في أمّة، أو جماعة دينيّة، واحدة[٧]، وسنّ شرائع اجتماعيّة تناسب المجتمع المكّي المتصدّع: من تحريم الربى[٨]، وقطع يد السارق (٥/ ٣)، ومنع قتل الأولاد[٩]، ووأد البنات (٨١/ ٨)، وجلد الزاني والزانية (٢٤/ ٢و٤)، والاهتمام بإطعام الجياع، وسدّ عوز الفقراء، وإيواء أبناء السبيل، والعناية الفائقة بالأرامل واليتامى، وقد كان منهم[١٠]...

وتقوم مهمّات محمّد الرسوليّة أيضاً على وضع الطقوس وللفروض، كالغسل والوضوء قبل الصّلاة وبعد كلِّ عمل نجس[١١]، وفرضِ الحجّ إلى بيت اللّه[١٢]، ووجوب صيام رمضان[١٣]، وإيتاء الزّكاة[١٤]، ومنع أكل لحم الخنزير، وما أُهلّ لغير اللّه[١٥]، وتحريم الخمرة[١٦]... وغير ذلك ممّا يهتمّ به كلّ رجلِ دين يعي مسؤوليّاتِه.

---

(٥) سورة البقرة ٢/ ٢٥ و١٥٥ و٢٢٤ ؛ ألنساء ٤/ ١٣٨؛ ألتوبة ٩/ ٢١ و١١٢؛ يونس ١٠/ ٢ و٨٧؛ ألحجّ ٢٢/ ٣٧...

(٦) آل عمران ٣/ ١٠٣؛ الأنفال ٨/ ٦٣؛ ألتوبة ٩/ ٦٠ الخ...

(٧) ألأنعام ٦/ ١٥٩؛ ألروم ٣٠/ ٣٢ ؛ ألزخرف ٤٣/ ٦٥؛ ألأحزاب ٣٣/ ٢٢؛ مريم ١٩/ ٣٧؛ ألرعد ١٣/ ٣٦ الخ..

(٨) ألبقرة ٢/ ٢٧٥ و٢٧٦ و٢٧٨ ؛ آل عمران ٣/ ١٣٠؛ ألنساء ٤/ ١٦١.

(٩) ألأنعام ٦/ ١٥١ و١٣٧ و١٤٠؛ الإسراء ١٧/ ٣١؛ ألمتحنة ٦٠/ ١٢...

(١٠) بسورة الإنسان ٧٦/ ٨؛ سورة الحج ٢٢/ ٢٨...

(١١) سورة المائدة ٥/ ٦؛ سورة النساء ٤/ ٤٣...

(١٢) سورة البقرة ٢/ ١٩٦؛ سورة آل عمران ٣/ ٩٧...

(١٣) سورة البقرة٢/ ١٨٣ و١٨٧...

(١٤) سورة البقرة ٢/ ٤٣... (٣٢ مرة)

(١٥) سورة المائدة ٥/ ٣؛ سورة الأنعام ٦/ ١٤٥ و١٧٣.

(١٦) سورة البقرة ٢/ ٢١٩؛ سورة المائدة ٥/ ٩٠ و٩١.

ومـا كان نجـاحُ النبيّ غـيـر منتظر، فـالقسّ، قـبله، نجح في رسالتـه بين العرب ومع «الحمس من قـريش»، ومع مَن تحنَّث منهم في غار حراء، كـما نجح في اختياره مـحمّداً، وقد عرفـه منذ صغره، وهو في بيت جَـدّه عبـد المطّلب وكـفالة عـمِّـه إبي طالب، ودرّبه على محـبة الخلوة والصـلاة وقراءة الكتـب المقدّسة، وحـثَّه على الـتأمل بأخبـار الأنبياء والهذيذ بالزَّبور، ومـرّسه جيّداً على نجـدة البائسين والأذلّة ومساعدة الفقراء.. فمن الطـبيعي، إذاً، أن يُقال كما قيل: «ولمّا توفِّي القسُّ فَتَرَ الوحيُ».



أمّا **النجاح الثاني** فقد تحقّق بنقل الإنجـيلِ العبراني إلى لسانٍ عربيٍّ مـبين. وسمّي النقل قـرآناً. والقرآن، لغـةً، يعني قراءَةً عـربيَّةً للكتاب العـبراني؛ أو فلننقلْ قولاً صـريحاً واضحاً: إنّ القـرآن العربي هو هو الإنجـيل الـعـربي. هذا الإنجـيل، الذي تحـقّق عـلى يد القسِّ والنبيّ، يقـوم على «جـمع» الكتب المتـداولة عند الشِّيَـع النصرانيّـة، وعلى جعلهـا كتـاباً واحداً. وقد شـهد القرآنُ نفسـُه على هذه المهـمّة المَيَّزة، فـقال: «إنَّا عَلَينَا جَمْعُه وَقُرْآنُه» (١٧/٧٥)، وذلك بعـدما كان كتـباً متفـرّقة ومخـتلفة. وهذا ليس من نوافل القول، لأنّ من مـعاني لفظة «قرآن» في اللّغة: «القران»، أي «الجمع».

إنّ «جـمع» الكتب وتوحـيـدهـا، همـا، بدون شكٍّ، أسـاس كلّ رسالة ناجحـة. لهذا جعل كلٌّ من القسّ والنّبيّ القرآنَ الـعربي «كلمة سـواء»، فيـها يكون الناسُ سَـواء بسـواء. قال: «قُلْ يَا أَهْلَ الكِتَـابِ! تَعَالَوا إلى كَلِمَةٍ سَـوَاء» (٣/ ٦٤)، «الذي جعلناه للناس سواء» (٢٢/

٢٥)، فأصـبحـوا «هم فيـه سواء» (١٦/ ٧١)، أو «أنتـم فيـه سواء» (٣٠/ ٢٨)، في حين أنّ «الّذين أَخَذُوا بـجِزْءٍ مِنَ الكتابِ هم كـافرون، وَيَرِدُّونَ النّاسَ بعدَ إيمانِهم كَافِـرِين» (٣/ ١٠٠)، لذلك يطمئننا القسّ والنبيّ بأنّهما لم يُسقطا من الكتاب شيئاً هاماً، ولم يفرّطا فيه بشيء: «مَا فَرَّطنَا فِي الكتابِ من شيء» (٦/ ٣٨).

ومن المعـروف في تاريخ الكنيسـة، أنّه كـان، في زمن القسّ والنبيّ، كتبٌ عديدة ، وكان لكلٍّ شيعة من شِيعِ النصارى كتاب، ولكلّ قرية أو جـماعة منهم كـتاب، وكلٌّ يدعو إلى كـتابه. ويشـهـد «القرآن العربي» على تعدّد الكتب بقوله: «وَمَـا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إلاّ وَلَهَا كِتابٌ» (١٥/ ٤)، و«كُلُّ أُمَّةٍ تُدعَى إلى كِـتابِهـا» (٤٥/ ٢٨)، كما يشـهد على وجود كـتب سابقـة عليه[١٧]، وعلى أنّ كلّ فريقٍ مـن النّاس يأخذ من الكتاب نصيباً[١٨]، وعلى أنّ أفرقاءَ آخرين «يلوُون ألسنَتَهُم بالكتابِ» (٣/ ٧٨)، وآخرين «يكتُـمُون مَا فـيه ويَنبِـذُونَه وَراءَ ظهورِهم» (٣/ ١٨٧)، وآخرين يصدّون عنه (٤/ ٥٥)...

من أجل هذا كان على القسّ والنـبيّ أن يوحِّداالكتاب، ليتـحقّق لهما النجاح المرتجى. وبالفعل قالها «القرآن العربي» وأمَرَ بذلك: «ادْعُ واستـقِمْ كمـا أُمِرْتَ. وَلا تَتَّـبِع أَهْوَاءَهُم. وَقُلْ: آمَنْتُ بمَا أَنْزَلَ اللّهُ مِن كِتَـابٍ، وَأُمِرْتُ لأَعْدِلَ بَينَكُمْ.. أَللّهُ يَجْـمَعُ بَينَنَا. وَإليهِ المَصِـيرُ» (٤٢/ ١٥). وشهد كلٌّ مِن القسّ والنبيّ على كتابهما العربي بأنّهما يَجمعان

---

(١٧) في أكثر من سبعين مرّة يشـهد القـرآن على وجود كتب سابقة عليه. أنظر ترجمة القرآن في الفرنسية لـ: «د.ماسون» حيث الشواهد على ذلك.

(١٨) سورة النساء ٤/ ٤٤ و٥١ ؛ آل عمران ٣/ ٢٣ ؛ الأعراف ٧/ ٣٧.

فيه ما في الكتبِ السابقة، بل هما يَسْتَنْسِخَانِها: «وَهَذا كِتَابُنا. يَنْطِقُ عَلَيكُمْ بِالحَقِّ. إنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ» (٤٥/ ٢٩)، وبأنّ ما فيه كان موجوداً سابقاً: «إنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الأُولَى» (٨٧/ ١٨)، «وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الأَوَّلِينَ» (٢٦/ ١٩٦).

والنتيجة التي تحقّقت فعلاً على يد القسّ والنبيّ هي أنّ «القرآن العربي» هو أوّلاً الترجمة المفصّلة للكتاب العبراني، التي يسّرها القسّ للنبيِّ بلسان عربي مبين، وتحدّى ببلاغتِها شعراءَ قريش وبلغاءهم، و«تصرّف» بها بحسب مقتضى الحال، ولكن من دون تفريطٍ أو إهمال؛ وثانياً هو الكتاب الذي «اسْتَنْسَخَ» الكتبَ السابقة، وأخذَ من «الصحف الأُولى»، و«جمع» بينها، ووحّد تعاليمَها، بعدما كانت متفرقّة بين شيع النصارى.

وهو نجاحٌ، في نظرنا، خطير؛ لأنه تحقّق؛ في حين أنّ محاولات أخرى حدثت في تاريخ الكنيسة، ولم تحقِّق نجاحاً. مثال ذلك عندما جمع «تاسيان» الأناجيل الرسميّة الأربعة في كتاب واحد سمّاه «الدياتيسّرون»، ولم يلقَ نجاحاً.

***

أمّا **النجاح الثالث** الذي تحقَّق على يد القسّ والنبيّ فمردّه الى «جَمْعٍ» آخر، هو جمْع الفِرَق والشِّيَع والأحزاب النصرانيّة المنتشرة في مكّة والحجاز آنذاك، وجعْلِها ديناً واحداً وأمّةً واحدةً. وما «الإسلام»، في حقيقته وجوهره، إلاّ دين «التوحيد»، في ثلاثة معانٍ: «توحيد الكتاب»، و«توحيد الشِّيع»، و«توحيد اللّه».

١. أمّا «توحيد اللّه» فواضح في «القرآن العربي»، وفي شهادة الآخِذين به، وهو: «أنْ لا إلَه إلاّ اللّه». وتتعدّد صيغتها. وليس في «القرآن العربي» أثبت منها. وهي تقوم على رفض الشرك والمشركين؛ ورفضِ كلّ بحثٍ في طبيعة اللّه؛ ورفض كلّ تعدّدية في ذات اللّه. وما قوله «لا إلَهَ إلاّ اللّه»، و«قُلْ هُوَ اللّهُ أَحَد. اللّهُ الصَّمَد. لَمْ يَلِدْ ولَمْ يُولَد. ولَمْ يكُنْ لَهُ كُفُواً أحَد» إلاّ لإبعاد كلّ شبهة أو احتمالٍ لكلّ تعدّديّةٍ في ذات اللّه. وما تكفيره الواضح للتثليث المسيحي إلاّ من قبيل التشديد على التوحيد المطلق للّه. وما رفضُه الجدل في طبيعتَي المسيح، وقتله وصلبه إلاّ لحسم كلّ خلافٍ بين أتباعه المنقسمين فيما بينهم بسبب ذلك. وما إنكار شفاعة القدّيسين والتوسّط إلى اللّه بهم وبصورهم وتماثيلهم، إلاّ في سبيل اللّجوء إلى اللّه وإلى اللّه وحده من دون وسيط.

لقد عرف القسّ والنبيُّ أنّ خلافات المسيحيّين فيما بينهم، وانقسامَهم إلى نساطرة ويعاقبة وملكانيّين، وخلافات النّصارى، وانقسامَهم إلى إبيونيّين وقيرنثيّين وألكسائيّين.. كانت بسبب الجدل اللاّهوتي حول طبيعة المسيح وأسرار الخلاص... فمن أجل هذا تجنّب القسُّ والنبيُّ أن يخوضا مع الخائضين: «وإذَا رأيتَ الّذينَ يَخُوضُونَ في آياتِنا فأعرضْ عنهم»[١٩]. فلزما الاعتدالَ في كلّ شيء، ليقضيا على كلّ انقسامٍ واختلاف.

٢. يثبت هذه النزعة التوحيديّة في اللّه نزعة توحيديّة ثانية دعا إليها كلٌّ من القسِّ والنبيِّ، يكون فيها الناس «أمة واحدة»: «هذه

---

(١٩) سورة الأنعام ٦/٦٨؛ أنظر سورة المدّثّر ٧٤/٤٥...

أُمَّتُكُمّ أمّةٌ واحدة»[٢٠]، «أمّة مقتصدة» في عقيدتها (٥/ ٦٦)، جعلها اللّه «أمّةً وسطاً» (٢/ ١٤٣) بين أمم متطرّفة في تعاليمها وطقوسها وعباداتها.

وما «الإسلام» في مفهومه القرآني الصحيح إلاّ ذاك الدين الذي لا يفرّق بين نبيٍّ ونبيٍّ، أو بين كتابٍ وكتاب. قال وردّد القول: «لا نُفَرِّقُ بينَ أحدٍ منهمْ ونَحْنُ له مُسلمون»[٢١]؛ وقال: «وَالمؤمنون، كلٌّ آمَنَ باللّهِ وملائكتِه وكتبِه، ورُسلِه، لا نُفَرِّقُ بَينَ أَحَدٍ منْ رُسُلِه»[٢٢]. وقال: «إنّ الّذينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ، وكَانُوا شِيَعاً، لَستَ منْهُم في شَيْءٍ» (٦/ ١٥٩)؛ وعلى أتباعه أن لا يفرِّقوا: «لا تَكُونُوا من المُشْرِكينَ من الّذينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وكانُوا شِيعاً» (٣٠/ ٣٢). والنصيحة الثمينة: «أَقيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ» (٤٢/ ١٣)، «وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللّهِ جَميعاً ولا تَفَرَّقُوا» (٣/ ١٠٣).

هذا ويعترف «القرآن العربي» بتعدّد الأمم والشِّيع والأديان، وباختلافاتها، ولَعْنِ بعضها بعضاً: «كُلّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أخْتَها» (٧/ ٣٨)، أو «مَا كَانَ الناسُ إلاّ أمّةً واحدةً فَاختَلَفُوا» (١٠/ ١٩). وسبب خلافهم انتماء كلٍّ منهم إلى نبيٍّ أو رسول خاصٍّ بكلّ أمّة: «كانَ الناسُ أمَّةً واحدةً فبعثَ اللّهُ النبيّين» (٢/ ٢١٣)، «وَهَمَّتْ كلُّ أمّةٍ برسُولِهِمْ ليَأخذوه، وجادلُوا بالباطل» (٤٠/ ٥).

---

(٢٠) سورة المؤمنون ٢٣/ ٥٢؛ سورة الأنبياء ٢١/ ٩٢.

(٢١) سورة البقرة ٢/ ١٣٦؛ آل عمران ٣/ ٨٤.

(٢٢) سورة البقرة ٢/ ٢٨٥؛ سورة النساء ٤/ ١٥٢.

كما يعترف بكثرة أحـزاب النصارى وبخلافاتها، و«كُلُّ حِزبٍ بما لَدَيهِمْ فَرِحُونَ»[٢٣]، و«من الأحزابِ مَن يُنكرُ بعـضَه» (١٣/٣٦). ولا يعجب من كـثرة الأحزاب هذه لأنّ اللّهَ كان قد أعلمـهم بوجودها: «ولما رأى المؤمنون (من العرب) الأحزابَ (عـند النصارى) قَالوا: هذا مـا وعدنا اللّهُ ورسـولُه» (٣٣/٢). ويصف تناقـضهم في فـريقَين: «فَرِيقٌ منهم يَسمَعون كلام اللّه» (٢/ ٧٥)، وفريق يخلّ بالعهد وينبذ كتـاب اللّه، هؤلاء «كُلَّمَا عَاهَدُوا عَـهْداً نَبَذَهُ فـريق» (٢/ ١٠٠). وقال أيضاً: «نَبَـذَ فَرِيقٌ مِنَ الّذين أُوتُوا الكِتَـابَ كِتابَ الـلّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ» (٢/١٠١)، وقال كـذلك: «فَرِيقـاً مِنهُم يكتُمُونَ الحَقَّ وَهُـم يَعلَمُون» (٢/١٤٦)، و«فَريقاً يَلوُونَ ألسِنَتَهُم بالكِتَاب» (٣/٧٨)، وفريق يصدّ عنه (٤/٥٥)، وآخر يصدف ويعرض (١٥٧٦)...

ومن الطبيعي أن تكون مقوّمـات الدّعوة الجديدة، التي جاء بها القسُّ والنّبيّ، عدم التـفرقة بين النّاس؛ وذلك بالاعـتدال في المواقف، والاقـتصـاد في العـقائد، والتـخـفيف في الشـرائع، والتـوسّط بين المتناقضات، والابتعاد عن الغلوّ وعن الإنكار سواء بسواء... لهذا كان أتباعُ محمّد «أمّةً وَسَطاً» (٢/١٤٣)، و«أمّة مقتصدة» (٥/٦٦). فهم لا يَغلُون فـي الدين[٢٤]، ولا يُنكـرون أو يكفـرون؛ بل هم يَعـدلون بالحقّ[٢٥]، ويُقيمون «دين الحقّ»[٢٦]، ويتبعون «ديـن القيِّمة» (٩٨/

(٢٣) سورة المؤمنون ٢٣/ ٥٣ ؛ سورة الرّوم ٣٠/ ٣٢.

(٢٤) سورة النساء ٤/ ١٧٠ ؛ المائدة ٥/ ٧٧.

(٢٥) سورة الأعراف ٧/ ١٥٩ و١٨١.

(٢٦) سورة التوبة ٩/ ٢٩ و٣٣؛ الفتح ٤٨/ ٢٨ ؛ النور ٢٤/ ٢٥...

٥)، أو «الدِّين القيِّم»[٢٧]. وبهذا «يكونُ الدِّينُ كلُّه للّهِ» (٨/ ٣٩).

ومن غريب الدَّعوة إلى الإسلام أنّ النّبيَّ محمداً والقسّ ورقة لم يَرِدّا العربَ عن إيمانهم السَّابق، ولم يكفِّراهم بما كانوا يؤمنون به؛ بل كان همُّهما أنْ ينضمّ النّاسُ إلى الإسلام، ويجتمعوا تحت رايته، ويَأخُذوا بعقيدته التوحيديّة، ويُؤمنوا بإيمانه، ويُقيموا كتابَه كما هم يُقيمون التّوراة والإنجيل: «قَالَتِ الأعْرَابُ: آمَنَّا. قُلْ: لَمْ تُؤْمِنُوا. وَلَكِنْ، قُولُوا: أَسْلَمْنَا» (٩/ ٤/ ١٤). فالإيمان قولٌ وعملٌ، وهو، التزامٌ شخصيٌّ باطنيٌّ؛ فيما الإسلام قولٌ فقط، وانتماء إلى جماعة، وموقفٌ ظاهر.

***

هكذا تحقّق النّجاح المنشود. ولم يكن ليتحقّق لولا وجود قسٍّ «خبير حكيم»، عارفٍ بالخلافات والأحزاب؛ ولولا نبيٍّ تلميذٍ بارعٍ كمّلَ مهمّةَ معلِّمه. وسرّ النّجاح اقتصر على ثلاثة: ألاعتراف بإلهٍ واحدٍ، وبكتابٍ واحدٍ، وبأمّةٍ واحدة...وسوى ذلك ليس من الاسلام في شيء، لأنّ «الّذينَ فَرّقُوا دينَهم، وَكَانُوا شِيَعاً لَسْتَ مِنْهُمْ (يا محمّد) في شَيْء» (٦/ ١٥٩). بهذا النجاح العظيم يكون «الدين عند اللّه الإسلام» (٣/ ١٩). و«مَن يبتغِ غيرَ الإسلام ديناً فلن يُقبَل منه» (٣/ ٨٥). وهو رضوان من اللّه كبير أن يتمّ نعمته في اعتناق الإسلام: «أتممْتُ عليكم نعمَتِي وَرَضِيتُ لكُمُ الإسلامَ دِيناً» (٥/ ٣).

(٢٧) الروم ٣٠/ ٣٠ و٤٣؛ الأنعام ٦/ ١٦١؛ يوسف ١٢/ ٤٠؛ التوبة ٩/ ٣٦...

ثانياً - فشَلُ القرآن

لحق بالنجاح الكبير فشلٌ ذريع، وأسرع الفشلُ كما أسرع النجاح. ولم يكن بالحسبان أن يكون ما كان: مات النبيُّ، ورجعتِ العصبيّة القبليّة تتحكّم بالأحزاب التي خشي منها في حياته. ولكنّها رجعتْ بأشكالٍ جديدة، وحول مسائل جديدة:

ما أن توفي محمّد حتّى اختلف أتباعُه فيما بينهم: «فزعم قوم أنّه لم يمت. وإنّما أراد اللّهُ رفعَه إليه كما رَفع عيسى ابنَ مريم... ثمّ اختلفوا بعد ذلك في موضع دفنِه، فأراد أهلُ مكّة ردَّه إلى مكّة... وأراد أهلُ المدينة دفنَه بها... وقال آخرون بنقلِه إلى أرض القدس ودفنِه ببيت المقدس»(٣٠).

ثم اختلفوا في مَن يكون الخليفة بعده «فافترقتِ الأمّةُ ثلاثَ فِرَق: فرقة منها سمِّيتْ شيعة، وهم شيعة علي بن أبي طالب، ومنهم افترقتْ صفوفُ الشيعة كلُّها؛ وفرقة ادَّعتِ الأمرةَ والسلطان، وهم الأنصار، وَدَعَوا إلى عقد الأمر لسعد بنِ عبادة الخزرجي؛ وفرقة مالتْ إلى أبي بكر... وتنازَعُوا»(٣١).

وتوالت الخلافات. واشتدّت العصبيّات. ونالت من الدِّين ومعتقداته. وكلٌّ فرقة تسلّحتْ بالسيف كما تسلّحتْ بالآيات القرآنيّة

(٣٠) البغدادي كتاب الفَرق بين الفِرَق، عدد ١٤-١٩، ص ١٤-١٦.

(٣١) النوبختي، كتاب فرق الشيعة، صفحة ٢-٨.

والأحاديث النبويّة. فكانت النتيجة أنْ تعدّدتِ الفِرَق مجدَّداً، حتّى فاقت السبعين، واتّسع بينَها الشقاق. وتأصّلت العداوات. واستحكمت البغضاء، حتى تحوّل الجهادُ، الذي أوصى به النبيُّ جهاداً على المشركين، إلى حربٍ ضروسٍ بين المسلمين أنفسهم...

وامتدّ الخلاف وتشعّب. واتّسعتْ دائرته حتى شمل شعوباً كثيرة زحف إليها أتباعُ النبيّ، وبلداناً عظيمة أخضعوها لحكمهم، وأدياناً أخرى، وافقتْ عقيدتَهم أم لم توافق، ذلّلوا أصحَابَها. ولم يميّزِ الفاتحون بينَ نصارى ويهود، ولا بين مجوسٍ وروم، ولا بين مؤمن وملحد...

إنّه الجهاد في سبيل «مغانم كثيرة يأخذونها» (٤٨/ ١٩)، قد وَعَدَهم اللّهُ بها (٤٨/ ٢٠)، أكثرَ ممّا هو «في سبيل اللّه»؛ ولو كان في سبيل اللّه لميَّزوا بين يهوديٍّ ظالم ونصرانيٍّ حنيف، وبين مسيحيٍّ يَغلو في دينِه ونصرانيٍّ على «دين القيِّمة»، وبين فتوحات لأجل نشر الإسلام وفتوحات في سبيل الجاه والمال والنفوذ السياسي...

في غمرة الفتوحات والحروب تولّى الخليفةُ عثمان بن عفّان جَمْعَ القرآن من صدور الصحابة. ولم تكن الأحوال السياسيّة، الداخليّة منها والخارجيّة، بمنأى عن عمليّة الـ «جمْع» هذه. فزيدتْ، في ما جمعَه عثمان في «مصحفه»، آيات؛ وحُذفتْ آيات؛ وبدِّلتْ آيات؛ وأُقحِمتْ آيات؛ وذلك تبعاً لعواطف المختلفين المتقاتلين بعضهم مع بعض؛ وتبعاً لمواقف الفاتحين تجاه مَن انهزموا أمامهم، أو قاوموا توسّعهم، أو رفضوا سياستهم؛ أو عاندوا إسلامَهم...

فبتَّ ترى في «مصحف عثمـان» مواقفَ متناقضة، لم تكن في «كتاب القـسِّ والنبيِّ»؛ وتشريعاً جديداً لم يكن في «القـرآن العربي»، وعاداتٍ وتقـاليدَ مستلهَـمةً من الأوضاع المستـجدّة. ويَعنينا من هذا التناقض الفـادح بين «مصحف عـثمـان» و«كتاب القسّ والـنّبيّ»، ما يتعلّق بمفهوم النّصارى ومعتـقداتهم. فهو المحكّ للفصل بين الإسلام والمسيحيّة، أو لقبول بعضهما بعضاً قبولاً متبادَلاً.

١ – موقف «القرآن العربيّ» من النّصارى

ألنصـارى في قـرآن القسّ والنـبيّ هم المسلمـون حـقـاً قـبل المسلمين العـرب. كانوا للنبيِّ قدوةً ومـثالاً، يَهتـدي بهديهم. يتـقرّب منهم. ينتـسب إليهم. يسـتشهـد بهم. يمدح مودّتهم. يُجِلّ رهـبانَهم. يؤمن بألِهـهم. يؤيّد رسالتـهم. يستـرشد بآرائهم. يسـتشيـرهم في صحّـة تعاليمـه.. وفي كتابه عنهـم أقوال مأثورة سـجّل التاريخُ لهم دورَهم في حياة محمّد وهدايته ورسالته بين قبائل العرب.

قال فـيهم: «أولئك الّذين هَدَى اللّهُ فَـبِهُدَاهُمْ اقْـتَدِه» (٦/ ٩٠)، وأيضاً: «مِن قَـومِ موسى أُمَّةٌ يَهـدُونَ بالحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُون» (٧/ ١٥٦ و١٨١). وعندمـا يشكّ النبيُّ في صحّـة كتـابه يسأل الذين يـقرأون الكتاب من قبل (١٠/ ٩٤)، ويُحثّ تابعِـيه إلى السؤال نفسه ليتـثّبتوا ممّا هم عليه: «إسألوا أهلَ الذِّكْرِ إنْ كنتم لا تَعلَمون»[٣٢]. بسؤالهم هذا يعلمون أين هو الحقّ، وكيف هو الصراط المستـقيم: «فستعلمون من أصحاب الصراط السوي ومَن اهتدى» (٢٠/ ١٣٥).

---

(٣٢) سورة النحل ١٦/ ٤٣؛ سورة الأنبياء ٢١/ ٧.

والنصارى، من جهتهم، يشهدون على صحة ما أتى به النبيّ: «الرّاسِخُونَ في العِلمِ منهم، والمؤمنون يؤمنون بما أُنْزِلَ إليكَ» (٤/ ١٦٢)، ويَجهَرون علناً: «آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا» (٣/٧)، ويَخِرُّونَ ساجدينَ: «إنّ الّذينَ أُوتُوا العِلمَ مِنْ قَبْلِهِ، إذا يُتلَى عَلَيهِمْ يَخِرُّونَ للأذْقَانِ سُجَّداً» (١٠٧/١٧)؛ لأنّهم يعلمون «أنَّه الحقُّ مِن رَبِّكَ فَيُؤمِنُوا بِهِ» (٢٢/ ١٤). وهم يشهدون، مع اللّهِ والملائكة، على أنّ القرآن، في صيغته العربيّة هو، أيضاً، من عند اللّه (٣/ ١٨)؛ من أجل هذا يطلب محمّد شهادتهم ويكتفي بها: «كفى باللّهِ شَهِيداً بَيني وبَينَكُم وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الكتابِ» (٤٣/١٣).

أضف إلى ذلك موقف «قرآن القسِّ والنبيِّ» مِن رهبان النّصارى وقسّيسيهِم؛ فهم «التّائبون العَابدون الحَامدون السَّائحون الراكعون» (٩/ ١١٢)، «تراهم رُكَّعاً سُجّداً يَبتغون فَضلاً مِنَ اللّهِ ورضواناً» (٤٨/ ٢٩)؛ «يقيمون الصَّلاةَ، ويُؤتُون الزَّكاةَ وَهُم رَاكِعُون» (٥/ ٥٥)؛ «يَتلُونَ آياتِ اللّهِ آنَاءَ اللَّيلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ» (٣/ ١١٣)؛ ترى «سِيْمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ» (٤٨/ ٢٩)؛ وإذا سَمِعُوا القُرْآنَ يُرَتَّل «يَخِرُّونَ لِلأذقَانِ سُجَّداً» (١٠٧/١٧). هؤلاء، هم وأمّتهم، «لا يَسْتَكْبِرُونَ» (٥/ ٨٢).

٢ – موقف «مصحف عثمان» من النّصارى

ما ورد في «مصحف عثمان» عن النّصارى يختلف عمّا ورد في «كتاب القسّ والنبيّ» اختلافاً كبيراً. في «مصحف عثمان»، نرى النصارى كاليهود ظالمين، وكالوثنيّين مشركين، وكالمسيّحيين يَغلُون في الدِّين. وهم، بالتالي، أعداءُ «الفاتِحِين»، تُفرض عليهم الجزية

فَـرضاً، ويعطونهـا «عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَـاغِرُونَ» (٩/٢٩)، خـاضعـون أذلاّء، ويتوجَّبُ على أتـباع «مصـحف عثمـان» الجهادُ ضـدّهم، فهم كفّارٌ منافقون ومأواهم جهنّم وبِئسَ المصير[٣٣].

واخـتلـط الأمـر على «الفـاتحين»، فـخلطوا بين الـنَّصـارى والمسيحيّين سواء بسواء، فاتَّهـموا الفريقَين بإيمانهم وباعتقادهم أنَّ عيـسى وُلِدَ مِنَ اللّه[٣٤]، وأنَّ «اللّهَ ثالثُ ثلاثة» (٥/٧٣). واتَّهـموهم بالغلوّ في الدِّين (٥/٧٧)، وباعتبار اللّه هو المسيح عيسى (٥/٧٢).

وحقيقة ذلك، أنّ كلامَ التكفير هذا موجَّهٌ أصلاً إلى وفدِ نجران المسيحي النسطوري؛ وقد عـمّمه «مصـحف عثمـان» على المسيحيّين والنّصـارى سواء بسـواء. ومن المعلوم أنّ مـحمّـداً لم يتعـرّف على «المسيـحيّين» إلاّ مع وفـد نجران[٣٥] الذي جـاءه يفاوضه فـي شأن البقاء على إيمانه «عامَ الوفود»، أي ما قـبل السنة الأخيرة من حياته. ومـا سوى هذه المناسـبة، لم يُعـرف عن مـحمّـد أنّه عرف عن كـتبٍ «المسيحيّين»، أو كان له منهم أيٌّ موقفٍ سلبيّ.

---

(٣٣) سورة التوبة ٩/٧٣؛ سورة التحريم ٦٦/٩.

(٣٤) أنظر السور التـالية : ٢/١١٦ ؛ ٤/١٧١ ؛ ٦/١٠١ ؛ ١٠/٦٨؛ ١٧/١١١؛ ١٨/٤؛ ١٩/٣٥ و٨٨ و٩١ و٩٢ ؛ ٢١/٢٦؛ ٢٣/٩١؛ ٢٥/٢؛ ٣٩/٤؛ ٤٣/٨١؛ ٧٢/٣؛ ١١٢/٣...

(٣٥) وفد نجـران المسـيحيّ مـؤلّف من ستّين رجـلاً منهم الأسقف والأمـير والقـائد والعالم... طلبوا من النّبيّ أن يبقـيهم على دينهم؛ وطلب منهم النّبيّ، مقابل ذلك، أن يؤدّوا الجزية، ويخـضعوا للمـسلمين، ويمارسـوا شـعائر دينهم سرّاً، ولا يبـشّروا بإيمانهم... إلى حين، أي إلى أنْ يعتنقوا الإسلام، أو يرحلوا عن ديار المسلمين. أنظر خبر هذا الوفد في كتب السيِّر والتاريخ كلِّها.

واختلط على «الفاتحين» أيضاً رأيهم في الرهبانيّة والرهبان، فظنّوا أنّ توافقاً بين «كتاب القسّ والنبيّ» وبين «مصحف عثمان» في شأنهم، واعتبروا الرّهبانيّة بدعة: «ورهبانيّة ابتدعوها» (٥٧/ ٢٧)، والرهبانَ «يأكلونَ أموالِ الناسِ بالبَاطل» (٩/ ٣٤)، والناسَ يتّخذونَهم «أرْبَاباً مِنْ دُونِ اللّهِ» (٩/ ٣١). فيما الحقيقة في «كتاب القسِّ والنبيِّ»، كما رأينا، هو غير ذلك.

إنّنا لا نجد مبرِّراً لهذا الخلط بين النّصارى والمسيحيّين، في «مصحف عثمان» سوى الانتصار السياسي الذي حقّقه «الفاتحون». هؤلاء وجدوا سكّان الأمصار، التي افتتحوها وذلّلوها، أعداء لهم. ومن الطبيعي أن يكونوا كذلك، شأنهم شأن كلِّ مدحورٍ منهزِمٍ أمام الفاتح العاتي؛ ومن الطبيعي أيضاً، والقرآن لا يزال في طور «جمْعِه»، أن يكون موقف «الفاتحين» من المهزومين سياسيّاً كموقفهم من المشركين والمنافقين والكفّار وأهلِ الكتاب من يهودٍ ونصارى ومسيحيّين ومجوس، موقفاً عدائيّاً.. لذلك شملَ العِداءُ جميع هؤلاء، حتّى ولو كان هؤلاء على دين الفاتحين المنتصرين أنفسهم.

ويؤكّد لنا هذا الخلطَ الحاصلَ بين «كتاب القسّ والنّبيّ» و«مصحف عثمان» وجودُ آياتٍ في غير مكانها: آيات مكّيّة في سورٍ مدنيّة، وآيات مدنيّة في سور مكّيّة؛ وسورٌ رُتِّبَتْ بحسب طولها وقصرها، لا بحسب ظروفها الزمنيّة، أو «أسباب نزولها». وزيدت كلماتٌ جنب كلماتٍ لم تكن في الأصل. وأصبح «مصحف عثمان» متحدّياً التاريخ، ومستهتراً بأبسط أصوله. وفُرِضَ على الناسِ فرضاً، وحُرِقَ ما سواه، مع ما في مصاحف الصحابة من قدسيّةٍ.

ويكفي أنْ نختار مِثالاً على ذلك من السور التي أُقْحِمَ فيها «النّصارى» إلى جانب اليهود، دون مبرِّرٍ سوى العداوة اللاحقة بهم من زمنِ الفتوحات.

لقد ورد في «مصحف عثمان»، مثلاً، قوله: «كُونُوا هُوداً -أو نصارى- تَهْتَدُوا» (٢/ ١٣٥). نقول: لا يستبعد أن يكون تعبير «أو نصارى» مُقحماً على النصِّ لأسبابٍ، منها: أنّ الجدال، في سورة البقرة هذه، كان بين محمّد واليهود، ولا دَخْل للنصارى فيه؛ ثمَّ إنّ الآيةَ التالية (١٣٦) تقول بأن الإسلام هو الإيمان بما أوتي موسى وعيسى بلا تفريق، وهو موقف النصارى الصحيح، كما رأينا؛ ثمَّ إنّ الآية (١٣٧) تقتصر على اليهود وحدَهم، حيث قيل عنهم بأنّهم لا يُقِرّون بالهدى عند النصارى، ولا النصارى يقرّون بالهدى عند اليهود، بدليل قول اليهود: «ليستِ النّصارى على شيء»، وقول النصارى: «ليستِ اليهود على شيء» (١١٣). فكيف يَجمع «مصحف عثمان» بينهما اذاً؟! وأخيراً إنّ لفظة «نصارى» تُفسد النَّظْم المسجّع الذي اعتدناه في القرآن، فالصحيح: «كونوا هوداً تهتدوا».

ومثلٌ ثانٍ على ذلك: قول «مصحف عثمان»: «لَن تَرضَى عَنكَ اليَهودُ -ولا النّصارى- حتّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُم» (٢/ ١٢٠). يعود الكلام، ما قبل هذه الآية وما بعدها، إلى اليهود الذين يذكّرهم بما أنعم به عليهم من النبوّة والحكمة، وهو ما لا شأن للنصارى فيه.

ومثلٌ ثالث: «وَقَالُوا: لَنْ يَدخُلَ الجَنّةَ إلاّ مَنْ كَانَ هُوداً -أو نصارى- تِلكَ أَمَانِيُّهُمْ. قُلْ: هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ» (٢/ ١١١). يفسّر الطبري: «أي: وقالتِ اليهودُ: لن يدخلَ الجنّةَ إلاّ مَن كان

يهوديّاً؛ وقالت النّصارى: لن يَدخلَ الجَنّةَ إلاّ مَن كـان نصرانيّاً». غير أنّ هذا التـفـسـيـر هو تفـسيـر للـمعنـى المُراد، لا للآية في مـبناها وأسلوبها. فالمقصود الظاهر من النصّ غيـر ذلك، إلاّ إذا اعتبرنا تعبير «ولا النّصارى» مقحمة، وهو الصحيح.

ومـثلٌ رابع: «أمْ تَـقُـولُونَ إنّ إبرَاهيمَ وإسْـمَـعـيلَ وإسـحَق ويَعقوبَ والأسبـاطَ كَانُوا هُوداً -أو نصـارى- قُلْ: أأنتُم أعلَمُ أمِ اللّهُ؟. وَمَن أظلَمُ ممَّنْ كـتَم شـهـادَةً عِنـدَهُ مِنَ اللّه؟ وَمَـا اللّهُ بغَـافِلٍ عَـمّـا تَعـمَلُونَ» (٢/ ١٤٠). يفسّـر الطبري مـا مُراد الآية ويقـول: «مع أنّ اليهوديّة والنّصرانيّة حدثت بعد هؤلاء الأنبياء.. وأيُّ امرئٍ أظلم ممّن عرف أنّ هؤلاء الأنبياء كـانوا مسلمين، فأخفى ذلك وكتـمه، ونسبهم إلى اليهوديّة والنّصرانيّة». ولكنّ الحـديث يدور كلّه، ما قبل وما بعد، على اليهود وتنكّرهم لأعمال اللّه. ولا دخل للنصرانيّة أبداً.

ومثل خامس: «مَا كَـانَ إبراهيمُ يهودِيّاً -ولا نصرانيّاً-، وَلَكنْ كانَ حَنيفـاً مُسْلِماً وَمَا كَانَ مِنَ المُشرِكِينَ» (٣/ ٦٧).. إنّ تعـبير «ولا نصرانيّاً» مقحمٌ على النّـص، ولا شأن لإبراهيم به. فالـخلاف كان مع اليهود على أنّ إبراهيم، الذي ينتسبون إليه، ما كان يهوديّاً. وليس من خلاف مع النّصارى لأنّهم لم يدّعوا يوماً أنّهم ينتسبون إليه.

وغير هذه الأمثـال كثير؛ وكلّه يقع في سورٍ يدور مـوضوعها الأسـاسـي حول جـدال محـمّد مع اليـهود، ولا دخل للنصـارى فيـه إطلاقاً؛ ويقع في سُوَرٍ هي، في معظمها، من القرآن المدني الّذي عُرف بمخـاصمـته لليـهود، لا للنصـارى. وما في القـرآن من خصـام مع «المسيـحيّين»- لا مع النصارى- هـو أيضاً يعود إلى «عـام الوفود»،

قبل السنة الأخيرة من حياة محـمّد؛ ويعود أيضاً إلى زمن الفتوحات، عندما أصبح اليهود والمسيحيّون والنّصارى والمجوس كلّهم خصوماً مع الفاتحين، سواء بسواء؛ فيما الأصل كان غير ذلك[٣٦].

فأنت تـرى، إذاً، أنّ موقف «مصـحف عثـمان» يخـتلف، فيـما يخصّ النصارى، الموضوع الذي يعنينا الآن ونبـحث فيه، عن موقف «كتاب الـقسّ والنبيّ». ذاك يخاصم اليهود والنَّصـارى على السواء، وهذا يعتبر النَّصارى أصحابَ مـودّة وصفاء. وقد قالها «كتابُ القسِّ والنبيِّ»، بصريح العبـارة، فميّز بين اليهـود الظّالمين والنَّصارى أهلِ المودّة. قال :

«لَتَجِدَنَّ أشَدَّ النّاسِ عَدَاوَةً للّذينَ آمَنُوا اليَهُودَ وَالّذينَ أشْرَكُوا. وَلَتَجِـدَنَّ أقْرَبَهُمْ مَـوَدَّةً للّذينَ آمَنُوا الّذينَ قَالُوا إنَّا نَـصَارَى. ذلكَ بأنَّ منهُمْ قِسِّيسِـينَ وَرُهْبَاناً، وأنَّهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ. وَ(هؤلاء) إذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إلى الرَّسُولِ تَرَى أعْيُنَهُمْ تَفيضُ منَ الدَّمْعِ مِـمّا عَرَفُوا منَ الحَقِّ. يَقُولُونَ: رَبَّنا! آمَـنَّا فاكْتُـبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ. ومَا لَنا لا نُـؤْمِنُ باللّهِ وَمَا جَاءَنَا منَ الحَقِّ، ونَطْمعُ أنْ يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ القَـومِ الصّالحِينَ. فأثَابَهُمُ اللّهُ بمَا قَالُوا جَـنَّاتٍ تَجري مِنْ تَحْتِـهَا الأنْهارُ، خَـالِدينَ فيـها. وذَلكَ جَـزاءُ المُحْسِـنينَ. والّـذينَ كَفَـروا، وكَـذَّبُوا بآيَاتِنَا (كـاليهـود) أُولئكَ أصْحابُ الجَحِيمِ» (٥/ ٨٢-٨٦).

---

(٣٦) أنظر أيضاً: .Blachère, Le problème de Mahomet, p. 123 حيث يعـتبر ٢٢/ ١٧ إقحاماً بالمقابل مع ٢/ ٥٩.

ثالثاً – مُحَمَّدِيّون أم قُرآنِيّون؟

يتأرجح المسلمون اليومَ بين نسبتَين: نسبتهم إلى «كتاب القسّ والنبيّ»، أو «القرآن العربي»؛ ونسبتهم إلى «مصحف عثمان» الذي جُمعتْ سُوره على غير قاعدة. ولنقل أيضاً ، وبكلٍّ بساطة: نسبتهم إلى «القرآن»، كما وصل إلينا وكما هو بين أيدينا، ونسبتهم إلى «محمَّد»، في تمييزه الصريح بين أهل الكتاب.

ألمسلمون، اليوم، هم إمّا «قرآنيون» وإمّا «محمّديون». وهم إلى النسبة الأولى أقرب. والسبب هو «قرآن المدينة». هذا خلطَ الأوراق كلَّها، وفشَّل رسالةَ القسّ والنبيّ. وَلم يكن فشل محمّدٍ بسببِ سوء تدبير أتاه، أو نقص في برنامج عمله، أو استراتيجيّة قصّر في رسمِ معالمها.. بل سبب الفشل «مصحف عثمان» الذي جُمِعَ على غير هدًى[٣٧]، وفتوحات عسكريّة وسياسيّة قضتْ على كلّ شيء، وصراعات طبقيّة عنصرية أملتْها عصبيّة عمياء سيطرت على القرآن يومَ جمعِه، وعلى الفاتحين، والمتقاتلين بعضهم مع بعض.

هذه العصبيّة العمياء فشّلتِ الدعوةَ حالَ موتِ صاحبها، وفرّقت بينِ المسلمينَ والنّصارى، وبدّدت كلَّ أملٍ في الوَحدة بين

---

(٣٧) وهو ما حدانا إلى وضع كتابنا في تاريخ القرآن، جمعه، وتدوينه، وعلومه... بإسم «عالَم المعجزات. بحث في تاريخ القرآن»، وهو الثالث في هذا السلسلة، في طبعته الأخيرة، ٢٠٠٠.

الأحــزابِ والقبــائل، وقضتْ على كـلّ محــاولة حوارٍ في المســتقبل القريب والبعيد.

منذ البدء انشقّ المسلمون، فكان منهم شـيعة وأهل سنّة، وكان فيــهم أنصار ومهاجـرون، أمويّون وهاشمـيّون، قَرشيّـون وأعراب، أهل بيت وأهل إيمان... وسبب ذلك إثنان: أوّلهمــا: إنّ محمداً لم يُوفّق في تعــيين خليفــةٍ له كمــا وفّق القسّ ورقة قـبله؛ والثانــي: إنّ دعوةَ «مكّة» الرّوحيّة، وقرآنها العربيّ لم يـستطيعا أن يسيطرا على غزواتِ «المدينة» وكتابِها التشريعي، الذي «نسخ» كتاب مكّة.

والمسلمــون اليوم يميلون، في نســبتــهم إلى «المدينة»، عنوان انتــصارهم على قــوافل قـريش وقبــائل العـرب واليهــود، أكثــر من نسبتــهم إلى «مكّة» المسلمة الحقيقــيّة، التي تدعو، إلى «الدين الحقّ»، «دين القيّمة».

في «مكة»، كان النّبيُّ «بشيراً ونذيراً»، لا نبيّاً يعرف الغيب، أو عنده خزائن اللّه.

في مكّة خاف الناسُ هولَ السّاعة، وارتعـبوا من يوم الحساب الرهيب، وخــشــوا اللّه، ورجَــوا أنْ يكون يوم الدينونة جـزاءً عــادلاً للمحسنين، وعقاباً صارماً للظالمين..

في مكّة تعلّم الناسُ كـيف يكون الاهتمــام بالمساكين، وإطـعام الجائعين، وسـدّ عوز المحــتاجين، وإقراء الــضيوف، وتحـرير العبـيد والمأسـورين، والشفـقة على الفـقـراء، والرحمــة بالأرامل، والعناية الفائقة باليتامى والثورة على الأغنياء المترَفين..

بين مكة والمدينة بـون شاسع لا يملـي فراغـه الاّ العـودة الى «كـتاب الـقسّ والنبي» أو همّـة العودة إلـيهِ بتـخطّي مـغـانم المدينة الفاحـشة وبالعدول عن القـتال في سبـيل اللّه على حساب الرحـمة بالفقراء واليتامى..

ألمدينة لم تعـرف التسـامح؛ بل عرفت الغـدر والغزو والمـغانم والمكر. وكان اللّهُ فيها «خير الماكرين».

ألمدينة غدرت بمحمّد وبتعاليمـه، وعلى المدينة اعتمد الفاتحون في نسف مفاهيم «الإسلام الحقيقي»، إسلام القسّ والنبيّ.

رابعًا - إسألوا أهلَ الذِّكْر

لقد كنّا كلّنا ضحيةً بلبلةٍ في التاريخ الدِّيني لا حدود لها ولا نهاية. لقد نَطّق المتديّنونَ اللّهَ، واستكتبوه، ونزّلوه من سمائه، وجعلوه ذا همومٍ من أجل الإنسان، فأرسلوا باسمه الأنبياء، وباسمه نزّلوا الوحيَ والكتب، وفي سبيله قضى الإنسان على أخيه في سبيل الدِّفاع عن اللّه.

وليس من متديِّنٍ، مسلماً كان أم غيرَ مسلم، يرغب بالإفراج عن اللّه والحقيقة. وليس من باحثٍ محقِّقٍ يتمكّن من قول الحقيقةِ خالصةً. وليس من جريءٍ مغامرٍ تهون عليه حياتُه ليعلنَ مَا يضمر.

ولا أعجب ممّا يحدث عادةً في الصحاري من متناقضات :

لقد أنزل اللّهُ التوراة على موسى في صحراء سيناء؛ وأرض الميعاد أُعِدَّ لها في أرضِ التّيه؛ ومعجزات اللّه أيضاً كانت في البرّيّة؛ وضرباته كانت هناك أيضاً؛ والروحُ القدُس يكلّم أحبّاءه في سكونِ البادية؛ والمسيحُ أيضاً خضع لامتحاناتِ إبليس في البريّة وانتصر.

وقد طاب للّه، قديماً، أن يُسبَى إلى بابل مع المسبيّين. ويطيب أيضاً لأرواحِ الجنِّ أن تترنّح وترتاح فوقَ فوق الرِّمال؛ والقدِّيسون لا يرتاحون في نجواهم إلاّ في مناسكهم البعيدة في سكون الغابات ورؤوس الجبال وكهوف الودايا...

إنَّ هولَ الصحراء لعظيم.

لا عائق في الصحاري يحول دون الإيمان:

فـالبدوي يرتعبُ من أيِّ شكٍّ في إيمـانه باللّهِ الجبّـار المهيـمن على الكون.. في البادية يسرح النظر إلى اللاّمحدود، إلى اللاّمتناهي، إلى البعـيد، إلى اللّه العليّ. واللاّمـحدود في الصحـراء ينبسط تحت القدمَين ويمتدّ فوق الرأس إلى ما لا نهـاية له: ألصحراء، حيث يعيش البدوي، لا حدود لها؛ والسماء التي يستظلّها، لا نهاية لها. وكلُّ ما هو بين الأرض والسماء غيرُ محدود.

فلكأنَّ كلَّ شيءٍ في البادية مدفوعٌ إلى تمامه وكماله.

لا استقرار في الـبادية، ولكن، لا بدّ من شيءٍ يعوّض عنه. هو الماضي. كلُّ شيء منوط بالماضي. والبدوي أمينٌ على الماضي ويعيشُ فيـه. وما في العالم من تطوّر فـهو إنّما يكون بـسبب نظام الكون، لا بسبب همّة البدوي. من علامـات التمسّك بالماضي أنّ شجرة النّسب، كلّما كانت غارقةً في الآباء والأجداد، كلّمـا شعر البدويّ بالاستقرار، شأنه شـأن الأغصـان التي لا تكون إلاّ بالتحامـها بالجـذور، وشأن الذَرَّة التي لا توجد في الكون إلاّ ملتصقة بأختها.

إنْ عـرفتَ ماضي البـدوي عرفتَ كلَّ شيء عنه: شـخصـيّتـه وعلمه ودينه وتقالـيده وأخلاقه... وانتسابـه إلى الماضي هو الدعامة الثـالثة التي تحـميـه من هولِ اللاّمتناهيـتين الأولَيين: من الصـحراء اللاّمحـدودة، ومن السماء اللاّمـتناهية... إنّ الماضي يحـمي البدوي حقّاً من كلِّ مخاوف الفناء. وهو، في كلِّ حال، معرّض للخوف في كلّ حين : فـهو يخاف الـسماء إن أمطـرتْ، ويخافـها إنْ صَحَتْ؛ يَـخاف الاستقرار كما يخاف الترحال؛ يخـاف الرِّمال تحت قدميه كما يخاف

النجومَ فوق رأسه؛ يخاف السكون والهدوء كما يخاف العواصف الهوج؛ يخاف الغريبَ المجهول كما يخاف أخاه وابنَه وأبناء عشيرته...

هذا الخوف من كلٍّ شيء شَدَّد دعائمَ الإيمان عنده.

فالبدوي يَخشى أن يبدّلَ شيئاً في إيمانه ومعتقداته الدينيّة. ولشدّةِ الخوفِ، يَخشى أنْ يفرّط بشيء ممّا عندَه وممّا عند سواه: فدينه دين إبراهيم وموسى وعيسى؛ وإيمانه إيمان أهل الكتاب بلا تفريق؛ وإلهه إله بني إسرائيل قبل أن يتحزّبوا؛ وشريعته شريعة الأنبياء الأقدمين بلا تبديل؛ وكتابُه مجموعة كتب الأقدمين كلّها... وما الإسلام، الذي دعا إليه القسُّ والنّبيّ، في حقيقته وجوهره، إلاّ دين التوحيد بلا تفريقٍ بين الرسل والأنبياء؛ وما المسلمون حقّاً إلاّ القائلون أبداً: «لا نُفَرِّقُ بَينَ أَحَدٍ مِنْهُمْ. وَنَحْنُ لَهُ (أي للّه) مُسْلِمُونَ»[٣٨]...

فمن لا يخاف لا يُحسَب من المسلمين الطيّبين. وأكثر خوف المسلمين على اللّه من أن لا يكون إلهاً. لهذا فهم يبتهلون باستمرار: «ألله أكبر»، خوفاً على اللّهِ من أن لا يكون كذلك؛ ويتلفّظون باسم اللّه، خوفاً على اللّه نفسه؛ ويُجلّونَه ويُعلونَه جدًّا لئلاّ يلحقَه إهانة ما: فاللّه، عندهم، مصحوب أبداً بتعابير، مثل: «سبحانه عزّ وجلّ»، و«سبحانه تعالى»، و«جلّ جلاله»، و«جلّ وعزّ»، و«عزّ ثناؤه»، وغير

(٣٨) سورة البقرة ٢/١٣٦؛ س. آل عمران ٣/ ٨٤. أنظر أيضاً: س. الأنعام ٦/١٥٩؛ س. الروم ٣٠/٣٢؛ س. البقرة ٢/ ٢٨٥؛ س. النساء ٤/ ١٥٠ و١٥٢؛ س. آل عمران ٣/ ١٠٥؛ س. الشورى ٤٢/ ١٣ و١٤... إلخ.

ذلك... وعندما لا يُنعت اسم اللّه بذلك، يُخشى على اللّهِ أن يَفقِد هويّته... والخوف على اللّه يُحتّم بُعْدَه، وتعاليه، وكِبَرَهُ، وصَمدانيّته، وأحديَّته، وتفوّقه... فمجدُ اللّه أن يكونَ وَرَاء السّماء السابعة. وإذا ما ذُكر اسمُه كيفما كان وأينما كان، تهتزّ أركانُ الكون لهذا الاستهتار.

والمعروف عن الذين يخافون أنّهم لا يشكّون؛ لأنّ الحرّ وحدَه يشكّ. والخائفُ، لكي يطمئنَّ قليلاً، يقيّد نفسَه بألفِ ألف قَيد. يخلق لنفسه السلاسل والأغلال؛ يثبّتُ شريعتَه بعمد السماء؛ ينزّل كتبَه من الأفق الأعلى؛ يربط عقيدته بأحد الملائكة؛ يتعامل مع اللّه، رغم بعده، ليحصِّنَ حاله ووضعَه وموقعَه، فلا تنتابه الهزّات عند كلّ بليّة. كلُّ بحوث الباحثين لا فائدة فيها. وانعدامُ البحث نتيجة حتميّة لعدم الشكّ وللاطمئنان. والمطمئن لا يبحث، ولا يشكّ، لأنّ الحقيقة كلّها أصبحت بين يدَيه.

وأدهى الأمور أن يلْحقَ بالطمأنينة الماورائية هذه، طمأنينةٌ تامّةٌ في أمور الدنيا وسياسة الحياة وأحوال المجتمع. فَأكْمَلُ نظامٍ للمجتمع هو النظام الذي فَرَضَهُ الكتابُ المنزَل. وكلُّ بحثٍ عن نظام جديدٍ تهوّرٌ في الغيب. وكلُّ نهضةٍ لا تنطلق من الكتاب المنزل لا معنى لها، وتسير لا محالة إلى الزوال.

هذه الطمأنينة رفعتْ عن أصحابها كلَّ عناء ومعاناة؛ إذ هم يتأكّدون ممّا يعرفون من أحوال الجنّة وأفراحها؛ ويعرفون لذّاتها لذّة لذّة؛ ويعرفون المصير المحتّم كيف يكون؛ ويعرفون اللّهَ بأسمائه التسعة والتسعين؛ ويعرفون آياتِه كلّها... بفضل معرفتهم هذه هم يملكون كلَّ حَلٍّ لكلِّ عقدة. ولهم على كلِّ سؤال جواب...

كلٌّ شَيءٍ عنـد المطمـئنّين ثـابتٌ إلاّ الإنســان. هذا المـسكين هو الضحيّـة، ضحيّة الاطمئنان، ضـحيّة السماء الثـابتة، والكتب المنزلة، والشريعـة التي لا تلين، والحقيـقة المربوطة بالأفق الأعلى، والعقـيدة الصامدة مدى الدهر...

لقـد بعثَ اللّهُ الأنبيـاءَ والكتب، واخـتفى. لا مـراجعـة. تسليم مطلق. لا شيء يحتاجُ إلى أنْ يتطوّر أو يتقدّم أو يترقّى. لا حاجة بعدُ إلى اللّهِ بعـدَ أن أعطانا كلَّ مـا لديه. لا حاجـة إلى وسـيطٍ بيننا وبينه طالما أنّه أنعم علينا بما عنده...

هذا كلام من وحي الصـراع بين «مكّة» و«المدينة». ومن وحي قول الكتـاب لأهله: «إسْألُوا أهلَ الـذِّكْرِ». أهل الذِّكر هؤلاء كـانوا في مكّة؛ والمطمـئنّون كـانوا في «المدينة». وسيـأتي يومٌ نعـود فيـه إلى أفضل ما في الإسلام، إلى «قرآن مكّة» الذي «نسخه» «قرآن المدينة». والحكمـة الإلهيّـة من بقاء «قـرآن مكّة» هي أنّه يأتي يومٌ نعود إلـيه؛ فتـصبح «الناسخةُ مـنسوخة» و«المنسوخـةُ ناسخة»؛ فـتكتمل بذلك دورات التاريخ.

خاتمة الكتاب

كنتُ في ما قلت واضحاً جداً؛ وزدته وضوحاً في كتاب الردّ على الذين تناولوا كتابي هذا بالنقد والتجريح، وسمّيتُه: «موازين الحقيقة الصعبة»، لأنّ الّذين ردّوا وضعوا كلّ شيء في «الميزان»: «ميزان الحقيقة الصعبة»، «المسيحيّة والإسلام في الميزان»، «أبو موسى الحريري في الميزان، «قسّ ونبيّ في الميزان».

وكنتُ واضحاً جداً في أنّ إسلامَ النّبيّ كان حركةً دينيّة إجتماعيّة قلبت المجتمع المكّي رأساً على عقب. وقرآن مكّة كان في تعاليمه كتاباً نصرانيّاً، إلى درجة أنّنا سمّيناه «الإنجيل العربي»، وهو كذلك.

وكنت واضحاً جداً في اعتبار تعاليم الإسلام، التي جاء بها القرآن المكّي، من تراث النصرانيّة المكّيّة. يعلّم تعاليمها، ويسير بموجب شريعتها، ويقيم حدودَها، ويبشّر بمعتقداتها...

وفي النتيجة، إنّ القرآن المكّي، في قراءته العربيّة، يعني النّصارى أكثر ممّا يعني المسلمين. هؤلاء ربطوه بالسماء؛ وأولئك وجدوا له، في التاريخ، مصادر. وعلى مَن يشاء البحثَ أن يعتمد على معطيات التاريخ لا على تنزيلات جبريل، الذي أزّم اللّهَ والتاريخَ والإنسان.

مراجع الكتاب

١. ألكتاب المقدّس : ألعهد القديم (ترجمة اليسوعيّين)، والعهد الجديد (ترجمة الكسليك).
٢. ألقرآن الكريم، بتفسير الطبري، والقرطبي، وابن كثير، والرّازي، والجلالَين.
٣. ألمعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، مطابع الشعب، ١٣٧٨ هـ.
٤. إبن هشام، ألسيرة النبويّة، تقديم طه عبد الرؤوف سعد، ٤ أجزاء، دار الجيل.
٥. ألواقدي، كتاب المغازي، تحقيق د. مارسون جونس، ٣ أجزاء، ألأعلمي.
٦. إبن سعد، ألطبقات الكبرى.
٧. إبن الأثير، ألتاريخ الكامل.
٨. إبن كثِير، ألسيرة النبويّة، تحقيق مصطفى عبد الواحد، القاهرة، ١٩٦٤.
٩. علي بن برهان الدين الحلبي، إنسان العيون في سيرة الأمين المأمون، المعروفة بالسيرة الحلبيّة؛ وبهامشها السيرة النبويّة والآثار المحمّديّة، المعروفة بالسيرة المكّيّة، تأليف أحمد زيني المشهور بدحلان، مطبعة الاستقامة، ألقاهرة ١٩٦٢.
١٠. ألبخاري، صحيح البخاري بشرح الكرماني.
١١. مسلم، صحيح مسلم.
١٢. ألنويري، نهاية الأرب في فنون الأدب؛ دار الكتب المصريّة، ١٨ جزء.
١٣. ألطبري، تاريخ الطبري، دار المعارف بمصر، ذخائر العرب، ٨ أجزاء.

١٤. ألمسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، دار الأندلس ١٩٧٣.
١٥. ألشهرستاني، ألملل والنحل، تحقيق سيّد كيلاني، جزءان، ألبابي الحلبي، القاهرة، ١٩٦١.
١٦. ألبغدادي، ألفَرق بين الفِرق، تحقيق محمّد محيي الدين عبد الحميد، مكتبة محمّد علي صبيح بمصر.
١٧. ألنوبختي، كتاب فِرَق الشيعة، عني بتصحيحه هـ. ريتر؛ النشريات الإسلاميّة ٤؛ جمعيّة المستشرقين الإلمانيّة، إستانبول، مطبعة الدولة ١٩٣١.
١٨. ألأزرقي، أخبار مكّة وما جاء فيها من الآثار، جزءان.
١٩. د. جواد علي، ألمفصّل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ١٠ج، دار العلم للملايين بيروت، ومكتبة النهضة ببغداد، ١٩٤٨-١٩٧٣.
٢٠. محمّد عزّة دروزة، عصر النّبيّ وبيئته قبل البعثة، دار اليقظة العربيّة، طبعة ثانية ١٩٦٤.
٢١. جرجس سال الإنكليزي، مقالة في الإسلام، تعريب هاشم العربي، طبعة ثالثة، بولاق بمصر ١٩١٣.
٢٢. سنكلير بسدل، تنوير الأفهام في مصادر الإسلام، دار الطليعة.
٢٣. بندلي جوزي، من تاريخ الحركات الفكريّة في الإسلام، دار الروائع بيروت.
٢٤. حسنين كروم، محمّد. نظرة جديدة. فصل: نظريّة الثورة والتنظيم.
٢٥. ألشيخ صبحي الصالح، مباحث في علوم القرآن، دار العلم للملايين، ١٩٦٥.
٢٦. محمّد حسين هيكل، حياة محمّد، مكتبة النهضة المصريّة ١٩٦٥.
٢٧. دكتور طه حسين، في الأدب الجاهلي، دار المعارف بمصر ١٩٤٧.
٢٨. مار أفرام السرياني، منظومة الفردوس، تعريب الأبوين روفائيل مطر ويوحنّا الخوند.

٢٩. أوسابيوس القيصري، ألتاريخ الكنسي، ترجمة اسكندر شديد، نسبَيه، ٢٠٠٠.

٣٠. الأستاذ الحداد، ألقرآن دعوة نصرانيّة، جونيه ١٩٦٩.

1. *La Bible apocryphe*, en marge de l'Ancien Testament. Textes choisis et traduits par J. Bonsirven; Ed. du Cerf, Paris 1975.
2. *La Bible apocryphe, Evangiles apocryphes,* par F. Amiot; Ed. du Cerf, Paris 1975.
3. M.R. James, *The Apocryphal New Testament*, 1953.
4. R.H. Charles, *The Apocrypha and Pseudepigrapha of the Old Testament*, t. II, 1913:
5. J.B. Colon, article: *Judéo-chrétiens*, in *S.D.B.*, t. 1V, col. 1298-1315.
6. F. Prat, art. *Judaïsants et Judéo-chrétiens*, in *D.B.*, t. III.
7. L. Marchal, article: *Judéo-chrétiens*, in *D.T.C.*, t. VIII.
8. E. Amann, article: *Apocryphes*, in *S.D.B.*, t. I, col.460-533.
9. F. Vigouroux, art. *Evangile des Hébreux*, in *D.B.*, t. III.
10. M.-J. Lagrange, *L'Evangile selon les Hébreux*, in *Revue Biblique*, 2 (1922), pp. 161-181; 3 (19220, pp. 322-349.
11. J. Daniélou, *Théologie du Judéo-christianisme*, Paris 1958.
12. D. Masson, *Monothéisme coranique et monothéisme biblique. Doctrines comparées*, Ed. DDB, Paris 1976.
13. Tor Andrae, *Les origines de l'Islam et le Christianisme,* traduit de l'allemand par Jules Roche, coll. "*Initiation à l'Islam*", VIII; Lib. d'Amérique et d'Orient, Adrien-Maisonneuve 1955.
14. Cl. Huart, *Une nouvelle source du Qoran*, in *Journal Asiatique*, t. IV (1904), pp. 126-129.
15. W.St. Clair Tisdall, *The Original Sources of the Qur'an.*
16. Hanna Zakarias, *L'Islam. Entreprise juive. De Moïse à Mohammed.*
17. *La Sainte Bible*. Ecole Biblique de Jérusalem; Ed. du Cerf, Paris.
18. *T.O.B., Ancien et Nouveau Testament.* Edition intégrale.
19. R. Blachère, *Le Coran*, traduit de l'arabe. Maisonneuve et Larose, Paris, 1956.

20. R. Blachère, *Introduction au Coran*, Ed. Maisonneuve, Paris, 1947.
21. R. Blachère, *Le Problème de Mahomet*, PUF, 1952.
22. D. Masson, *Le Coran. Introduction, Traduction et Notes*, Bibliothèque de la Pléade, 1967.
23. H. Lammens, art. *Mekka*, in *Encyclopédie de l'Islam*, t. III.
24. H. Lammens, *L'âge de Mahomet, et la chronologie de la Sira*, in *Journal Asiatique*, t. XVII (1911).
25. H. Lammens, *Qoran et Tradition. Commment fut composée la vie de Mahomet*, in *Recherches des Sciences Religieuses*, t. I (1910).
26. C. Ryckmans, *Les Religions arabes préislamiques*, in *Histoire des Religions* de Mortier-Gorce, t. III, 1947; pp. 215-332.
27. Aigrain, article: *Arabie*, in *Dictionnaire d'Histoire et de Géographie*, t. III, col 1158-1339.
28. W.M. Watt, *Mahomet à la Mecque*, trad. Dourceil; *Mahomet à Médine*, trad. Guillemin et Vaudou, 1958-9.
29. Tor Andrae, *Mahomet. Sa vie et sa doctrine*, Adrien-Maisonneuve, 1945, 2 tomes.
30. A. Cohen, *Le Talmud*, Trad. de Jacques Marty, Payot, Paris 1977.
31. Marcel Simon, *Verus Israel*, Paris 1948.
32. Bagatti, *L'Eglise de la Circoncision*, Jérusalem, 1965.

محتوى الكتاب

ألطبعة الخامسة عشر ٢٠٠٥
محقّقة ومنقّحة



